كلاسيكيات أثر Athar Classics



صباح الدين علي

مادونا
صاحبة معطف الفرو

ترجمها عن التركية جهاد الأماسي



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي Kürk Mantolu Madonna

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من: Telif Haklan ONK Ajans Ltd Sti

بمقتضى الإتفاق الخطي الموقع مع دار أثر للنشر والتوزيع.

الطبعة الثانية

2015 / 1437

ردمك: 9786149632381



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية- الدمام

تلفون : 00966505774560

الموقع الالكتروني : www.darathar.net

Email: info@darathar.net

صباح الدين علي

مادونا صاحبة معطف الفرو

روايـــــة

ترجمها عن التركية

جهاد الأماسي



تقديم المترجم

بما أن هذه الترجمة تعد أول تجربة لي أود أن أتقدم بالشكر للصديق العزيز راضي الشمري على تحفيزه لي وإلهامه لي بفكرة خوض التجربة. راضي، عاشق الروايات النهم، شكى لي مرة من عدم وجود ترجمة عربية لرواية تركية وجدها تترأس قائمتين، أولهما قائمة أفضل الكتب مبيعاً في تركيا رغم نشرها قبل ما يقارب السبعين عاماً. والثانية قائمة أفضل الروايات التركية في موقع الكتروني عالمي للقراءة. وطرح علي فكرة ترجمتهاا ومع إلحاحه أخبرته بأني سأحاول. .وهذه النتيجة بين أيديكم.

أتقدم بشكري أيضاً لكل من ســاعدني في إنجاز الترجمة من الأصدقاء العرب والأتــراك. أخص منهم العزيزة ســتناي جوهر لإيضاحها ما اســتعصى علي من الكلمات والجملا والرفيق أنس العمري لما بذله من جهد في المراجعة والتحرير.

وبــما أنني أتممت هذه الترجمة في آخر ســنواتي الجامعيةافإني أهديها للرفاق والأصدقاء الذين جمعتنا فيها الجامعة لسنوات قصيرة كانت جميلة بهم فقط. وأخص بالذكــر.. هادي فقيهــي وفيصل الشريف وأنــس العمري وعبدالعزيز المطرفي وأحمد بادغيش وإبراهيم حسينون وأنور الحازمي.

صباح الدين علي

ولـد صباح الدين علي في شـباط عام 1907 في مدينـة كوموجينة في الامبراطوريـة العثمانية- والتي تقع حاليـا في بلغاريا- ومات قتيلا في ظـروف غامضة عام 1948 في كركلارلي. تخرج كمعلم في اسـطنبول وعمل في التعليم لعام كامـل في يوزقات قبل ان يبتعث من قبل وزارة التعليـم الى المانيا عام 1928 .عمل بعد عودته مـن المانيا عام 1930 كمعلم للألمانية في كل من أيدن وقونيا وانقره وبعدها كموظف في دار للنشر ومن ثم تولى منصب نائب المدير في معهد الموسـيقى الحكومي. أسس في اسـطنبول مجلة ماكروباشا السـاخرة، وفي عام 1948 القي القبض عليه بسبب بعض كتاباته وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر. وبسـبب المراقبة الدائمة له اراد الهرب خارج تركيا حيث يقال بأنه قتل عـلى يد أحد المهربين اثناء محاولته التسـلل عبر الحـدود. كتب صباح الدين علي الشـعر والقصة والرواية كما قـام بالترجمة الى جانب ذلك، حيث نشرت اولى كتاباته في الصحافة عام 1925 . وفي ثلاثينيات القرن العشرين أدخل صباح الدين روحا واقعية وجديدة على فن القصة، فبرع

في قصصه من خلال تصويره لمعانة ابطاله وبؤسهم باسلوب فذ. ونظر في رواياته الى الواقع من خلال مرآة الروح الانسانية. رسخ صباح الدين علي منهجه الواقعي في عقول القراء من خلال رواياته الثلاث يوسف الكويوجالي(1937) و(الشطان في داخلنا(1940) ومادونا صاحبة معطف الفرو.

بدأ صباح الدين بكتابة رواية مادونا صاحبة معطف الفرو داخل خيمة اثناء خدمته في الجيش للمرة الثانية، نشرها على شكل حلقات متسلسلة في مجلة الحقيقة في الفترة الواقعة بين 1940 و 1941 تحت عنوان(حكاية كبيرة).

قد يكون الإنسان الذي قابلته صدفةً صاحب أكبر تأثير علي في حياتي حتى الآن. فرغم مرور أشــهر على الحادثة إلا أني لم أفلت من تأثيره علي بعد. فمتى ما اختليت بنفسي، يترائى لي وجه رائف أفندي الصافي والمبتعد عن الدنيا قليلاً، بنظراته التي تجعلك راغباً في الابتســام لأي إنسان تصادفه في حياتك. لم يكن انســاناً مميزاً أو غير إعتيادي، بل كان شــخصاً عادياً بلا مزيةٍ مختلفة. كان مثل مئات الأشــخاص الذين لايلفتون أنظارنا بينما نمــشي في الطرقات كل يوم. من المؤكد بأنه لم يكن في حياته أي شيء يثير الإهتمام لأي شخص حوله، ســواء عرفناه أو لم نعرفه. عندما نرى مثل هؤلاء الأشخاص فإننا دائماً مانســأل أنفسنا: (لماذا يعيش هؤلاء الناس ياتــرى؟ ماذا يرون في العيش؟ أي منطــقٍ وأي حكمةٍ تأمرهم بالتنفس والتسكع في كل مكانٍ على وجه الأرض؟). لكننا حين نفكر بذلك فإننا ننظر إلى ظاهر هــؤلاء الناس فقط، دون التفكــير بوجود عقولٍ داخل رؤوسهم؛ وأن تلك العقول- شاؤوا أم أبوا - محكومةٌ بالعمل والتفكير، ولذلك فلــكل امرئ منهم عالم كامن في داخله لانحــس به. ربما لو أننا نظرنا إلى دواخلهم الخفية، ووقفنا موقف الحكم مما يعيشــونه داخلياً، لو أثار هذا العالم المجهول فضولنا، فلربما رأينا أشــياء لم نكن لنتخيلها أبداً

ولأصبح عثورنا على أغنياء النفوس ممكناً. لكن الناس - ولسببٍ ما - يفضلون ما ألفوه وعرفوه مسبقاً على مايمكن أن يكتشفوه. فأن تجد بطلاً له من الشجاعة مايكفي للنزول في بئر يحوي تنيناً في أسفله لهُوَ أسهل من إيجاد شجاعٍ مستعدٍ للنزول إلى بئر مجهول الأعماق. حتى أنا لم أعرف رائف أفندي عن قرب، كان مجرد أثرٍ لصدفة عابرة.

لم أعرف لماذا فصلوني عن عملي في البنك الصغير بعدما أخرجوني منه. قالوا لي أن القرار كان لأجل تقليل المصروفات، لكنهم وظفوا رجلاً آخر مكاني في الأسبوع التالي. بحثت لمدة طويلة في أنقرة عن عمل. أمّنت لي قروشي المتبقية العيش في شهور الصيف، لكن الشتاء الذي كان على الأبواب حتّم عليَّ التوقف عن النوم في غرف الأصدقاء وعلى مقاعد الحدائق. فلم يكن معي مايكفي من النقود حتى لأكل أيّ شيءٍ في المطعم الذي ستنتهي رخصته قريباً. وكان عدم الاعلان عن نتائج اختبارات القبول الوظيفية الكثيرة التي تقدمت اليها يثير حزني، رغم يقيني المسبق بأنها لن تعلن.. كان يرفض طلبي الوظيفي للعمل في المتاجر كنت ومن دونْ علم أصدقائي أتجول يائساً قانطاً حتى أنصاف الليالي. لم أنسَ وضعي البائس حتى عندما كان بعض المعارف يدعونني لطاولات الشراب بين الحين والآخر. الغريب في الأمر، أنه ومع تزايد همومي ووصول حاجتي وفاقتي إلى حدٍ لايحتمل، كان ترددي وخجلي يتناميان أيضاً. حتى معارفي الذين سعوا لأجل إيجاد عمل لي سابقاً، ورغم أنني لم أرَ منهم معاملة سيئة، إلا أنّي كنت عندما أصادف أيّاً منهم

في أحـــد الأزقة أحني رأسي وأحاول المـــرور بسرعة. تغيَّرْتُ حتى على أصدقائي الذين أطعموني مجاناً حين توســـلتهم، وأعاروني نقودهم بلا تململ. حينما يســـألونني «كيف حالك؟»، كنت أرد عليهم مع ابتسامةٍ بسيطة «ليس سيئاً.. أتدبر أعمالاً مؤقتة فقط!» وأهرب. كل ما ازدادت حاجتي إلى الناس، ازدادت معها رغبتي في الهروب منهم أيضاً.

في مســـاء أحد الأيام، كنت أمشي ببطءٍ في طريـــقٍ يخلو من الناس بين المعرض والمحطة، ساعياً لملء صدري بربيع أنقرة البديع من باب زرع التفاؤل في روحي. كل شيءٍ بدا ممتناً لوجوده، ابتداءً من الشـــمس التي كانت بانعكاسها على زجاج مبنى الإصلاحية تخنق مبنى المرمر الأبيض في ثقـــوب بلون الدم، مروراً بالدخان الذي يعتلي أشـــجار الأكاســـيا وشـــتلات الأرز، وصولاً إلى ذلك الشيء الـــذي كان ضباباً أو غباراً.. لم أعرف ماهو، والعاملون المحدودبون الخارجون بملابســـهم المهترئة في صمتٍ من مكان الإنشـــاءات، والإســـفلت المختوم بآثار إطارات السيارات.. جميعهم كانوا يشعرون بالامتنان لوجودهم.

كل شيءٍ كان مقبـــولاً من الناس كما هو. في هذه الحال لم يكن يبقى لي شيءٌ لأفعله أو أســـعى لأجله. في تلك الأثناء مرت من جانبي ســـيارة مسرعة. عندما التفتُ ونظرت إلى السيارة ظننت أنني أعرف الوجه الذي كان خلف الزجاج. بعد خمس أو عـــشرة خطوات توقفت الســـيارة وفُتح بابها. كان صاحب السيارة هو حمدي، أحد أصدقاء المدرسة. أطل برأسه، ثم دعاني. مررت بجانب السيارة.

- «إلى أين أنت ذاهب؟» سألني حمدي.
- «لا مكان، أتمشى فقط»
- «تعال ، لنذهب إلى بيتي!»

أخلى لي مكاناً بجانبه دون أن ينتظر جوابي. أخبرني أنه كان عائداً من جولةٍ في مصانع الشركة التي كان يعمل بها.

- "أخبرتهم بالتلغراف أنني قادم، أعتقد أنهم تجهزوا لقدومي. وإلا لم أكن لأجرؤ على دعوتك!" قال حمدي، فضحكت.

لم أرى حمدي منذ فصلت من البنك. اعتد أن أراه في الماضي كثيراً. كنت أعلم أنه يعمل كسمسار مكائن. وفي نفس الوقت كان مديراً معاوناً يتقاضى مرتباً جيداً جداً في شركة يتعلق نشاطها بالغابات والخشب. لم أطلب مساعدته أثناء بطالتي وبحثي عن العمل لأني ترددت خوفاً أن يظن أني جئت إليه لطلب المال وليس للبحث عن عمل.

- "هل لا زلت تعمل في البنك؟" سأل حمدي.
- "لا، تركت العمل هناك."

تعجب: «إلى أين ذهبت؟»

أجبته على مضض: "لامكان محدد."

تفحصني بنظراته من رأسي إلى قدميّ، نظر إلى ملابسي، لابد أن يكون قد ندم على دعوته إياي لمنزله. ربّت ودياً على كتفي مبتسماً وقال: "سنتحدث في المساء ونجد حلاً، لاتقلق!".

كان يبدو واثقاً من نفسه ومسروراً من حاله، ذلك يعني أنه وصل إلى

درجة من الرفاهيةٍ تسـمح له حتى بمسـاعدة معارفه.. حسدته.كان يسكن في بيتٍ صغير ولكنه لطيف، و له زوجة دميمةٌ قليلاً الا أنها قريبة من القلب، قبـلا بعضهما أمامي دون أي حـرج. تركني بعدها حمدي وحيداً وذهب للاغتسال. بقيت متسـمّراً مكاني وسط غرفة الضيوف من دون أن أعرف ماذا علي أن أفعـل لأنه لم يعرفني على زوجته. التي كانت تتفحصني خلسـة وهي واقفة بجانب الباب. فكرت لبرهة، من المرجح أن يكون قد غاب عن ذهنها ان تقول "تفضل، اجلس" . لكنها خرجت بعد أن ارتأت أن لا لزوم لفعل ذلك.

فكرت في سبب إكرام حمدي لي. وهو نفسه حمدي الذي لم يكن مهملاً في يوم من الأيام، والذي كان اهتمامه وحرصه الزائدين سـبباً كبيراً لمعظم نجاحاته. كان من أحد العادات الأساسية للرجال الذين ينتقلون لمواقع مهمة تجاهلهم لأصدقائهـم القدامى، والأقل منهـم درجةً بالذات. وحتـى من كانـوا يخاطبونهم في ذلك الزمان ب "أنتـم" - احتراماً - صـاروا فجأة يخاطبونهم بـ"أنت". وبـكل تواضع وود وحنان أبوي. يقاطعون جمل محدثيهم لطرح أسـئلة عشوائية لامعنى لها. ويرون هذا التصرف طبيعياً جداً، بل يفعلونه مع ابتسامةٍ مليئةٍ بالشفقة والعطف.

بسبب مواجهتي لكل هذا في الفترة الأخيرة واعتيادي عليه، لم يخطر على بالي حتى أن أغضب مـن حمدي. فكرت فقط في أن أنهض وأخرج من دون استئذان كي أنقذ نفسي من هذا الوضع. لكن فجأة، جاءت عجوز قروية متحجبه ومتأزرةً بالبياض، ترتـدي جوارب مرقعة وقدمت لي

القهوة دون أن تصدر أي صوت. جلسْتُ على أحد الأرائك المطرزة بالزهور الذهبية ونظرت حولي. كان على الجدار صور فنية وعائلية، وفي الركن كان هناك مايبدو أنه رف كتب للسيدة، بالإضافة إلى عدة مجلات موضة مع بعض الروايات الرخيصة. تحت قاعدة السجائر كان هنالك عدة ألبومات يبدو أنها بُعثرت بفعل بعض الضيوف. تناولت أحدها لأني لم أعرف ماذا أفعل، وقبل أن أفتحها ظهر حمدي عند الباب، وهو يسرح شعره المبلل بإحدى يديه وبالأخرى يقفل أزرار قميصه الإفرنجي الأبيض.

- " لنر كيف حالك. احكِ لنا." سأل.

- "لاشيء.. أخبرتك يا رجل!".

كان يبدو مسروراً من مقابلته لي مصادفة. ربما كان مسروراً لقدرته على التباهي بالمناصب التي وصل إليها، أو أنه كان مسرور لأنه لم يكن مثلي، وهو يراني على هذه الحال. لسبب ما، وعندما تحيق مصيبة بأحد الأشخاص الذين كنا نعاشرهم لفترة، ونرى أنواع البلاء والهموم التي وقعت عليهم، فإننا نشعر بارتياح لأنها لم تقع علينا نحن. كأننا بشكلٍ أو بآخر، نريد أن نبدي لهم الشفقة والعطف كنوع من أنواع الشكر، لما تحملوه مما كان من الممكن أن يحصل لنا. كان حمدي يبدو وكأنه يخاطبني بنفس الإحساس. سألني: «هل تكتب؟»

- "أحياناً.. قصيدة، أو حكاية!"

- "هل تعود عليك بفائدة على الأقل؟"

ضحكــت مجدداً، قبل أن يبادرني بقوله: "اترك هذه الأشــياء ياعزيزي! فــشيء مثل الأدب يصبح تافهاً وربما ضاراً خارج صفوف المدرســة، لا يفيدك في حياتك العملية أبــداً." كان يتكلم وكأنه يعطي نصيحةً لطفل صغــير، من دون أن ينتظر جواباً أو نقاشــاً. لم يكن متردداً لأن يريني أن هذه الجســارة في الكلام هي أحد الأشــياء التي اكتسبها من نجاحاته في الحياة، قابلته بابتسامة بلهاء مناسبة ونظرات مليئة بالإعجاب والتشجيع. قــال لي: "مرّ عليّ غداً صباحاً"، "لنرى، ســنفكر في شيءٍ ما. أنت ولدٌ ذكي، أعرف ذلك، لم تكن مجتهداً في عملك، لكن لا أهمية لذلك. الحياة وضرورياتها تعلم الإنسان الكثير. لاتنسَ، تعال مبكراً وقابلني!". كان يبدو ناسياً بينما يقول هذا الكلام أنه كان من أكسل الكسالى في المدرسة، أو ربما كان يتكلم براحةٍ تامةٍ لعلمه بأني لن أواجهه بهذه الحقيقة هنا.
تحرك كأنه على وشك النهوض، نهضت حالاً ومددت يدي:
- "اسمح لي!".
- "لماذا عزيزي؟ مازال الوقت مبكراً... لكن أنت أعلم! كما تريد."
نســيت أنه قد دعاني للطعام. تذكرت ذلك في هــذه اللحظة، يبدو أنه أيضاً قد نسي ذلك. توجهت نحو الباب وأنزلت قبعتي وقلت: " تحياتي إلى السيدة!"
- "حسناً حسناً، مر بي غداً! ولا تقلق عزيزي." قالها وهو يربّت على ظهري.
لم يكن الظلام شــديداً عندما خرجت، كانت مصابيح الإنارة مشتعلة. أخذت نفساً عميقاً، مع أن الهواء كان مختلطاً بالغبار إلا أنني أحسست

أنه كان نظيفاً جداً ومنعشاً. فمشيت ببطء.
في اليـــوم التالي، وقبل الظهيرة، ذهبت إلى شركة حمدي. رغم أني لم أكن انتوي العوده اليه مجدداً عندمـــا خرجت من بيته البارحة. لم يكن هناك وعد صريحٌ على أي حال. "لنر، ســـنفكر في شيء، ســـنفعل شـــيئاً!". أحسســـت به كأي ردٍ اعتدت أن أسمعه عندما كنت أبحث عن عمل. لكنني رغم ذلك ذهبت إليه. كان في داخلي أكثر من مجرد أمل. لســـببٍ ما، كانت عندي رغبة في أن أرى نفسي مُهاناً. كنت أريد أن أقول لنفسي: "مساء البارحة أنصتَّ دون أن تصدر أي صوت، وارتضيت لنفسك أن يعاملك كوليّ نعمتك. لنر ماذا سيجلب كل هذا، تستحق ذلك."
أخذني الخـــادم أولاً لغرفة صغيرة وجعلني أنتظـــر. عندما دخلت إلى حمدي وجدتني أبتسم نفس ابتسامة البارحة البلهاء وغضبت من نفسي أكثر. كان حمدي مشـــغولاً بكثير من الموظفـــين الداخلين والخارجين، والعديد من الأوراق الموضوعة أمامه. أشار لي برأسه إلى كرسيٍّ واستمر في عمله. جلست من دون أن أجرؤ على مصافحته. أصبحت أراه الآن كمديري فعلاً، بل من المدهش انني أحسســـت أنه ولي نعمتي، وبأنني أستحق كل هذه المعاملة الوضيعة. صديق المدرسة القديم الذي أخذني في سيارته البارحة والموقف الذي حصل لنا خلال ما لا يزيد عن اثنتي عشرة ساعة! تلك العوامل المنظمة للعلاقات بين الناس، كم هي مثيرة للضحك وسطحية وفارغة، وعلاقتها بالإنسانية ضعيفة جداً.
لم نتغـــيّر أنا وحمـــدي عما كنا عليه من مســـاء البارحـــة، في الحقيقة كنا

كما نحن في السابق. ورغم ذلك، ساقتنا الأشياء التي عرفها عني، والأشياء التي أعرفها عنه، وبعض الأشياء المتعلقة ببعض التفاصيل الصغيرة إلى اتجاهاتٍ مختلفة. الغريب في الامر، أن كلانا كان متقبلاً لهذا الإختلاف ويجده طبيعياً. غضبي لم يكن على حمدي، ولا على نفسي، بل على وجودي هنا فقط. عندما خف ازدحام الغرفة، رفع صديقي رأسه وقال: "وجدت لك عملاً!". ثم زاد وهو ينظر إليّ بتلك النظرات الواثقة: "أعني أني أوجدت لك عملاً، ليس بالعمل المتعب. ستتابع بعض الأعمال في بنكنا وفي بعض البنوك الأخرى. مثل موظف الاتصال بين الشركة والبنوك. وفي أوقات فراغك تجلس بالداخل وتقوم بأعمالك الخاصة، اكتب الشعر كما تريد. لقد تكلمت مع المدير، وسوف نعيّنك. لكننا لن نعطيك الكثير في الفترة الحالية: أربع وخمسون ليرة. ستزيد مع الوقت طبعاً. هيا! بالتوفيق!".

مد يده إليَّ مصافحاً قبل أن ينهض، فنهضت وشكرته. كان هناك سرورٌ ودّي يتبدى في وجهه بسبب ما فعله لي. لم يكن حمدي بالشخص السيء، لكن ربما كان مايفعله في الحقيقة من مقتضيات العمل الذي يقوم به. عندما خرجت وقفت في الردهة لمدة من الزمن، وترددت بين أن أدخل الغرفة التي أشار عليّ بأن أذهب إليها وبين أن أترك المكان وأخرج. ثم ببطء، ورأسي منحنٍ للأمام، مشيت عدة خطوات وسألت أول خادم صادفته عن غرفة رائف أفندي. أشار لي الخادم بيده إلى باب غير محدد وذهب. توقفت مجدداً. لماذا لم أكن قادراً على ترك المكان والخروج من

المبنى؟ ألا أستطيع التضحية بأربع وخمسين ليرة شهرية؟ أو ربما لأني خائفٌ أن يكون تصرفي معيباً أمام حمدي؟ لا! أشهر بطالتي الطويلة، وعدم معرفتي بوجهتي إذا خرجت من هنا وأين سأبحث عن عمل، ووقوعي الحالي ببراثن الإحباط.. كل ذلك جعلني أبقى في هذه الردهة المظلمة وأنتظر خادماً آخر.

أخيراً، وصلت إلى الباب ورأيت رائف أفندي في الداخل. لم أكن أعرفه من قبل. الا أنني عرفته فور روؤيتي له منحنياً على مكتبة. فكرت لاحقاً بمصدر هذه القناعة. قال لي حمدي: "وضعنا لك مكتباً في غرفة مترجم الألمانية رائف أفندي، رجل بسيطٌ وهادئ، مشغول بنفسه، ولايصيب ضرره أحداً". رغم أن الجميع يستخدم لقب سيد و سيدة هذه الأيام، إلا أنهم مازالوا يستخدمون لقب أفندي عندما يتحدثون عن رائف[1]. يحتمل أن يكون ذلك اللقب هو ماجعلني أتخيل رجلاً غير الرجل ذي الشعر المجعد، والنظارة الدائرية والذقن غير الحليقة الذي أراه امامي. وهذا ماجعلني أدخل من دون تردد. رفع رأسه ونظر إليَّ بعيون متفحصة.

– «أنتم رائف أفندي، أليس كذلك؟»، سألته.

نظر إليّ متفحصاً لفترة، ثم قال لي بصوت خفيفٍ ومرتبك:

– "نعم أنا هو! وأنتم الموظف الجديد؟ على كل حال تفضلوا. أهلاً وسهلاً."

(1) ألغي استخدام الكثير من الكلمات العثمانية مع إنشاء الجمهورية التركية الحديثة، وأفندي من بينها وهو لقب عثماني بمعنى السيد ويطلق على المتعلمين في الأغلب. – المترجم.

جلست على الكرسي. بدأت بالنظر في بقع الحبر الباهتة والرسومات على مكتبي. وكما هو المعتاد عند جلوس المرء أمام شخص غريب، بدأت وبعيون متلصصةٍ أدقق النظر في زميل غرفتي رغبةً في تكوين انطباعي الأول والخاطئ بطبيعة الحال عنه. لكنه لم يشعر بمرادي هذا، وعندما أطرق مجدداً وعكف على إكمال عمله، أحسست بأنه كان مشغولاً لدرجة أنه لم يحس بوجودي.

استمر الحال على هذا المنوال حتى الظهر. أصبحت الآن أسرح بعينيَّ بكل حريةٍ في الشخص المقابل لي. بدأ يزيل قبعته عن شعره القصير. كان يمد يده إلى تجاعيده التي تمتد من أسفل أذنيه الصغيرتين حتى نحره. يتمشى بأصابعه الطويلة والنحيلة بين الأوراق، ويقوم بالترجمة دون كلل. بين الحين والآخر، عندما يفكر في كلمة لم يجدها ويرفع عينيه فتلتقي نظراتنا، كان يحدث شيء في وجهه يشبه الإبتسامة. ورغم أنه يبدو كبيراً في السن، إلا أنه عندما يبتسم كانت تبدو على وجهه تعابير طفولية بريئة. كانت شواربه الصفراء والمحددة من الأسفل تزيد من قوة هذه التعابير.

عندما كنت ذاهباً لتناول الطعام قبل الظهر، ومن دون أن يصدر ضجة، أخرج من أحد أدراج مكتبه حافظة طعام وخبزاً ملفوفاً بالورق. قلت له "بالعافية" وخرجت.

رغم أننا كنا جالسين مقابل بعضنا لأيام، إلا أننا لم نتكلم في شيء. كنت قد تعرفت على كثير من الموظفين في الخدمات الأخرى، وبدأت في الخروج معهم إلى القهوة لنلعب "الطاولة". علمت منهم أن رائف

أفندي أحد أقدم الموظفين في المؤسسة. وقبل تأسيس الشركة، كان مترجماً في البنك الذي ترتبط الشركة معه الآن، لا أحد يتذكر متى غيّر عمله. يُقال أن ما يتقاضاه بالكاد يكفيه ويكفي عائلته الكبيرة. وعندما يسأل أحد عن سبب عدم زيادة راتبه، رغم خبرته ومدة خدمته وعمله في شركة تتقاضى الكثير من عملائها، كانوا يقولون: "لأنه أحد الخرفين، لايُعرف حتى إن ما كان متقناً لأي لغة".

علمت لاحقاً بأن ألمانيته كانت جيدة للغاية وأن ترجماته كانت جميلة وممتازة. كان يستطيع ترجمة رسائل عن الرماد، وخشب التنوب، وأنواع مكائن الحفر وقطع غيارها القادمة من ميناء يوغوسلافيا بسهولة. وكان مدير الشركة يضع الوثائق التي تخص الشروط والعقود التي ترجمها رائف من التركية إلى الألمانية في أماكنها دون أن يدقق فيها. كان في أوقات فراغه يفتح درجه ويقرأ بكل تركيز كتاباً من دون أن يخرجه من الدرج، رأيته مرة وسألته "ماهذا؟ يارائف بك؟". غضب وكأنه ضبطني بجرم شنيع وقال متلعثماً: "لاشيء... رواية ألمانية!" وأقفل الدرج فوراً. رغم كل هذا إلا أن لا أحد في الشركة كان يعطي احتمالاً حتى لمعرفة رائف بلغة أجنبية. ربما كان معهم حق، لأن حاله وتصرفاته لم تكن تدل على شخص يعرف لغة أخرى. لم يسمع أحد كلمة أجنبية تخرج من فمه، أو كلمة تدل على معرفته بلغة أجنبية. ولم يرَ أحد صحيفةً أو منشوراً أجنبياً، لا في يده ولا في جيبه. باختصار لم يكن ممن يتشدقون قائلين "أنا أعرف لغة إفرنجية!". تكتّمه على معرفته وعدم مطالبته بزيادة راتبه، وعدم

بحثه عن عمل يدر له أجراً أكثر، عزز من هذه القناعة عنه.

***

يأتي صباحـاً على الوقت تمامـاً. وفي وقت الراحة يـأكل في غرفته. وفي المســاء، يعود إلى بيته بعد أن يشــتري بعض الأغراض البسيطة. ورغم دعوتي له مراتٍ عديدة إلا أنه لم يقبل بالمجيء إلى المقهى. كان يقول "إنهم ينتظرونني في البيت!". فكرت في نفسي، لابد أنه أبٌ لأسرةٍ سعيدة، يقدّم الذهــاب إلى أسرته وأطفاله على أي شيء. ثم عرفت بعد ذلك أن الأمر لم يكن كذلك، لكني ســأشرح ذلك لاحقاً. لم يحمه جهده ومثابرته من أن يكــون محتقراً في محيط عمله. فلو وجد حمدي خطأً مطبعياً حتى وإن كان صغيراً، فإنه يستدعي رائف المســكين على الفور. وأحياناً يأتي إلى الغرفة وهو يستشيط غضباً. صديقي الذي كان دائماً حذرا في تعامله مع الموظفين الآخرين، والذي يخشى من تلقي رد سيء من أحد هؤلاء الشباب الذين لايحابون أحداً، يعامل رائف أفندي معاملةً ســيئة لأنه يعرف عدم قدرته على الرد أبداً. لم أســتطع الفهم من طريقة صراخ حمدي الذي يُسمعه كل من في المبنى، ووجهه المحمرَّ بسبب أن ترجمة ما تأخرت لساعاتٍ قليلة إلا التالي: ما المشــكلة في أن يجرب الإنسان قدرته و سلطاته اللذيذة المسْكرة على أبناء جنســه؟ ولكن حتى ينال فرصة القيام بمثل ذلك، عليه عمل بعض الحسابات الدقيقة، وألا يمارسها إلا مع أشخاصٍ محددين.

كانت صحة رائف تعتلّ بين كل فترة وأخرى ولا تســمح له بالمجيء إلى العمل. غالبــاً ماتكون مجرد نوبات برد عادية، لكــن الإلتهاب الرئوي

الذي قال أنه أصابه قبل عدة سـنوات جعله محتاطاً أكثر. فأصبح مع كل نزلة برد بسيطة يقفل على نفسه في البيت فوراً. وعندما يخرج كان يرتدي طبقـات كثيرة من الملابس و حين يكون في مقر العمل لا يدع أحداً يفتح النافذة أبداً، وفي المساء لا يخرج قبل أن يرفع ياقة معطفه إلى مستوى أذنيه. لكنه لم يكن يهمل عمله حتى في أوقات مرضه. فقد كان يأمر البواب أن يأتي له بالنصوص التي عليه أن يترجمها، ويبعث بالترجمة مع نفس البواب بعد عدة ساعات. ومع ذلك كنت أرى في تعامل حمدي مع رائف رسالة مفادها: "انظر، نحن ورغم مرضك ودلالك لم نطردك بعد!".

لم يترددوا يوماً بقذف هذه الجملة في وجهه مرةً بعد أخرى. وعند ظهوره في العمل بعد كل غياب يسـتمر أياماً، كانوا يقابلونه بـ" كيف حالك؟ إن شـاء الله هذه آخر مرة يارجل؟!" على سـبيل التهكم، يقصدون بها مضايقته. ومع كل هذا، بدأت أنا أيضاً بالضجر من رائف أفندي. لم أكن أتواجد في الشركة كثيراً. كنت دائم التجوال حاملاً شـنطة أوراقي بين البنوك والدوائر الحكومية، وأحياناً أمر بمكتبي لتنظيم أوراقي وعرضها على المدير أو نائبه. اقتنعت بأن هذا الشـخص الجالس قبالتي، معدوم الحركة لدرجة تجعلك تشـك في أنه كائن حـي، اقتنعت بأن هذا الذي يترجم أو يقرأ "روايته الألمانية" من داخل درجه، مخلوق ممل ولا معنى لوجوده حقاً. كنـت أفكر بأن لاشيء يحـدث في داخله كالذي يحدث للأشـخاص الآخرين ويجعلهم يرغبون بالتعبير للنـاس، هناك كمية صمت وسـكون في داخله تجعله لا يختلف عن أي نـوع من النباتات،

هكذا كنت أفكر. يأتي إلى هنا مثل آلة،يمارس عمله، وبعادةٍ لم استوعبها يقرأ عدة كتب، ثم في المســاء يشتري بعض الأغراض ويعود إلى منزله. قد يكون المرض هو الاختلاف الوحيد الذي يحصل في أيامه المتشــابهة، بل في ســنينه. وبحســب كلام الأصدقاء، لم يتغير عن هذا المنوال منذ عرفوه. لم يره أي أحد في يوم من الأيام مستثاراً بأي شكل من الأشكال. كان يقابل كل اتهامات وافتراءات رؤسائه بنفس النظرة الصامتة الهادئة والخاليــة من أي تعبير. وفي أحيانٍ أخرى، كان يشــكر ويبتســم نفس الابتسامة عديمة المعنى عندما يستلم أو يسلّم ترجماته من وإلى الكاتب. في يوم من الأيام، وبسبب تجاهل ناسخات الآلة الكاتبة لرائف أفندي، تأخرت كتابة أحد الترجمات، فجاء حمدي وصرخ بصوت عنيفٍ جداً:

– "إلى متى سننتظر؟ قلت لك سأكلفك بعمل مهم وأذهب. وإلى الآن لمَ لم تحضروا الي ترجمة الرسالة التي جاءت من الشركة المجرية؟!".

رفع رائف رأسه وهو على كرسيه وقال:

– "لقد أنهيتها ياسيد، لكن السيدات لم يكتبوها، لقد كُلّفن بأعمال أخرى!"

– "ألم أقل لكم أن ترجمة هذه الرسالة أهم من أي عمل آخر؟"

– "نعم سيدي، لقد قلت لهن ذلك."

صرخ حمدي بصوت أعلى:

– "انجز عملك بدل أن تجادلني!"

قبــل أن يصفق الباب خلفه وهو خــارج. خرج رائف أفندي بعده إلى الكاتبات ليرجوهن أن يكتبن ترجمته.

بالنسبة لي، فكرت في حمدي الذي لم ير وسط كل هذه المعمعة، اي داع لأن يلقي عليّ ولو حتى نظرة. دخل مترجم الألمانية للمكتب مرة أخرى، جلس على مكتبه وأحنى رأسه كالعادة. كان في وجهه سكونٌ يقود الإنسان للحيرة والغضب. تناول قلم رصاص وبدأ بالخربشة على الورق. لم يكن يكتب، بل كان يرسم أشياء عديدة. الا ان ذلك لم يكن تصرف رجل غاضب يحاول إلهاء نفسه بأي شيء. كنت شبه متأكد من أنني أرى في طرف شفتيه، وتحت شواربه الصفراء ابتسامة الواثق من نفسه. كانت يده تتحرك بسرعة فوق الورق، وبين الفينة والأخرى كان ينظر أمامه بتركيز. كنت ومن ابتسامته الغير واضحة أستنتج أنه راضٍ عن مايراه أمامه. أخيراً، ترك قلمه جانبا وبدأ ينظر في الورقة لمدة طويلة. كنت أراقبه دون أن ارمش. تفاجأت هذه المرة عندما رأيت على وجهه تعابير جديدة مختلفة، في العادة كانت على وجهه تعابير من يتألم ويشفق على شخصٍ ما. لم أستطيع البقاء في مكاني من الفضول. و عندما نويت الوقوف، نهض وذهب لغرفة الكتّاب مجدداً. قفزت بسرعة إلى مكتب رائف أفندي وأخذت الورقة التي كان يخربش عليها. وعندما ألقيت عليها نظرة، تجمدت من الذهول. كنت أرى حمدي مرسوماً على ورقة بحجم الكف. رسمة تبدو بسيطة لكنها تحمل هوية حمدي، رائعة وكأنها لفنان خبير. لم أكن أظن أن أحداً آخر كان ليلاحظ الشبه بينها وبين حمدي. حتى لو تفحصتها جيداً، فربما لا تجد أي شبه. لكن لم تكن هناك احتمالية أن يخطئ من رأى حمدي يصرخ أمامه في وسط الغرفة قبل

قليل. هذا الفم المستطيل والمفتوح بحيوانية وحِدَّة، والعينان اللتان كانتا كعيني من يريد أن يحفر ما أمامه بنظراته، إلا أنهما مرسومتان وكأنهما مختنقتان بالعجز، الأنف ذو المنخرين المتدليين بشكل مبالغ فيه، يصبغ وجهه بوحشية أكبر.. نعم، كانت هذه رسمة تصف حمدي الذي كان قبل قليل هنا تماماً. لكن لم يكن هذا هو سبب ذهولي فقط: فأنا ومنذ بداية عملي في الشركة، أعني قبل أشهر، وأنا أصدر الأحكام على حمدي عندما كنت أتحدث مع الآخرين.

كنت أحاول أن أعذره بعض الأحيان، لكن في مرات كثيرة كنت أستحقره وأستخف به. كنت أخلط بين شخصيته الأصلية وشخصيته التي أعطاها له منصبه في العمل، وأقع في مأزق عندما أحاول أن أفصلهما تماماً من جديد. و هكذا، كان رائف أفندي برسمه وإخراجه لحمدي بهذه الطريقة هو رائف الذي كنت أتمنى رؤيته منذ زمن طويل ولكن لم أره. رغم وجهه البدائي والمليء بالوحشية إلا أن هناك جانباً فيه يثير الشفقة. لم يُعرض الظلم والبؤس معاً في أي مكان آخر بهذا الوضوح. وكأنني كنت أتعرف على صديقي لأول مرة.

في نفس الوقت، وضحت لي هذه الرسمة أيضاً حقيقة رائف أفندي. فهمت وقتها تماماً سبب سكونه الذي لا يهتز، وطريقة تحمله الغريبة لتصرفات الآخرين. هل هناك مايمكن أن يثير ويغضب شخصاً يعرف مايدور حوله جيداً، ويرى مايضمره الأخرون في دواخلهم بوضوح ؟ رجل مثل هذا، ماذا كان يستطيع أن يفعل بكل هذه المعرفة غير الوقوف

أمام المتشنجين مع كل صغرهم كصخرةٍ لا تهتز؟ كل استنتاجاتنا وانكساراتنا وغضبنا كبشر ناتجة عن الجوانب الغير متوقعة والغير مفهومة للحوادث التي تحصل أمامنا. هل بالإمكان مفاجأة وزعزعة إنسان مستعدٍ لكل شيء ويعرف ما سوف يفعله أي أحد؟

بدأ رائف أفندي يأخذ طبيعة الرجل الذي يثير فيَّ الفضول مرة أخرى. بدأت، ورغم مسحة الضوء التي ظهرت قبل قليل، أشعر بوجود تباينات بشأنه. لم يكن يبدو أن يده هي من خلقت هذه الإصابة الدقيقة والحماس في رسومات الورقة التي أحملها في يدي كهواية. ينبغي أن يكون من رسم هذه الرسومات شخصاً مارس الرسم لسنوات عديدة. لم تكن مجرد عينان تريان ماتنظران إليه فعلاً، بل كانت له مهارة تضع كل التفاصيل الصغيرة التي تراها عيناه على الورق.

فُتح الباب. حاولت إعادة الورقة بسرعة إلى مكتبه، لكنني تأخرت. قلت لرائف أفندي الذي يقترب نحوي مباشرة حاملاً ترجماته التي أنجزها بلهجةٍ اعتذارية:

« رسمةٌ جميلة جداً.»

ظننت أنه سيتفاجأ، أو يخاف من إفشائي لسره. لم يحدث ماتوقعته أبداً. قال وهو يأخذ الورقة من يدي، وبنفس الابتسامة الغريبة السارحة:

- "قبل سنوات مضت، اشتغلت مدة بالرسم! أصبحت عادة لدي أن أخربش على الورق بين وقت وآخر. كما ترى يارجل، أشياء عادية لا معنى لها. كسر للرتابة فقط."

جعد الورقة بيديه قبل أن يلقيها إلى سلة الورق. ثم تمتم بينه وبين نفسه: « يبدو أن سـيدات الآلة الكاتبة أنجـزن عملهن بسرعة! هناك أخطاء مطبعية بطبيعة الحال، لكن حمدي سـيغضب لو قرأتهـا له. معه حق. سآخذها له..»

خرج مجدداً. تابعته بعينيّ. كنت أردّد بتهكم: "معه حق! .. معه حق!" بعد ذلك، بدأ رائف أفندي وبرغـم كل حركاته المملة وعديمة المعنى يثير فضولي من جديد. أصبحت أحاول انتهاز أي فرصةٍ تتاح كي أتكلم معه أو أعرف عنه شـيئاً يكشف لي المزيد عن هويته. لم يكن يبدو عليه انـه كان يلاحظ ذلك. كان يعاملني بطيبـة، لكنه كان أيضا يحافظ على تصرفاته التي تترك مساحة فاصلةً بيننا دائماً. على قدر ماتتطور صداقتنا ظاهريـاً، إلا أن داخله كان دائماً مقفلاً بوجهي. ازداد اهتمامي وفضولي به جداً عندما رأيت عائلته ووضعهم بين بعضهم عن قرب. كان وبعد كل خطوة أقترب بها إليه يقابلني بمزيد من الغموض.

عندما دخلت بيته أول مرة، كنت ذاهباً إليه حين كان مريضاً بأحد أمراضه المعتادة. أراد حمدي إرسال ورقة مع الخادم ليترجمها رائف عاجلاً:

- قلت: "سأوصلها أنا، وأزوره بالمرة".

- "حسناً. انظر ماذا به.. لقد زاد الموضوع عن حده هذه المرة"

استمر مرضه لفترة طويلة هذه المرة حقاً. لم يمر على الشركة منذ أسبوع. أعطاني أحد الخدم عنوان بيته الذي يقع في حي عصمت باشـا. كنا في أواسط الشتاء. بدأت بالمشي في الأزقة المظلمة مبكراً. مررت في طريقي

بأحياء ذات طرقٍ وأرصفةٍ ضيقةٍ ومهترئة لاتشبه طرقات أنقرة المعبدة بالإسفلت أبداً، وخلف بعضها منحدرات ومرتفعات. بعد طريق طويل، وعند حدود المدينة، انعطفت يميناً. وعند دخولي إلى أحد المقاهي في طرف الشارع عرفت البيت. كان ذو دورين، ينتصب وحيداً بين أراض كلها حجارة وتراب، بناء ذو دهان أصفر. كان رائف أفندي يسكن في الدور الأرضي على حد علمي. قمت برن الجرس. فتحت لي الباب فتاة في الثانية عشر من عمرها تقريباً. وعندمّا سألتها عن والدها، قالت بتكلف وهي تبرز شفتيها تبرماً:

"تفضلوا"

لم يكن ما بداخل البيت كما توقعت أبداً. في الصالة التي كان يستخدمها كصالة طعام كما يبدو، كانت هناك طاولة من النوع الذي يُفتح ويُقفل، وفي الركن كان هناك دولاب صغير مليء بأطقم الكريستال. وعلى الأرضية كانت سجادة سيفاسية* جميلة، كانت رائحة الطعام تفوح من المطبخ المجاور للصالة. أخذتني الطفلة إلى غرفة الضيوف أولاً. حتى هنا الأشياء جميلة، بل وغالية أيضاً. أرائك من قطيفة حمراء، ومناضد سجائر قصيرة مصنوعة من خشب الجوز، وفي الركن مذياع كبير يصدح في ارجاء الغرفة. وفي كل الانحاء، فوق المناضد وخلف الأرائك كانت هناك لوحة معلقة عبارة عن أركان الإيمان مخطوطة على شكل سفينة على قماش من الدانتيل السكري اللون.

(*) نسبة إلى مدينة سيفاس. - المترجم.

أحـــضرت لي الطفلة الصغيرة القهـــوة بعد دقائق قليلـــة. على وجهها ولسببٍ ما، كان هناك تعبير مليء بالدلال. كأنها كانت تريد أن تُرى على أنها صغيرة وأن يُمزح معها.

- "أبي مريض ياســيدي، لا يســتطيع القيام من فراشـــه. تفضلوا إلى الداخل!"، قالت.

كانت وهي تقول ذلك كما لو كانت تريد أن تُفهمني بحاجبيها وعينيها أنني لا أســتحق هذه المعاملــة المهذبة. تفاجأت تمامــاً عندما دخلت إلى الغرفـــة التي يرقد بها رائف أفندي. هذه غرفة لا تشـــبه بقية البيت. مثل مهجـــع طلاب تقريباً، أو كمثل غرفة في عنبر مستشـــفى. بها عدة أسرة بيضـــاء بجانب بعضها البعض. يرقد رائف أفندي على أحد هذه الأسِرة، تحت الأغطية البيضاء، كان يحاول إلقاء السلام عليّ من خلف نظارته وهو نصف مستلق. بحثت عن كرسي لأجلس. كان الكرسيان الموجـــودان بالغرفـــة ممتلئان بخرق مـــن الصوف وجوارب نســائية، بالإضافة لألبســـة حريرية مخلوعة وملقاة بعد لبسها. وفي الركن خزانة ملابس عادية بابها نصف مفتوح ومدهون بلون كستنائي، بداخله تنانير وملابس عُلقت بشكل عشـــوائي، وتحتها أقمشة مطرزة. كانت الغرفة تغمر نفس الإنســـان بفوضى غير اعتيادية. وعلى المنضدة التي بجانب السرير، كان هناك إناء حســـاء متســـخ يبدو أنه بقي من الغداء وإبريق مكشـــوف داخل صينية مصنوعة من الصفيح، وبجانب كل هذا كانت هناك عدة زجاجات وقناني أدوية.

اشار رائف أفندي إلى طرف السرير قائلاً: "اجلس هنا عزيزي".
جلست. كانت على ظهره سترة ملونة بألوان زاهية، محبوكة من الصوف ومخروقة من المرفقين. رأسه مستند على الهيكل الحديدي الأبيض للسرير. ملابسه معلقة فوق بعضها على هيكل السرير، في الجانب الذي اجلس عليه.
ثم أردف بعد أن لاحظ تفحصي للغرفة:
- "أنام في هذه الغرفة مع أطفالي. يبعثرون الغرفة دائماً. البيت صغير، لا يسعنا.."
- "هل أنتم كُثُرْ؟"
- "نعم، جداًا! لديابنة بالغةٌ في الثانوية. ثم وكما ترون.. أخت زوجتي وزوجها، وصهرين. كلنا في نفس البيت. هناك طفلا أخت زوجتي أيضاً. مشكلة السكن في أنقرة معروفةٌ لك على كل حال. فلا إمكانية لأن تسكن كل عائلةٍ بمفردها."
في هذه الأثناء رن الجرس مرةً أو مرتين، كان يُفهم من ضجيجهم وكلامهم وتصايحهم ببعضهم أن أحد أفراد العائلة قد جاء. فُتح الباب بعد ثوان ودخلت البيت امرأة سمينة في الأربعينات، ينسدل شعرها المقصوص حديثاً على وجهها وأذنيها. انحنت على أذن رائف أفندي وأسرّت له بشيء. بعدها أشار إليّ من دون أن يجيبها وعرفني بها:
- "إحدى ساكني المنزل. زوجتي".
ثم قال وهو يلتفت إلى زوجته: «خذيها من جيب معطفي!». في هذه

المرة قالت من دون أن تهمس في أذنه: «يوه! لم آت من أجل النقود، من سيذهب ويحضرها.. أنت لم تنهض من مكانك أبداً!»

- "ابعثي بنورتان. فالمكان لايبعد إلا ثلاث خطوات!"

- "كيــف أبعث بطفلةٍ لم يتجاوز طولها ســاقي إلى البقّال في هذا الليل والبرد؟! ثم هل تظن أنها ستطيعني وتذهب لو أمرتها؟"

فكر رائف أفندي قليلاً، ثم حرك رأسه كمن وجد الفكرة أخيراً:

- "نعم ستذهب ستذهب."، قالها ونظر أمامه.

إلتفت لي بعد أن خرجت المرأة وقال:

- "في بيتنا حتى شراء الخبز يعد مســألة عويصــة. مرضت فلم يجدوا رجلاً ليرسلوه."

وكأنها كانت مهمتي أن أسأل:

"هل أصهارك صغار؟". نظر إلى وجهي، ولم يجب؛ بل ترك على وجهه تعبير من لم يسمع سؤالي حتى. لكنه قال بعد عدة دقائق:

- "لا ليسا كذلك! كلاهما يعملان. موظفان مثلنا نحن الإثنين. وظَّفهم أحدهم في الوكالة المالية لنســيبي. لم يدرســوا، فليس بحوزتهم شهادة مرحلة متوسطة حتى!" ثم قطع كلامه فجأة وقال:

- "هل أحضرتم شيئاً من أجل الترجمة؟"

- "نعم، يجب إنجازها بحلول الغد. سيرسلون خادماً ليستلمها صباحاً."

تناول الأوراق ووضعها بجانبه.

- "لقد قلقت عليك"

- "شكراً لك. طال مرضي هذه المرة بالفعل. لا أستطيع حتى أن أستجمع قوتي وأنهض!"

كان في عينيه فضولٌ غريب. كأنما كان يتحقق من صحة حجتي. ولإقناعه، كنت مستعداً لأن أفعل أي شيء، إلا أن عينيه اللتين رأيتهما مليئتان بالفضول قبل قليل سرعان ماعادتا إلى عادتهما. عينان لاتعبران عن شيء، تصحبهما ابتسامة فارغة من المعنى كالعادة.

استجمعت نفسي ونهضت. عدّل جلسته فجأةً ومد يده مصافحاً:

- "شكراً على زيارتكم لي يابنيّ" قال لي.

كان في صوته دفء، وكأنه قد أحس بها في داخلي.

في الحقيقة، نشأت ألفةٌ بيني وبين رائف أفندي بعد ذلك اليوم. لا أستطيع أن أتحدث عن تغيرٍ كبير في تعامله معي. ولا يخطر لي أن أدّعي أنه أصبح صديقاً حميماً لي حتى، أو أنه أفشى لي عمّا في صدره. كان كما هو، ذلك الهادئ الساكن، المنغلق على نفسه. رغم ذلك كنا في بعض الأَمسيات نخرج من العمل سويةً ونمشي حتى بيته، بل أحياناً كنا ندخل إلى غرفة الضيوف ذات الأثاث الأحمر ونشرب فنجان قهوة معاً. لكننا في تلك الأثناء لم نكن نتكلم أبداً، وإذا تحدثنا فإن محور حديثنا لا يتعدى الماء والهواء، أو غلاء المعيشة في أنقرة، أو سوء حال أرصفة حي عصمت باشا. لم يكن يتعرض في حديثه إلى بيته أو أبنائه إلا فيما ندر. بين حينٍ وآخر كان يقول: "نالت ابنتي أربعين درجةً في مادة الرياضيات مجدداً!" ثم يغير الموضوع فوراً. وأنا كنت أتردد في أن أسأله عن أي شيءٍ بهذا الخصوص. لم تترك أول

زيارة لي إليه، ولا مقابلتي لأفراد عائلته أي تأثيرٍ عليّ.
بعد أن نهضت من جانب المريض، وأثناء مروري بالردهة، رأيت شابين كانا يجلسان حول طاولةٍ مع فتاة في الخامسة أو السادسة عشرة من عمرها. كانو يتهامسون ويضحكون حتى قبل أن أدير ظهري إليهم. كنت متأكداً من عدم وجود شيءٍ مضحكٍ بشأني. لكن هؤلاء، مثلهم مثل أي شخص أجوف في أعمارهم، يعدُّون الضحك في وجه من يصادفونه نوعاً من التفوق عليه. حتى نورتان الصغيرة كانت تبذل جهداً لتحاول التشبه بأختها الكبيرة أو بأخوالها. بعد ذلك، أصبحت أرى نفس الشيء في كل مرةٍ أذهب للبيت. كنت ما أزال شاباً لم يتم سنواته العشرين بعد، لكن العادة التي كنت أراها عند البعض من جيل الشباب، فضولهم تجاه من لا يعرفونه أو يرونه لأول مرة وكأنه شيء غريب جدا تثير تعجبي. كنت ألاحظ أن وضع رائف أفندي لايُعد جيداً جداً، كما لو كان شيئاً زائداً أو لا لزوم له في بيته. بعد ذلك، مع زياراتي المتكررة للبيت، أصبحت صديقاً لكل من فيه من الأطفال. لم يكونوا سيئين أبداً. لكنهم كانوا مخلوقات فارغة وجوفاء فقط. كان ذلك هو سبب تصرفاتهم الغير لائقة. كل مايفعلونه في مواجهة هبوب فراغ دواخلهم هو إرضاء أنفسهم والتعرف عليها من خلال السخرية من الآخرين والاستخفاف بهم واستحقارهم. كنت أنصت لكلامهم. لم يكن لهم عمل في البيت غير اغتياب أصدقاء الموظفين في الوكالة الاقتصادية، جهاد ووداد وزميلات نجلاء ابنة رائف أفندي في المدرسة

والتعليق على ملابسهم وغرابة تصرفاتهم وتقليدهم والضحك بشكل هستيري من دون أن يلاحظوا أن نفس التصرفات التي يسخرون منها موجودة فيهم أنفسهم.

- "أرأيتِ الفستان الذي لبسته معلّا في حفل الزفاف؟ هاهاهاها!"

- "آه لو رأيتي فقط كيف تجاهَلَت أورهان.. هاهاهاهاي!"

لم يكن لفرهونـــده هانم، أخت زوجة رائف أفندي أي همّ إلا إيجاد أي فرصة لتترك ابنها ذو الثلاثة أو أربعة سنوات لأختها الكبيرة لتعتني به بـــدلاً عنها، ثم تتزين على عجل وترتدي فســـتانها وتخرج. لمحتها عدة مراتٍ وهي أمام المرآة تحاول إدخال شــعرها المجعد من دون إفســـاد التسريحـــة تحت قبعتها ذات القناع الشــفاف. رغم أنها في عز شـــبابها، وعمرهـــا في الثلاثينات إلا أنه كان لديها عـــددٌ لا يحصى من التجاعيد حول عينيها وفمها. كانت عيناها الزرقاوان كالخرز لا تثبتان على شيءٍ لأكثر من ثانية، وكانتا أيضاً تعكسان الأرق الداخلي الذي صاحبها منذ الولادة. كانت تكره طفليهـــا ذوي الملابس الغير مرتبة دائماً، والأيدي المتسخة، والوجوه الشاحبة على الدوام، وكأنهم عقابٌ ألقاه على كاهلها عدوٌ لعين. لم تكن تعرف كيف تبعد صغارها كي لا يلمسوها بأياديهم المتسخة بعد أن تتزين وهي تحاول الخروج.

كان نور الديـــن بك، زوج فرهونـــده هانم ومدير أحد فـــروع الوكالة الإقتصادية نوعاً آخر من حمدي. عمره في الثلاثين أو الواحد والثلاثين، شعره كستنائي مموج كثيف، وممشـــط بعناية إلى الخلف كمساعديه. كان

حتى بعد أن يقول "كيف حالك؟" يضم شـفتيه لبعضهما ويهز رأسـه بخفة وكأنه قد ألقى حِكَماً عظيمة. كان ينظر إلى أي إنسـانٍ وهو يتكلم بعيون ثابتة، وفي عينيه ابتسامة تقول"يارجل، هل ماتقوله معقول؟ أنت لا تعرف شيئاً". بعد أن أنهى دراسته في تخصص الفنون الجميلة، ولسبب ما، أُرسـل إلى إيطاليا ليدرس صناعة الجلود، لكنه أيضا تعلم قليلاً من الإيطاليـة وكيفية التصرف كرجل مهم. بجانب ذلـك، كان لديه مزايا مهمة أخرى تسـاعده للنجاح في حياته: أحدها أنه كان وبكل ثقةٍ يرى المقامات العالية لائقة به، ويشـارك في كل موضوعٍ سواء كانت له خبرةٌ فيه أو لا، وبشكل مستخف بالجميع بلا استثناءٍ كان يجعل كل من حوله يؤمنون بقيمته، أعتقـد أن عادة احتقار الناس انتقلت لأفراد البيت منه. كان أيضاً يعتني بمظهـره ومايرتديه: يحلق ذقنه كل يوم، ويجعل بناطيله القديمة تُكوى تحت إشرافه دائماً، كان ينتظر يوم السبت بلا صبر ليتجول في الأسواق للبحث على أكثر الأحذية أناقة وأجمل الجوارب. في الحقيقة، عرفت لاحقاً أن مرتّبه الذي كان يتقاضاه لم يكن بالكاد ليكفي كسـوته هو وزوجته، ولأن الخمس وثلاثـون ليرة التي يتقاضاها صهراه لم تكن مباركة، كان رائف أفندي وبراتبـه القليل يتحمل كل مصاريف البيت. ورغم هذا كان لكل أفراد البيت كلمتهم المسموعة إلا العجوز المسكين.
كانت زوجة رائف أفندي مهرية هانم قد شاخت قبل أن يصل عمرها الأربعين، اتّحد جلدها المترهل وثدياها المتدليان مع كرشـها في سمنة عجيبة، رغـم أنها تقضي كامل يومهـا تطبخ الطعـام في المطبخ، وفي

أوقات فراغها ترقع جوارب الاطفال وتنتبه لأبناء أختها المشاكسـان، إلا أنها لم تكن تستطيع إرضاء "ساكني البيت". لم يكن أي أحد فيهم يسأل عن كيفية إدارة البيت، فقط لأنهم كانوا يرون أنفسهم يستحقون حياةً أرقى من تلك التي يحيونها. لم يكن يعجبهم الأكل، يعبسون وجوههم ويطبقون شفاههم ويبدون سخطهم على كل شيء. "أي نوع من الطعام هذا!؟"، كان نور الدين بك بسؤاله هذا كأنه يريد أن يقول: "أين تذهب مئات الليرات التي أعطيك إياها؟ أجيبيني بحق الله!". بينما يقول الصهران اللذان يلف كل منهما شالين رخيصين حول الرقبة: "لاأحب هذا الطعام، اسلقي لي بيضة.". أو كلاماً من نوع: " لم أشبع، اقلي لي قطعة سجق على السريع!". لم يخجلوا أبداً من جعل مهرية هانم تذهب الى المطبخ لتحضّر لهم طعاماً آخر من جديد، ثم وعندما يحل المساء وتلزمهم عشرة قروش لشراء الخبز، ولكي لايدفعونها من جيوبهم، كانوا يوقظون رائف أفندي المريض المستغرق في نومه، وفوق كل هذا كانوا يتململون ويغضبون من عدم تحسن صحته وذهابه إلى البقالة بنفسه أيضاً.

وخلافاً للبؤس الذي كان في المنطقة التي لايراها الضيوف من المنزل، كانت الردهة وغرفة الضيوف في غاية الترتيب بفضل نجلاء. يبدوا أنهم ارتأوا أن من المناسب يكون هذا الجزء من المنزل كقناعٍ يظهر به أمام أصدقائهم وضيوفهم. لهذا السبب، وبتشاركٍ منهم، أمضوا سنوات وهم يسددون الأقساط لمتاجر الأثاث. مروا بضائقة مالية شديدة، لكن

الآن، فإن أطقم القطيفة الحمراء تدفع الضيوف لهز رؤوسهم إعجاباً وتقديراً، و المذياع ذو الاثني عشرة لمبة يملأ الحارة ضجيجاً. أيضاً، لم تكن زجاجات الشراب الكريستالية المذهّبة في الدولاب الزجاجي، والتي كان يحضرها نور الدين بك ويتسامر مع أصدقائه بالشرب منها كانت لتخذله أو تنزل من قيمته بينهم.

رغم تحمل رائف أفندي لكل ذلك العبء، إلا أن وجوده كان مساوياً لعدمه. لم يكن يبدو ان هناك من يلاحظ وجوده في البيت من أكبر شخص فيهم حتى أصغرهم. لم يكونوا يتكلمون معه في أي شيء باستثناء حاجيات البيت وموضوع النقود، بل إنهم كثيراً ما كانو يفضلون أن تتوسط مهرية هانم بينهم وبينه. كأنه آلةٌ بلا روحٍ تُترك خارجاً بعد أن تملى عليها الطلبات، وتعود في المساء وذراعها ممتلئة بالأغراض. نور الدين بك، الذي كان قبل خمس سنوات، وقت رغبة رائف بك الزواج بمهرية هانم، لا يترك رائف أفندي في حاله، و يحاول الظهور بمظهر حسن أمام نسيبه المستقبلي وفعل كل مايرضيه، أصبح الآن وكأنه قد سئم من مجالسة إنسان لا أهمية له في نفس البيت. كانوا يغضبون منه لعدم زيادة راتبه وتأمينه حياة مرفهة لهم، لكنهم وفي نفس الوقت كانوا يرونه صفراً بلا قيمة أو أهمية على الإطلاق. نجلاء التي كانت تبدو رزينة جداً، ونورتان التي كانت تدرس في الابتدائية، وباحتمال تأثيرٍ من أصهارهن وخالاتهن و أخوالهن شاركوا أيضاً في نفس المعاملة لوالدهم. كان الحب الذي يحاولون إظهاره له يبدو كعمل شاقٍ يريدون

إنجازه بسرعة، وعندما يعتنون بــه أثناء مرضه كانوا يُظهرون وبتكلّفٍ شــفقةً مزيفة. لكن زوجته مهرية هانم، التي أصبحت شبه غبية بسبب اهتمامها بالأشغال الشاقة التي لا تخفّ ولو لثانية، وهمّ لقمة العيش منذ سنوات عديدة، تشغل نفسها في الإعتناء بزوجها قدر المستطاع، وتحاول أن تفعل ما بوسعها لكي تتفادى استصغار واستحقار أولادها لها.

عندما يكــون هناك ضيف في وقت العشــاء، كانــت ولكي لاتعصي أمــر إخوتها أو نور الديــن وصراخه بصــوت عال: "ليذهب صهري ويشــتري!"، تذهب إلى غرفة رائف أفندي وبصوت مشــبع بالدلال تقول لــه: "هيا أحضر لنا مــن البقّال ثمانية بيضــات وزجاجة عرق. لاداعي لأن نجعلهم يقومون عن السفرة!"، لكنها لم تتساءل وزوجها عن سبب عدم جلوسهم في نفس السفرة. لم يفكروا حتى في سبب عدم إحترام الآخرين لهم، ونظرهــم إليهم بنظرات غير مرتاحة، ولو فعلوا ذلك لأربعين سنة، ربما لم يكونوا حتى ليلاحظوا ذلك.

كان رائف أفندي يكنّ لزوجته مودة غريبة. بين وقت وآخر ي يخاطب زوجته التي لم تجد منذ شــهور وقتاً ترتدي فيه أي شيءٍ غير رداء المطبخ بشــفقة قائلاً: "كيف حالك ياهانم، هل تعبت اليوم كثيراً؟"، وأحياناً يجلســها أمامه ويتحدثان عن مدارس الأولاد وعــن مصاريف العيد المقترب. لكنه لم يكن يظهــر في تعامله مع أعضاء الأسرة الآخرين أي علامة تدل على أن هناك مايربطه بهم. أحياناً كان ينظر الى ابنته الكبرى وكأنه ينتظر منها شيئاً جميلاً أو حميمياً. لكن هذه اللحظات كانت سريعاً

ما تمر وكأن الفراغ بينه و بين دلالها وضحكها كان يظهر نفسه فجأة.
فكرت في وضع رائف أفندي كثيراً. رجلٌ مثل هذا – وأي رجل؟ لم أكن أعرف ولكني كنت متأكداً مـــن أنه لم يكن كما يبدو –، نعم، رجلٌ مثل هذا لم يكن ليســـتطيع الهرب من أقرب الناس إليه. كل المسألة، أن من حوله كانوا لايعرفونه. وهو أيضاً لم يكن يظهر أي حرص على تعريفهم بنفســـه. من بعد ذلك لم تعد إذابة الجليد الذي يقبع بينهم وبالتالي حلّ الغربة التي كانوا يشـــعرون بها تجاه بعضهم ممكنة. ولأن الناس يعرفون مدى صعوبة تعرفهم على بعضهم، فإنهم بدلاً من التشـــبث بهذا العمل المرهق يفضّلون التجول عشـــوائياً كالعميان ولا يتعرفون على بعضهم إلا حين يتصادمون فقط.
لكـــن، وكما قلت، كان رائـــف أفندي يبدو وكأنه ينتظر شـــيئاً من ابنته الكبـــيرة نجلاء. كانت البنـــت التي تقلد في حـــركات وجهها، وفمها ويداها خالتها المطلية بالألوان، واستقت قوة شخصيتها رغم انطوائيتها من حذلقة زوج خالتهـــا، إلا أنها كانت تحمل علاماتٍ تدل على أن بها بقايا إنسان. كانت أحياناً تنفعل بشدةٍ موبخةً أختها نورتان التي كانت تحاول الوصول بجرأتها في تعاملها مع أبيها إلى درجة الوقاحة، وتنهض عن المائدة عندما يُستخفُّ بأبيها وتصفق الباب خلفها. لكن هذه الحالة لم تكـــن أكثر من محاولة تنفس لما تبقى من انســـانية في داخلها لا أكثر، كانت الشخصية الزائفة التي أكسبها محيطها لها بعد صبر وعمل طويل قويةً لدرجة لاتسمح لشخصيتها الحقيقية بالظهور.

قد يكون تهوري في سن الشباب هو ما كان يجعلني أغضب دائماً على السكوت المخيف لرائف أفندي. سواء في البيت أو في الشركة، كان دائماً ما يقابل تجاهل الناس له وعدم اعتبارهم له كرجل بصدر رحب، ويرى مايفعله تصرفاً مصيباً. رغم علمي بأن الناس الذين لا يُفهمون ممن حولهم، وتصدر دائما بحقهم أحكام خاطئة، يبدؤون مع الوقت وبسبب هذه الوحدة بالإحساس بالفخر والرضى المر، إلا أنني لا أتصور أن من حولهم سيرونهم محقين أبداً.

في عدة مناسبات، لاحظت أنه لم يكن رجلاً ميت المشاعر، بل على العكس ،كان حساساً، دقيقاً ومهتماً بالتفاصيل. لم تكن عيناه المحدقتان أمامه تفوّتان أي شيء. في يوم من الأيام عندما سمع بناته في الخارج وهن يتجادلن بصوت خفيض: «أنت حضّري القهوة»، لم يقل شيئاً، لكنه ومن بعدها في المرتين التاليتين التي ذهبت لزيارته فيهما قال لهم فوراً بصوتٍ عالٍ:» لا تحضروا القهوة، إنه لا يريد». هذا التصرف الذي فعله ليتجنب تكرار الحادثة التي كانت ثقيلة عليه جعلني أكثر حميميةً معه وزاد ارتباطي به.لم نكن قد تحدثنا في شيءٍ بعد، لكن هذا لم يعد يثير استغرابي. ألم يكن في عيشته الساكنة الهادئة، وصبره، والرحمة التي يظهرها تجاه ضعف الناس ونظرته المرحة التي يقابل بها قلة أدبهم إرادةً كافية؟ ألم أكن أشعر في الأوقات التي مشينا فيها سويةً بأن الذي بجانبي إنسان؟ في هذه الأوقات، فهمت لماذا يرى الناس أن إيجاد وفهم بعضهم البعض لا يكون عن طريق الكلام فقطاًوفهمت لم كان الشعراء

دائماً مايبحثون عن شخصٍ يرافقهم في صمت أمام جمال الطبيعة. كنت متيقناً أن ماتعلمته من هذا الذي يمشي بجانبي من دون أن يفتح فمه، ويعمل أمامي من دون أن يصدر صوتاً، أكثر بكثير مما كان من الممكن أن أتعلمه من شخص يلقنني دروساً لسنوات.

كنت أشعر بأنه هو أيضاً مسرورٌ من وجودي. لم يعد به ذلك الخجل والتردد الذي كان يتسم به في أول أيام تعارفنا والذي كان يظهره لكل الناس. لكنه في بعض الأيام كان يتوحّش فجأة، وتفقد عيناه كل تعابيرهما وتصغران. وعندما يخاطبه أحدٌ كان يرد بهدوء وصوت منخفض يمنعك من الإقتراب منه بأي شكل كان. في مثل تلك الأوقات كان يهمل حتى الترجمة، وفي مراتٍ كثيرةٍ كان يترك القلم بجانبه ويحدق في الورق لساعات. أحسست بأنه كان منسحباً وراء كل المسافات والأزمان وبأنه لن يترك أحداً يقترب منه هناك. حتى أنا لم تكن لي رغبةٌ بالتدخل والإقتراب. ولكن القلق كان يجتاحني لأن أمراض رائف أفندي، وبتصادف غريب، كانت تَعقُب تلك الأيام في أغلب الأحيان. عرفت سبب ذلك بسرعة لكن بطريقة محزنةٍ أيضاً، سأقول كل شيء في وقته.

يوماً ما، وفي أواسط شباط لم يأت رائف أفندي إلى العمل مجدداً. وعندما مررت بمنزله قبل حلول المساء فتحت لي الباب زوجته مهرية هانم.

– "تفضلوا، هذا أنتم؟" قالت. "استسلم للنوم قبل قليل... سأيقظه إن أردتم!"

– "لا، لا تزعجوه.. كيف هو؟" سألتها.

أدخلتني إلى غرفة الضيوف وقالت: «حرارته مرتفعة. هذه المرة بطنه تؤلمه أيضاً!» ثم أضافت بصوت شاكٍ: «آه عزيزي، لا يعتني بنفسه أبداً.. إنه ليس طفل.. يمرض فجأة رغم عدم وجود شيء في الجو. لاأدري ماذا يحدث.. لا يجالس أو يكلم أحداً من الاساس ثم يحمل نفسه ويمضي. ثم وكما ترى .. يتمدد مريضاً."

في هذه الأثناء جاء صوت رائف أفندي من الغرفة المجاورة خافتاً. هرعت زوجته إلى الغرفة، وجلست قلقاً. هل يمكن لرجلٍ يهتم بصحته الى هذه الدرجة، يرتدي كنزات الصوف ويلف نفسه داخل الأوشحة أن يكون غير محتاطٍ بأي حالٍ من الأحوال؟

قالت مهرية هانم وهي عائدةٌ من عنده:

- "استيقظ عند طرقكم للباب، تفضلوا."

هذه المرة وجدت حال رائف أفندي متدهوراً بعض الشيء. وجهه مصفرٌّ جداً، ونفَسه متسارع. أما ابتسامته الطفولية المعتادة فكانت تبدو مُتعِبةٌ لعضلات وجهه. و كانت عيناه تبدوان من خلف النظارة وكأنهما هاربتان إلى الإعماق.

- " ماذا حصل لك هذه المرة يا رائف بك، شفاك الله."، قلت له.

- "شكراً!"

كان في صوته بحةٌ خفيفة. ويهتز كل جسده عندما يسعل.

ولأشبع فضولي بسرعةٍ سألته:

- "كيف بردت؟ يبدو أنها حساسية من البرد!"

جلس مدة طويلة يحدق في أغطية السرير البيضاء، كان هناك موقد تدفئةٍ حديدي بين أسرّة الزوجة والأطفال جعل الغرفة أكثر دفئاً. رغم ذلك كان يبدو أن ما أصابه نزلة برد فقط. سحب اللحاف إلى رقبته قائلاً:

- "صحيح، اصبت بنزلة بردٍ على كل حال! أمس وبعد طعام العشاء خرجت قليلاً.."

- "هل ذهبت إلى مكانٍ معينٍ أم ماذا؟"

- "لا. أردت التجول قليلاً فقط. لا أعلم!!.. ربما شعرت بالملل."

كان مجرد قوله أنه قد شعر بالملل من شيءٍ ما مفاجئاً لي. "مشيت لمسافة طويلة بعض الشيء.. إلى ناحية المنشئات الزراعية.. وصلت إلى أسفل منحدر حي كشي أورين.. أمشيت بسرعةٍ ياترى؟ شعرت بالحر.. ففتحت عروة صدريتي. كان الجو عاصفاً قليلاً.. والثلج يتساقط بخفة.. أصبت بالبرد بطبيعة الحال.."

لم يكن خروج رائف أفندي في الليل في جوٍّ مثلجٍ وعاصفٍ ومشيه في طرقٍ فارغة وفتحه أزرّة صدريته بتصرفٍ متوقّعٍ منه أبداً.

- "هل أضجرك شيءٌ ما" سألته.

جاوب بتعجل:

- "لا يارجل. يحدث بين حين وآخر أن أرغب بالتنزه وحدي في الليل. من يدري، ربما ضجرت من ضجة البيت أو شيء آخر.."

ثم، قال بعجلةٍ وهو خائف من أن يكون قد أكثر في الكلام:

- "يحصل هذا عندما يشيب الإنسان على كل حال، ما السيء في أن يبقى

أحدنا طفلاً للأبد؟!"

تعالت الضجة في الخارج، جاءت البنت الكبيرة من المدرسة وحين دخلت قبلت وجنتي أبيها قبل أن تسأله:

- "كيف أصبحت يا أبي العزيز؟"

وقبل أن تتلقى اجابته استدارت نحوي ثم صافحتني وقالت:

- "أهلا بك، هذا يحدث دائماً.. تخطر في باله مثل هذه الجولات بين حين وآخر، يقول أنا ذاهبٌ إلى المقهى قليلاً، ثم من يعلم أين يتلقفه البرد في القهوة أم في الطريق؟ ومن ثمَّ يمرض.. ليست أول مرة تحصل. ما الذي يحصل في القهوة؟ لاأدري!"

بعد ذلك طوت معطفها وألقته على أحد الكراسي، خرجت فوراً. يبدوا أنها اعتادت على حالات رائف أفندي هذه ولم تعد تعطها أهمية كبيرة. نظرت إلى وجهه العليل. أدار عينيه نحوي، لم يكن بهما أي إيضاح أو تعجب. كنت مستغرباً، ليس لأنه كذب على أفراد المنزل، بل لأنه أخبرني بالحقيقة. لكني كنت أشعر بفخرٍ أيضاً، فخر من يشعر بأنه مقربٌ لشخص ما أكثر من الآخرين.

بمجرد أن خرجت من البيت وسلكت طريق العودة، استغرقت في التفكير. عجباً، هل كان رائف أفندي بسيطاً وفارغاً من الداخل حقاً؟ بلا أي شغفٍ أو هدفٍ في حياته، لم يكن له أي اهتمام بالناس، ولاحتى أقرب الناس إليه.. ماذا كان يريد إذاً؟ ألم يكن فراغه النفسي وانعدام غاياته هو ما يخرجه للشوارع في المساء؟. أثناء مشيي رأيت أني قد وصلت الى

الفندق الذي أقيم به. هنا، كنت أسكن مع صديقٍ في غرفةٍ اتسعت بالكاد لسريرين. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة. فكرت بأن أقرأ كتاباً بدل أن أصعد الى غرفتي بما أني لم أجع بعد، لكنني تراجعت في الحال، لأنه وفي مثل هذا الوقت تماماً، يصدح الجرامافون بأعلى صوته من المقهى الذي يقع في أسفل الفندق، وجارتنا الفنانة السورية تغني أكثر الأغاني العربية إزعاجاً بينما تتزين وتتجهز قبل الذهاب إلى عملها. عدت أدراجي ومشـيت على الطريق المسفلت والمبقع بالطين باتجاه حي كشي أورين.

في أول الطريق كان على جانبيه ورش سـيارات ومقاهٍ خشبية منخفضة وبسـيطة. تأتي بعدها بيوت مرتفعة في الجانب الأيمن باتجاه التلة. ومن بعدها بدأت تظهر منطقة زراعية منخفضة تساقطت أوراق أشجارها. رفعت ياقة معطفـي، كان يهب هواءٌ رطبٌ وسريع، وفي داخلي، كانت هناك رغبةٌ رائعة في أن أمشي وأركض، كالتي تأتيني عندما أكون ثملاً. أحسست بأني أستطيع المشي لسـاعات، بل أيام. مشيت مسافة طويلة ونسـيت أن أنظر إلى ما حولي. ومع اشتداد هبوب الريح شعرت وكأن أحداً يدفعني في صدري، أصبـح المشي أكثر متعة وأنا أقاوم هذه القوة الدافعـة. فكرت فجأةً بسـبب مجيئي إلى هنا. لم يكن هناك سـبب على الاطلاق. مشـيت دون هدفٍ وجئت. كانت الأشـجار التي بجانبَي الطريق تنحني مع الريح، والسـحب تجري وتمـر بسرعةٍ كبيرة. كانت التلال الصخرية السـوداء مازالـت تلمع قليلاً في الأفق والسـحب تبدو وكأنها تتسـلقها وتترك قطعاً منها فيها. كنت أتقدم مغمضاً عينيّ

مستنشقاً الهواء الرطب إلى جوفي.

عاد السؤال الذي رميته من رأسي إليه مجدداً: لماذا أتيت إلى هنا؟ كان الجو اليوم يشبه جو ليلة البارحة كثيراً، ربما بعد قليلٍ سيبدأ الثلج بالتساقط أيضاً. بالأمس كان هنا رجل آخر، نظارته ضبابية، قبعته في يده وصدره مفتوح، يمشي بسرعة وكأنه يجري. النسيم يتخلل شعره القصير والمتناثر، من يعلم كيف كان رأسه المشتعل بالحرارة الآن يبدي كل تلك البرودة. ماذا كان بدخل ذلك الرأس؟ لماذا قاد ذلك الرأس المريض ذو الجسد العجوز إلى هنا؟ كنت أحاول تصور شكل وجه رائف أفندي وهو يمشي في ذلك الظلام أثناء تلك الليلة الباردة. فهمت الآن سبب مجيئي إلى هنا: ظننت بأني أستطيع أن أرى رائف أفندي وأفهم ما يدور في رأسه هنا بشكل أفضل. لكنني لم أكن أرى غير السحب المتشكلة بأشكال كثيرة وأنا أركض هرباً من هزيز الاشجار ومن الريح التي تحاول الإطاحة بقبعتي. أن أعيش في نفس المكان الذي عاش فيه لايعني أن أعيش ما عاشه هو، يجب أن يكون الشخص ساذجاً ومغفلاً مثلي حتى يظن ذلك. عدت إلى الفندق بسرعة. خمد صوت الجراموفون والمرأة السورية. كان صديقي ممدداً على السرير وهو يقرأ كتاباً. نظر إليّ بطرف عينه وقال:

- "ماهذا؟ هل كنت تجالس الفتيات؟"

أتساءل كيف يفهم الناس بعضهم جيداً إلى هذا الحد؟! حتى أنا كان بودّي لو أن لي هذه المهارة لأحلل مابعقل إنسان ما وأرى روحه السوية

أو المنحرفة. حتى أكثر الناس بساطة، وبؤساً، بل وحمقاً، لهم أرواح غريبةٌ ومعقدةٌ توقِع الإنسان من الدهشة! لماذا نهرب من فهم هذا ونظن أن فهم الإنسان والحكم عليه من أسهل الأشياء؟ لماذا نتهرّب من الحكم على نوع جبنةٍ رأيناه لأول مرةٍ بينما لانتورع وبضميرٍ مرتاح عن إصدار حكمنا بشأن إنسان ما فور رؤيتنا له ؟ لم أنم منذ وقت طويل. كان رائف أفندي نائماً يتلظى وسط نار الحمى على سريره ذي الأغطية البيضاء، وهو يشم الرائحة المنتشرة من أطراف بناته وزوجته المتعبة في الغرفة. عيناه مغلقتان، لكن من يعلم أين كانت روحه، وأين كان يتجول؟

استمر مرض رائف أفندي هذه المرة طويلاً. كان يبدو أنها نزلة بردٍ كالعادة. أوصى الطبيب المسن الذي أحضره نور الدين بك لرائف أفندي بمزيج الخردل وكتب له وصفة علاجٍ للسعال. كنت أمر به كل مساء، وفي كل مرةٍ كنت أجد حالته متدهورةً أكثر. لكنه لم يُقلق نفسه كثيراً ولم يبد لي أنه يعطي للمرض أية أهمية. ربما لم يكن يريد أن يثير قلق أفراد المنزل. كان أن يصيب الوجل نجلاء ومهرية هانم من أبسط الأشياء. المرأة التي كانت منذ سنوات لا تفكر إلا في أعمال البيت، كانت تدخل وتخرج بهلع كبير من غرفة المريض، تُوقِع صحنا أو منشفة من يدها وهي تضع مزيج الخردل، كانت دائما ما تنسى شيئاً في الخارج أو الداخل وتبحث عنه باستمرار.

لا أزال أراهم يركضون بأحذيتهم البسيطة في كل الإتجاهات، وأشعر بنظراتهم التي كانوا يقابلون بها كل من يصادفونه كأنها يستجدون

المســـاعدة المنوطة بي إلى الآن. كانت نجلاء فــوق أنها مضطربةً كأمها، غارقــةً في حزنٍ كبير. وفي آخـــر الأيام كانت تنتظـــر أباها ولا تذهب إلى المدرســـة. وعندما أجيء لتفقده في المســـاء كنت ألاحظ أنّ عينيها متورمتـــان من بعد طول بـــكاء. الا انه يبدو ان كل ذلك كان يســـبب الضجر لرائف أفندي. كان يشـــكو لي ويعـــبر عن ضجره عندما نكون وحدنا. في إحدى المرات قال لي:

- "يارجل، مالذي يحدث لهم؟ هل أنا على فراش الموت؟ ولو متنا ما الذي سيحصل! ما شأنهم؟ من أنا بالنسبة لهم؟.." ثم أردف بمرارةٍ وشكوى:

- "أنا لاشيء بالنسبة لهم. لست بشيء ولم أكن يوماً. عشنا مع بعضنا في نفس المنزل ســـنواتٍ طويلة، لم يخطر ببالهم أن يفكروا من هذا الرجل. والآن يفزعون من احتمال ذهابه."

- "ماهـــذا يا رائف بك!"، قلت له وأردفت: "وهل هذا كلام يقال؟.. صحيح أنهم بالغوا في قلقهم قليلاً، لكنك جانبت الصواب بتفســـيرك لهلعهم بهذه الطريقة.. أنت تتحدث عن زوجتك وابنتك!"

- "صحيح، زوجتي وابنتي. لاأكثر ولا أقل."

حوّل رأســـه إلى الجهة الأخرى. لم أفهم ماذا كان يرمي بكلماته الأخيرة ولكنني كنت متردداً من أن أســـتفسره عن مقصده. وللتهدئة مِن روع مَـــن في المنزل، أحضر نـــور الدين بك استشـــاريّ باطنية. بعد فحص ومعاينة طويلين أعلن الطبيب بأن السيد رائف مصاب بداء ذات الرئة، وليهدئ من روعهم قال:

- "لا ياعزيزي، ليس بالشيء الخطير... ماشـــاء الله، بنيته مقاومة وقلبه سليم، يستطيع تجاوزه. لكن يجب أن تعتنوا به، حذار أن يبرد. سيكون من الأفضل لو أخذتموه إلى المستشفى."

بمجرد أن ســمعت مهرية هانم كلمة مستشــفى اعترتها دوخةٌ خفيفة وانهــارت تبكي بصوت عالٍ على إحدى الكراسي الموجودة في الردهة. اعترض نور الدين بك عابساً وكأنه مُسّ في كرامته: «لا داعي إلى ذلك. سيلقى في بيته عنايةً أفضل من عناية المستشفى.»

هزّ الطبيب كتفيه ومضى.

في البداية أراد رائف أفندي الذهاب إلى المستشــفى، كان يقول: "هناك أســتطيع أن أريح رأسي عــلى الأقل!". كان جلياً مــن كل حالاته أنه يفضل البقاء وحده، لكنه وبعد أن قوبل طلبه برفضٍ شــديد سكت ولم يعد يصدر صوتاً. تمتم بابتسامةٍ ملؤها اليأس: "حتى لو ذهبت إلى هناك فلن يتركوني على راحتي!"

يبقى هناك يوم من الأيام مازالت تفاصيله في ذاكرتي. كنت جالساً على كــرسي بجانب سريره، وبصمت تام، كنت أشــاهده نائماً وهو يتنفس بصفيرٍ خفيــف. كانت هناك بين زجاجات العــلاج التي على الطاولة بجانب مرقده ســاعةٌ تملأ الغرفة بصوت جرس معدني. قال وهو يفتح عينيه الهاربتين إلى داخل جمجمته:

- " أشعر اليوم بتحسن!"

- "بالتأكيد... لن يستمر هذا الحال إلى الأبد طبعاً."

في تلك اللحظة، سأل بصوت حزين:
- "حسناً ولكن، إلى متى سيستمر هكذا؟"
أدركت المعنى الحقيقي لسؤاله واحترت. كان السأم الذي في صوته يفصح عن ماكان يقصد.
قلت: "ماذا يحدث لك يا رائف بك؟"
سألني بإصرار وهو يثبت عينيه في عيني:
- "حسناً ولكن، مالزوم كل هذا؟ ألا يكفي بعد؟ .."
دخلت مهرية هانم وقالت وهي تجلس بجانبي:
- "اليوم أفضل! شفي من مرضه بإذن الله."
ثم التفتت إلى زوجها قائلة:
- "سنغسل الملابس يوم الأحد، لو يُحضر هذا السيد منشفتك!"
هز رائف أفندي رأسه موافقاً. خرجت المرأة مجدداً بعد أخذ شيءٍ بحثت عنه في الخزينة. أزال تحسن رائف أفندي الطفيف كل قلق زوجته واضطرابها وأخفاه. عاد عقلها إلى الإنشغال بمشاكل البيت كعادته القديمة، من أكل وغسيلٍ وغيره. كانت تتحول من الكدر إلى السرور، ومن الهلع إلى السكون، ومثل كل النساء تنسى كل شيء بسرعة. كان في وجه رائف أفندي نظرات مليئة بالحزن وابتسامة عميقة. قال مشيراً إلى معطفه المعلق على طرف السرير:
- "في جيب المعطف الأيمن هناك مفتاح، خذه. افتح درج مكتبي الأول، وأحضر المنشفة التي تحدثت عنها السيدة. سأتعبك معي لكن .."

قاطعته: «سأحضرها غداً مساء».

صمت لمدة طويلةٍ محدقاً في سقف الغرفة. واستطرد فجأة:

"أحضر كل ماتجده في الدرج، أياً كان! يبدو أن سيدتنا عرفت بحدسها أنني لن أذهب إلى الشركة مرة أخرى، فهذه المرة ستكون رحلتي إلى مكان آخر."

ودفن رأسه في الوسادة مجدداً.

في اليوم التالي ذهبت إلى مكتب رائف أفندي قبل أن أخرج من الشركة. كان في جنبه الأيمن ثلاث أدراجٍ فوق بعضها البعض. بدأت بفتح السفلي أولاً، كان خالياً، والذي يليه كان ممتلئاً بأوراقٍ ومسودات ترجمة. شعرت بقشعريرةٍ وأنا أدخل المفتاح في قفل الدرج الأول؛ أدركت أنني أجلس في المقعد الذي كان يجلس فيه رائف أفندي منذ سنوات طويلة وأمارس نفس تصرفه الذي كان يكرره كل يومٍ لعدة مرات. فتحت الدرج على عجل، وقد كان يبدو خالياً. عدا أن في زاويته البعيدة كانت هناك منشفةٌ متسخةٌ جداً وقطعة صابون ملفوفة بورق صحيفة وسفرطاس -حافظة طعام- وشوكة وسكين صغيرة. لففتهم كلهم داخل ورقة سريعاً، ثم دفعت الدرج إلى مكانه ونهضت، لكنني أردت التأكد من أني لم أترك شيئاً خلفي ففتحت الدرج مجدداً وفتشت داخله بيدي. في الواقع كان هناك شيء أشبه بالدفتر. تناولته هو أيضاً ووضعته بجانب الأغراض الأخرى ونهضت خارجاً. لم يكن احتمال عدم جلوس رائف أفندي على هذا المقعد مرة أخرى أو استعماله للدرج

يفارق تفكيري.

اســـتُقبِلت في المنزل باضطرابٍ وهلعٍ من جديد. عندما فتحت نجلاء الباب هزت لي رأســـها قائلة: "لاتسألوا، لاتســـألوا!". بحلول ذلك الوقت كنت قد أصبحت كأحد أفراد المنزل ولم يعد أي منهم يستقبلني كضيف غريب. تابعت الفتاة: "ســـاءت حالة أبي مجدداً! تدهور وضعه اليـــوم مرتين، خفنا كثيراً. أحضر صهري الطبيب وهو بجانبه الآن. إنه يقوم بإعطائه حقنة." وأسرعت إلى غرفة المريض.

لم أدخـــل إلى الغرفة. جلســـت على أحد كـــراسي الردهـــة واضعاً حزمة الأغراض بجانبي. ورغم أن مهرية هانـــم خرجت من الغرفة عدة مرات إلا أني خجلت من أن أناولها الكيس وهي في ذلك الحال. ســـيكون تصرفاً غير لائقاً حقاً أن أعطيها منشـــفةً متسخة وشـــوكة طعامٍ قديمة بينما هناك من ينازع روحه بالداخـــل. نهضت وبدأت بالتجول حول الطاولة التي في المنتصف، لكني انشـــذهت عندما رأيت نفسي في المرآة، فقد شـــحب لوني إلى الأصفر تماماً. بدأ قلبي بالخفقان بشـــدة. ليكن من يكن، فمعاناة إنسان يراوح في جسرٍ بين الحياة والموت لشيء مرعب حقاً. بعد ذلك، فكرت بأنه لاحق لي في أن أظهر حزناً وتأثراً كبيراً في ظل وجود زوجته وبناته وأقربائه. في تلك الأثناء، نظرت إلى باب غرفـــة الضيوف المشرع قليلاً. وعندما اقتربت رأيت إخـــوة زوجة رائف أفندي جهاد ووداد وهما جالســـان على أريكةٍ جنباً إلى جنب يدخنان الســـجائر. كان بادياً عليهم الضجر والإنزعاج لعدم قدرتهم على ترك المنزل. بينما كانت نورتان جالسة على

أحد المقاعد، مطرقة برأسها على ذراعها، تبكي، أو ربما نائمة. وبجانبها كانت فرهونده جالسة تحاول إلهاء طفليها اللذان كانا في حضنها بهمهمة أشياء عشوائية، لكنهما كانا يبدوان مدركين أن في الموضوع خدعة.
فُتح باب غرفة المريض وخرج الطبيب يتبعه نور الدين بك. ورغم كل لباقته إلا أنه لم يبد مرتاحاً.
- "لا تتركوه وحده، وإذا تكررت النوبة احقنوه بهذه الإبر".
سأل نور الدين بك رافعاً حاجبيه:»هل وضعه حرج؟«
أجاب الطبيب كما اعتاد كل الأطباء أن يقولوا في مثل هذه الحالات: "لست متأكداً!"
وكي لايتعرض لمزيد من الاستجواب، أو المضايقة من زوجة رائف، ارتدى معطفه وقبعته على عجل وتناول الثلاث ليرات الفضية من نور الدين مقطباً وجهه وترك المنزل.
دلفت إلى غرفة المريض بهدوء. نظرت إلى الداخل. كانت السيدة مهرية ونجلاء يحدقان في المريض النائم بفضولٍ وقلق. أشارت لي الفتاة بإصبعها منادية عندما رأتني. كانوا يريدون أن يشاهدوا تأثيري الموقظ للمريض. ولأني أدركت رغبتهم حاولت بكل قوتي أن أسيطر على نفسي. هززت رأسي بشكل خفيفٍ وكأنني مطمئن مما أراه. ثم إلتفت لهنّ وهنّ واقفات وقلت بابتسامة مصطنعة:
- "لايوجد مايقلق! .. سيُشفى إن شاء الله!"
فتح المريض عينيه بثقل، ونظر إليّ لوهلة كأنه لم يعرفني. ثم وبجهدٍ فائقٍ

استدار بوجهه إلى زوجته وابنته، وتمتم عابساً بكلمات غير مفهومة.
تدخلت نجلاء:
- "هل أردت شيئاً يا أبتِ؟"
- "هيا، أخرجوا قليلاً!"
كان صوته خفيفاً جداً ومتقطعاً.
أشارت إلينا مهرية هانم، لكن المريض لاحظ ذلك فأخرج ذراعه من تحت اللحاف وسحبني من خصري وقال:
- "ابق أنت!"
تفاجأت السيدات بعض الشيء. قالت نجلاء:
- "أبتي، لاتخرج يدك! .."
هز رائف أفندي رأسه بسرعة وكأنه يقول «أعرف، أعرف!» وأشار لهم مجدداً بأن يخرجوا. غادرت السيدتان الغرفة وهن تتابعنني بنظراتٍ مستفسرة. عند ذلك أشار رائف أفندي إلى الكيس الذي نسيته تماماً:
- "هل أحضرت كل شيء؟"
في البداية نظرت إليه مستوضحاً. هل كنت أفعل كل ذلك ليسألني هذا السؤال فقط؟ كان المريض مازال ينظر في وجهي وعيناه تلمعان في فضولٍ شديد. تذكرت الدفتر الأسود في هذه اللحظة لأول مرة. لم يكن قد انتابني فضولٌ لأفتحته ولو لمرة قبل أن أجيء. ولم أحزر أبداً أن هذا الدفتر قد يكون شيئا ذا قيمة خاصة لرائف أفندي. فتحت الكيس بسرعة ووضعت المنشفة على كرسي خلف الباب. وعندما وجدت

الدفتر عرضته على رائف أفندي:
– "هل هذا ما كنتم تريدونه؟"
– أومأ برأسه: "نعم".
قلبــت صفحات الدفتر على مهل. أحسســت بداخلي فضولاً يتضخم ولايقاوم. في بعض الصفحــات كانت هناك أســطرٌ مكتوبةٌ بأحرفٍ كبيرةٍ وغير متناسقة، بدت لي أنها كُتبت على عجل. ألقيت نظرة سريعةً على أول صفحة، لم يكن هناك عنوانٌ أو شيءٌ من هذا القبيل. في جانب الصفحة الأيمن سُجّل تاريخ 20 حزيران 1933 تتلوه هذه الأسطر:
" حصل لي البارحــة حادثٌ غريبٌ جعلني أعيش ذكرياتٍ حصلت لي قبل عشرة سنواتٍ من جديد."
لم أستطع إكمال القراءة. أخرج رائف أفندي يده مجدداً ممسكا بيدي: "لاتقرأ!" قالها ثم أشار برأسه إلى الطرف الآخر من الغرفة قائلاً بصوت خافت:
– "ألق به هناك!"
نظرت إلى ماكان يشــير اليه. من خلف لوحات الميكا ،كان هناك موقد تدفئةٍ يلمع بعيونٍ حمراء.
– "إلى النار؟"
– "نعم!"
في هذه اللحظة تضاعف فضولي أكثــر. كان إحراق دفتر رائف أفندي بيدي شيئاً مستحيلاً:

- "ماالسبب يا رائف بك!" قلت مردفاً : " أليس هذا مؤسفاً؟ هل يليق أن تحرق دفتراً كان صديقاً لك لزمنٍ طويل وكأنه لايعني لك شيئا؟"

- "لم يعد له ضرورة!"

أدركت بأنني لن أستطيع ثنيه عن رأيه. يبدو أنه يريد الرحيل مع دفتره الذي يحتمل أنه سكب فيه روحه التي كان يخفيها عن كل الناس. استيقظ بداخلي إحساس بالعطف وشفقة لامتناهية تجاه الرجل الذي كان حتى وهو في طريقه إلى الموت يفضّل أن يأخذ وحدته معه ولا يترك شيئا منها للناس.

قلت: "أتفهمكم يارائف بك!.. نعم، أفهم جيداً. لكم حق في الغيرة على أشيائكم من الناس. وقراركم بإحراق الدفتر أيضا قرارٌ مصيب.. لكن ألا تبقي عليه لمدة بسيطة، على الأقل ليوم واحد؟"

رمقني بنظرةٍ تستفهم عن السبب. دنوت منه محاولاً تجميع كل المحبة والمودة التي أكنها له في عينيّ لأكمل مابدأته وأجرب الحيلة الأخيرة:

- "ألا تتركون لي هذا الدفتر لليلة، لليلة واحدة فقط؟ رغم طول فترة صداقتنا إلا أنكم لم تخبروني بأي شيءٍ عنكم. ألا ترون اهتمامي وفضولي شيئاً طبيعياً؟ أنتم بالنسبة لي أهم إنسان في هذه الدنيا.. هل تريدون رغم هذا بذهابكم وترككم لي بأن تخبروني بأنني لا أعني لكم شيئاً كالآخرين؟"

أدمعت عينيّ. أكملت رجائي وصدري يرتجف. كأنما كنت في هذه اللحظة أسكب كل ماتجمع في روحي من ضيم تجاه الرجل الذي كان يهرب من محاولات تقربي له منذ أشهر.

- "ربما أنتم محقون في سحب ثقتكم من الناس. لكن ألا يوجد استثناءات؟ أمستحيل ذلك؟ لاتنسوا أنكم أنتم أيضاً أحد هؤلاء الناس، قد يكون ماتفعلونه هو قمة الأنانية."

صمتّ عندما استدركت عدم ملائمة إلقائي مثل هذه الكلمات الثقيلة على مريض. كان هو صامتاً أيضاً. أخيراً قلت وفي محاولة أخيرة:

- " يا رائف بك، أرجوكم تفهّموني أنا أيضاً! فأنا في بدايات الطريق الذي أنتم في نهايته. أريد أن أتعلم وأفهم الناس، وبالأخص أريد أن أعلم ماذا فعل الناس لكم.."

هز المريض رأسه بعنفٍ مقاطعاً كلامي. كان يتمتم بشيء، انحنيت مقترباً منه، شعرت بحرارة أنفاسه في وجهي، كان يقول:

"لا، لا!.. لم يفعل الناس لي شيئاً.. لاشيء أبداً.. لكن أنا.. أنا.."

أطرق فجأة ووقع رأسه على صدره. كان يتنفس بسرعةٍ أكبر. مؤكدٌ أن هذا المشهد أتعبه. بدأت أنا أيضاً أشعر بتعب نفسي كبير.

- "لا ذنب لأحد، ولا حتى لي أنا!"

لم يستطع إكمال كلامه. كان يسعل. قال أخيراً مشيراً بعينيه إلى الدفتر:

- "اقرأ، سترى بنفسك!"

دسست الدفتر ذي الغلاف الأسود بجيبي بسرعة كمن لم يصدق الفرصة.

- "سأحضره غداً صباحاً وأحرقه أمامكم!".

هز المريض كتفيه بلا اكتراثٍ كأنه يعني «افعل ماشئت!».

فهمت الآن سبب قطع علاقته بهذا الدفتر الذي يحتوي على أهم

فصول حياتــه. قبلت يده مودعــاً. وعندما أردت الإعتــدال واقفاً لم يتركني وسحبني إليه، قبل جبهتي أولاً ثم خدّي. وعندما رفعت رأسي وجدت دموعه قد إنهمرت على صدغيــه. لم يكن رائف أفندي يحاول فعل أي شيءٍ ليمســح دموعه أو يداريها، كان يحدق فيّ بعينيه من دون أن يرمش. لم أستطع أن أمسك نفسي عن البكاء أيضاً، كان بكاءاً شديداً وصامتاً بلا شــهيق، كالذي يصدر في أوقات الحزن والهم. كنت أعرف أن وداعي ومن ثمّ تركي له سيكون عسيراً. لكنني لم أتصور أنه سيكون مؤلماً وقاسياً بهذا القدر.

حرك رائف أفندي شفتيه مرة أخرى، وقال بصوتٍ بالكاد سمعته:

- "لم نجلس معكم ونتحدث كما يجب، يا للأسف يابنيّ!"، ثم أغمض عينيه.

كان يعتــبر هذا وداعاً. ولأجل ألا أظهر وجهــي للمنتظرين بالخارج، انطلقت بسرعة مــاراً بالردهة وخارجاً من المنــزل. في الطريق جففـ النســيم البــارد وجنتي. كنــت أردد بينــي وبين نفسي بــلا توقف: «ياللأسف! .. ياللأسف!». وعندما وصلت إلى الفندق وجدت زميلي يغط في نومه. إستلقيت على السرير وأشعلت المصباح الذي بجانبه، ثم بدأت في قراءة الدفتر ذي الغلاف الأسود:

20 حزيران 1933

"مرّت بي البارحة حادثةٌ غريبةٌ أعادت إلى ذهني أحداثاً عشتها قبل عشر سنوات وجعلتني أعيشها من جديد. أعلم أن هذه الذكريات التي كنت أظن بأنها ولت وبأني قد نســيتها لن تتركني بعد الآن أبداً.. أي صدفةٍ

غادرةٍ أخرجتها لي من جديدٍ وأيقظتني من نومي الذي كنت أغط فيه، ومن الخدر مسـلوب الحس الذي تعودت عليه تدريجياً. أكون كاذباً لو قلت بأني سـأجنّ أو أموت. فالإنسان يعتاد سريعاً ويصبر على الأشياء التي كان يظن بأنه لن يتحملها أبداً. سـأعيش، لكن كيف سـأعيش! من اليوم فصاعداً سـتكون حياتي عذاباً لايطاق! لكني سأتحمل.. كما تحملت إلى الآن.

لكن التحمل والصبر لم يعد بشيءٍ ممكنٍ بالنسبة لي: لن أستطيع أن أكتم كل شيءٍ في صدري وحدي. أريد أن أسرّ لأحد ما بما في نفسي وأخرج مـا أحبس في داخلي. لكن لمن؟ هل هناك في هذه الدنيا الكبيرة إنسـان آخـر بقدر وحدتي ياترى؟ لمن؟ وماذا سـأحكي؟ لا أذكر أني أخبرت أي أحدٍ بأي شيءٍ طيلة عشر سنوات. هربت من الناس وأبعدتهم عني بلا فائدة. لكن هل أسـتطيع أن أتغيّر بعد هذا؟ لم يعد بالامكان تغيير أي شيء، ولاضرورة لذلـك. يبدو أن هذا الأمر يقتضي ذلك. فقط لو أسـتطيع أن أقول.. أن أبوح بما في داخلي لأحدٍ مـا... حتى لو أردت ذلك حقاً فمن غير الممكن أن أعثر على شـخص كذلك. لم تعد بي طاقةٌ للبحث. حتى لو بقيت، فلم أكن لأبحث.. لأي سـببٍ اشتريت هذا الدفتر أصلاً؟ لو كان عندي ذرة أملٍ بسيط، هل كنت سأقرر أن أكتب وأنـا الذي أكره الكتابة أكثر من أي شيءٍ في هذه الدنيا؟ من الضروري للانسان أن يخبر عما في نفسـه. لو لم يحصل ماحصل بالأمس.. آه لو لم أعلم.. لربما كانت حياتي القديمة المريحة ستستمر.

بالأمس وأنا ذاهبٌ في طريقي صادفت شخصين. أحدهما كنت أراه لأول مرة، أما الثاني فربما أستطيع قول أنه كان من أبعد الناس عني. هل كان ليخطر على بالي حتى بأنه سيكون لهما هذه التأثيرات الهائلة على حياتي؟
لكن وبما أنني قررت أن أكتب مرةً، فسأسرد كل شيءٍ على مهل منذ البداية. لذلك، عليّ العودة اثنتي عشرة سنةٍ إلى الوراء. ربما خمسة عشرة سنة. سأكتب من دون كلل.. فربما استطيع من خلال سردي لكل التفاصيل والجوانب الغير مهمة أستطيع أن أخلّص نفسي من هذا التأثير. وربما يكون ما سأكتبه أقل مرارةً مما عشته في الحقيقة فأسعد قليلاً. من يدري، ربما أخجل من انفعالي عندما أرى أني كنت مبالغاً وأنني أعطيت أشياء سخيفة أكبر من حجمها الحقيقي.
كان أبي من هاوران[1]. ولدت وترعرعت وتلقيت تعليمي الإبتدائي هناك، ذهبت بعد ذلك إلى مدرسة اديرميت الإعدادية اللي كانت تبعد ساعةً عنّا. وفي آخر سنوات الحرب العالمية الأولى أُخذت إلى الجيش، وقد كان عمري تسعة عشرة سنة. لكنهم ما لبثوا أن أعلنوا الهدنة[2]، فعدت إلى البلدة. لكنني لم أعد إلى إكمال الإعدادية. لم يكن عندي شغف للدراسة أصلاً. فانقطاعي عن المدرسة لسنة والأحوال السيئة التي كانت تدور في البلاد جعلتني أنفر من الدراسة. تفككت كل الروابط من بعد الصلح، فلم تبق حكومة جيدة يمكن الوثوق بها، ولا هدف أو فكرة

(1) Havranمدينة صغيرة في غرب تركيا – المترجم
(2) تم التوقيع على الهدنة في 11 نوفمبر من عام 1918.

واضحة. كانت بعض المناطق محتلة من قبل قواتٍ أجنبية، وفجأةً بدأت عصاباتٌ كثيرةٌ بالتشكّل، تحت أسماء مختلفة وكثيرة. كانت أحياناً تنشط في تشكيل جبهات لمقاومة العدو، وأحياناً أخرى تقوم بنهب القرى. لم يكن غريبا أن تسمع بعد أسبوع بإعدام البطل الذي كان اسمه يتردد على السنة الناس بالأمس شنقاً في ميدان أدرميت بعد تعذيبه والتنكيل به في مركز الشرطة.. في مثل هذه الأوقات، لم يكن حبس نفسي بين أربعة جدران وقراءة التاريخ العثماني أو كتب الأدب والأخلاق بشيءٍ جذابٍ بالنسبة لي. لكنّ أبي الذي كان أحد أفراد المنطقة الموسرين كان ولسببٍ ما مهتماً بتعليمي. على الأغلب أنه بدأ بالخوف على مستقبلي عندما رأي أن القتل على يد الشرطة أو على يد أفراد العصابات كان مصير الكثير من اقربائي الذين تحزمو بالرصاص وانضموا للعصابات. في الحقيقة كنت انا ايضاً أستعد لذلك بسريةٍ ، لأنني مللت من الفراغ. لكن في تلك الاثناء ذلك جاءت قوات الإحتلال إلى القرية، وأجبرتني على أن أبتلع حماسي وطموحي في أن أكون بطلاً.

تسكعت عدة أشهر كشابٍ متشرد. اختفى أكثر أصدقائي مع الوقت، فقرر أبي إرسالي إلى إسطنبول. لم يكن يعرف حتى إلى أين سأذهب، كان يقول: «جد لنفسك مدرسةً، وتعلم!». ورغم كوني عديم الفائدة وخجول دائماً، إلا أن كلام أبي لي كان كافياً ليثبت لي بأنه لم يكن يعرفني بما فيه الكفاية. بنهاية الأمر، كنت أحس في داخلي بميولٍ خفيةٍ لبعض

الاتجاهات. في المدرسة كانت هناك مادة واحدة أنال فيها الدرجة الكاملة، ألا وهي الرسم. فقد كنت أرسم بشكلٍ ممتاز. كنت أفكر بين الحين والآخر في دراسة الفنون الجميلة بإسطنبول وأخلق لنفسي أحلاماً جميلة. في الواقع، كنت ومنذ صغري طفلاً هادئاً يعيش في عالم الخيال. في طبعي خجل وتردد مبالغٌ فيهما لدرجة أنهما يتسببان في إساءة فهم من حولي لي ويضعني في مواقف سخيفة ومحرجة، مما كان يحزنني كثيراً. حتى عندما كان زملائي في المدرسة يسيئون إليّ لم أكن أجرؤ على أن أدافع عن نفسي ولا حتى بكلمة، وعندما أعود إلى البيت كنت أجد لنفسي زاوية أجلس فيها وأنتحب. أتذكر ترديد أمي وأبي بالذات على أسماعي قول: »ياإلهي! كان من المفترض أن تولد أنثى ولكن حصل خطأ ما!». كان أكثر شيء يمتعني هو الجلوس وحيداً في حديقة المنزل أو على حافة الجدول والغوص في خيالاتي. كانت خيالاتي وعلى العكس من شخصيتي: واسعةً وجريئة، مثل أبطال الروايات المترجمة الكثيرة التي قرأتها: كنت أتخيل نفسي متحزماً بمسدسين ومرتدياً لقناع، أهرب مع الفتاة التي تسكن في الحي المجاور. فخرية، والتي أحمل تجاهها الكثير من المشاعر الجميلة والتي لم أستطع تحديد ماهيتها، إلى مغارة في الجبل متحدّين كل شيءٍ ومنقلبين عليه. أتخيلها بعد أن كانت مترددةً خائفة، كيف رأت أتباعي مرعوبين وهم يرتعدون خوفاً مني، وشاهدت الكنوز التي لامثيل لها في المغارة، وحينما أكشف القناع عن وجهي تقفز صارخة ومتعلقة برقبتي بسرورٍ لايمكن كتمانه. أحياناً كنت أصبح مثل

كبار المستكشــفين. أتجول في إفريقيا، وأمر بمغامراتٍ عجيبةٍ بين آكلي لحوم البشر، وأحياناً أخرى أكون رساماً وأتجول في أوروبا. كل الكتب التي قرأتها، كتب ميشـــال زيفاكو وجول فيرن وألكسندر دوما وأحمد مدحت أفندي و وجهي بك تركت في رأسي أثراً لا يُمحى.

كان أبي يســتاء ويغضب من قراءتي، لدرجة أنــه كان في بعض الأحيان يأخذ الروايات ويتخلص منها، وأحياناً يحرم غرفتي من نور المصباح في الليـــل. لكنه كفّ عن مضايقاته عندما رآني مرةً، أنا الذي كنت أجد حلاً لكل شيء، أصنع من فتائل الخيط الصغيرة مصباحاً وأهرب من نفسي إلى قراءة «أسرار باريس» أو «البؤســاء». كنت أقرأ كل شيءٍ تقع عليه يدي، وأتأثر بها جميعاً، سواءً كانت مغامرات مسيو لوكوك أو تاريخ مراد بك.

عندما كنت أقــرأ في تاريخ روما القديم عن مفوّض اســمه ميوكوس ســكيفولا، وجدت أنه وفي أثناء عقد مفاوضة صلحٍ، وكَرَدٍّ على تهديد له بالقتل في حـــال عدم قبوله بشروط المعاهــدة، وضع ذراعه في النار المشــتعلة بجانبه وأكمل بكل هدوءٍ إجراءات التفاوض. عندما قرأت كيــف أنه بفعله هذا أثبت لهم أن التهديــدات لا تخيفه، أردت أن أضع يدي في النار وأجرب مامرّ به بكل عزم وقوة، فأحرقت أصابعي بشكل بالغ. لم تفارق صورة هذا الرجل الصامد الذي حافظ على ابتسامته في وجه أكبر الآلام مخيلتي أبــداً. في بعض الأحيان، كنت عندما أشرع في محاولة الكتابة ونظم أشعار قصيرة سرعان ماكنت أتراجع عن ذلك، إذ كان خوفي من إخراج ما بداخلي بأي شكلٍ كان وترددي الذي لا أملك

له سبباً يمنعاني من الكتابة على الدوام. لكنني تابعت الرسم فقط. لم أكن أشـــعر بأن الرسم هو طريقةٌ أخرى للتنفيس عما في داخلي. كان يبدو لي عبارةً عن وسيطٍ لعكس ما أراه على الورق فقط. ولكن عندما اكتشفت أنه ليس كذلك توقفت عن ممارسته أيضاً. كل هذا بسبب ذلك الخوف. أدركت بنفسي ومن دون مســاعدة أحد كون الرسم شكلاً من أشكال التعبير عن النفس بينما كنت أدرس في معهد الفنون الجميلة بإسطنبول، ولم أكمل بعدها دراستي. لم يكن المدرسون يجدون فيّ شيئاً على أية حال. كنت أعرض أكثر رســوماتي فراغاًوالخالية من المعنى والتي لاتعبر عن أي شيء وأخفي و أتحرج من إظهار أي رسمةٍ بها مايعبر عني أو يعرض أي شيءٍ مني بحرصٍ شــديد. وعندما كانت إحداهــا تقع بيد أحدٍ ما كنت أفزع وكأنني امرأة اكتُشفت وهي عاريةٌ في وضع مخلٍ وأولّي هارباً. تسكعت في إسطنبول لمدةٍ طويلةٍ من دون أن أعرف ماذا أفعل. في سنوات الهدنة، أضحت المدينة عديمة الحياء ومضطربةً إلى حد لا أحتمله. طلبت من أبي مالاً لأعود إلى هاوران. وبعد عــشرة أيامٍ تلقيت مكتوباً طويلاً منه. وجــد أبي حلاً أخيراً ليجعل مني رجلاً ذا فائــدة. أخبرني فيه بأنه سمع بأن قيمة العملة في ألمانيا هبطت لدرجة أن المعيشة هناك أصبحت رخيصة جداً للأجانب، حتى أنها أرخص من إســطنبول، وأنه بناءً على ذلك أرسل لي بعض المال لمصاريف السفر إلى ألمانيا لأتعلم حرفة صناعة الصابون هناك. سررت كثيراً. ليس بســبب محبتي وشغفي بهذه الحرفة أو ما يشــابه ذلك. كان ابتهاجي بســبب ظهور فرصةٍ كهذه ومن دون

أي جهدٍ أو توقعٍ مني، لزيارة أوروبا التي كانت موضوعاً لجلّ أحلامي وخيالاتي المتشكلة بآلاف الأشكال. كان يقول في مكتوبه «تتقن الحرفة في غضون سنة أو سنتين وتعود، عندها سأوسع مصنع صابوننا وأصلحه ومن ثم أسلمه لك، وبالتالي تدخل أنت أيضاً إلى عالم التجارة وتسعد وتفرح بأطقم الذهب». لكنني لم أكن أفكر في هذا الجانب حتى.

كان توقعي هو أنني سأتعلم لغة اجنبيةً ثم أقرأ بها كتباً، وسأجد الشخصيات التي كنت أصادفها في الروايات فقط في أوروبا على أرض الواقع. ألم يكن أحد أسباب ابتعادي عن محيطي وتوحشي هو عدم إيجادي للشخصيات التي تعرفت عليها في الكتب وتقمصها؟

تجهزت في غضون أسبوع وتحركت بالقطار إلى برلين ماراً ببلغاريا. لم أكن أعرف أية لغة. وبفضل بعض الكلمات التي حفظتها من كتاب المحادثات في خلال أيام الرحلة الأربع، إستطعت أن أصل إلى المهجع الذي سجلت عنوانه لدي وأنا في إسطنبول.

مرّت أول أسابيعي هناك وأنا أتعلم الألمانية بما يكفيني لأدير أموري، وأتجول في المدينة مشاهداً ما حولي بذهولٍ وإعجابٍ كبير. لكن دهشة الأيام الأولى لم تستمر طويلاً. كانت برلين أقصى ما يمكن أن تكونه مدينة في زمانها. شوارعها أوسع بعض الشيء، وأنظف بكثير، وأناسها أكثر شقرةً. لكن لم يكن بها مايذهل الإنسان ويسوقه للدهشة. لم أكن أعرف ماهية أوروبا التي كانت في خيالي بالضبط، بالتالي لا أستطيع أن أقيس برلين التي أعيش فيها الآن عليها وأعرفماينقصها. أدركت

وقتها أن الأشياء الرائعة التي نحلم بها لا تتحقق كما هي في أحلامنا أبداً.
ولاعتقادي بأنني لن أستطيع أن أجد عملاً قبل أن أتعلم اللغة، بدأت في تلقي دروس خصوصية في اللغة الالمانية من ضابطٍ ألمانيٍّ متقاعد كان في تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وتعلم خلالها قليلاً من التركية. كانت السيدة صاحبة المهجع أيضاً تثرثر معي في أوقات فراغها وتساعدني. نزلاء المهجع الآخرون كذلك كانوا لا يضيّعون فرصةً لتبادل الكلام وتصديع رأسي بأسئلةٍ سخيفة. على سفر طعام العشاء كان الحشد هجيناً متعدد الألوان. من بين أصدقائي كانت أرملةٌ هولندية اسمها فراو فان تيدمان، وتاجرٌ برتغاليٌّ اسمه هير كامرا يستورد البرتقال من جزر الكناري إلى برلين، وهير دوبكه العجوز. آخرهم هذا كان يعمل بالتجارة في كينيا، التي كانت تخضع للاستعمار الألماني، لكنه ترك كل ما يملك بعد الهدنة وعاد إلى وطنه. وبالمال البسيط الذي استطاع أن ينفذ به أصبح يعيش حياة متواضعة جداً. يقضي يومه في الذهاب وحضور الإجتماعات السياسية التي كانت تغص بها برلين في ذلك الوقت، ثم يعود في المساء ليحكي لنا عن انطباعاته. كان يحضر معه في مرات كثيرة أحد الضباط الألمان العاطلين والذين تعرف عليهم ويتناقش معهم لساعاتٍ طويلة. كانوا على حسب فهمي القاصر، يرون خلاصَ ألمانيا في تعيين رئيس بقيادةٍ حديديةٍ كبسمارك والبدء بالتسلح فوراً لخوض حرب عالمية جديدةٍ ورفع الظلم الذي حصل.
أحياناً كان أحد نزلاء المهجع يتركه، فتُخلى غرفةٌ سرعان ماتمتلئ

بشـــخصٍ أخر. لكنني مع الوقت بدأت بالإعتياد، بل بالسأم من هذه التغيرات، ومن الثريا الحمراء التي كانت تضيء لنا صالة الطعام المظلمة على الـــدوام، ومن روائح أنواع الملفـــوف المختلفة التي كانت لا تختفي من السفرة أبداً، ومن المجادلات والمناقشات السياسية لأصدقائي. في هذه المجادلات، كان لكل واحدٍ منهم رأيٌ مختلف لخلاص ألمانيا. لكن كل هذه الآراء في الواقع لم تكـــن مرتبطة بمصلحة ألمانيا، بل بالمصالح الشخصية المرتبطة بكل واحدٍ منهم. فالمرأة التي خسرت ثروتها بسبب هبـــوط قيمة العملة كانـــت تحنق على الضباط، وتلـــوم الجنود الذي لم يرغبوا في الاســـتمرار في الحرب، وتاجر المســـتعمرة كان يسب ويشتم من أعلن الحرب عـــلى الإمبراطورية بلا توقف. حتى الفتاة التي كانت توظّب لي سريري في الصباح كانت تحاول الحديث معي عن السياســـة، وفي أوقات فراغها تتصفح الجرائد. حتى هي كانت لها قناعاتها الملتهبة، وعندما تتحدث عنها كانت تلوح بقبضتها في الهواء ووجهها محتقن.

كنت وكأنني قد نســـيت الهدف من مجيئي إلى ألمانيا. في كل مرة يصلني مكتوبٌ مـــن أبي يذكرني بموضوع الصابون، كنـــت أكتب له في ردي بأنني مشـــغول حالياً بتعلم اللغة، وبأنني قريبا جداً سأتقدم للحصول على وظيفةٍ في شركة محترمـــة؛ أغافل نفسي وأغافلـــه. أيامي تمرّ برتابةٍ شـــديدة وتشـــبه بعضها تماماً. تجولت في كل أنحـــاء المدينة، زرت كل حدائق الحيوان والمتاحف. كان مخيباً لأملي أن هذه المدينة المليونية تنتهي في خلال أشـــهر قليلةٍ فلا يبق فيها مكانٌ للزيارة. كنت أقول بيني وبين

نفسي متهكماً: «أهذه هي أوروبا! مالذي هنا ياترى؟» وأحكم على الدنيا كلها بأنها مملةٌ جداً. كنت في أغلب الأماسي أتجول وسط الزحام، متمعناً في وجوه الناس وهم عائدون إلى بيوتهم. أناسٌ تعلو وجوههم نظراتٌ جديةٌ توحي بأنهم يمارسون أعمالاً مهمة، ورجالٌ مازالوا يحافظون على رتم خطواتهم العسـكرية وهم يمشون وأذرعهم متشابكة مع سيدات ضحوكاتٍ مستندات عليهم.

وكي لا أكون قد كذبت على والدي، وبمساعدة بعض أصدقائي الأتراك، تقدمـت للحصول على وظيفـةٍ في شركة لصناعة الصابون. اسـتقبلني الموظفون الألمان في الشركة التابعة لمجموعةٍ سـويديةٍ بحفاوة من لم ينسى رفيقـه في الحرب، لكـن كان يبدو لي أنهم يترددون من إفشـاء الجوانب العميقة لهذه الحرفة. ربما باعتبار أنها سر صنعتهم. ربما أخفوها عني لأنني لم أكن أبدِ شـغفاً بهذه المهنة أصلاً، فلم يـروا ضرورة لإضاعة وقتهم في تعليمي. ومع مرور الأيام أصبحت لا أذهب إلى الشركة أساساً، ولم يسأل الموظفون عني، ولم يعد أبي يراسـلني كثيراً، فأكملت العيش في برلين من دون أن أفكر في سبب مجيئي الأولي إليها، أو بماذا سأفعل.

كنت أتعلم الألمانية ثلاث مراتٍ في الأسـبوع عـلى يد الضابط الألماني في المسـاء. وفي النهار أتجول زائراً المتاحف والمعارض الجديدة لأشاهد اللوحات، وفي المسـاء وقبل مئة خطوة من وصـولي إلى المهجع كانت رائحة الملفوف تغزو أنفي. لم أعد أضجر كما كنت في السابق. شيئا فشيئا كنت أحاول قراءة الكتب، ومع الوقت بدأت بالاعتياد والاسـتمتاع

بهـــذا العمل. لكنه بعد مدة تحول إلى مايشـــبه الابتلاء. فقد كنت أقضي الســـاعات الطويلـــة مضطجعاً عـــلى بطني، والكتـــاب مفتوح أمامي وبجانبه معجم لغـــاتٍ قديم قائم. كنت في مراتٍ كثيرة لا أكلف نفسي عناء البحث عن معنى كلمةٍ ما في المعجم، فأنظر إلى سياقها وأتجاوزها معطيـــاً لها معنى من رأسي. كنت في حالٍ كأن دنيا جديدة تتفتح أمامي. في هذه المرة لم تكـــن الكتب التي أقرأها تتحدث عن مغامرات لم تر من قبل وأبطال وشـــخصيات خارقةٍ كتلك الكتب المترجمة أو المؤلفة التي كنت أقرأها في طفولتي وبداية شـــبابي. ففي جلّها كنت أجد أجزاء من نفسي وبيئتي، ومشاهداتي وأحاسيسي. كنت أستذكر الأشياء التي كنت لا أفهم كنهها مع أنني كنت أعيش فيهـــا ومعها وأعطيها ماكنتِ أظن أنه معناها الحقيقـــي. كان الكتّابُ الروس أصحاب التأثير الأكبر علي. كنت أقرأ حكايات تورجينيف الطويلة أكثر من مرةٍ في بعض الأحيان. واحدةٌ منها بالذات سلبت لبّي لأيام. إحدى أبطال حكاياته فتاة بإسم كلارا ميليتش تقع في حب تلميذ أخرق جداً. لكنها من دون إخبار أي أحد، وبسبب حرجها من حبها لأحمق مثله، ذهبت ضحيةً لهذا الابتلاء العجيب. لســـببٍ ما وجدت تلك الفتاة قريبة مني جداً، شبهتها بنفسي من ناحية عدم اخبارها أي أحدٍ بما يجول في خاطرها، وتخبئتها لجوانب شخصيتها بغيرة مدهشةٍ وعدم الثقة بأحدٍ ما.

كان فنانوا الرســـم القديم البارعين يوفرون لي إمكانية عيش حياة بغير مللٍ أو ســـأم. أحياناً كنت أتفـــرج على لوحة مـــا في المعرض الوطني

لســـاعات، وفي الأيام التالية أســـتحضر الوجه أو المنظر الذي كان في اللوحة في مخيلتي وأعيده للحياة.

كان قد مر على إقامتي في ألمانيا ما يقارب العام. أتذكر ذلك اليوم جيداً، كان يومـــاً مظلماً وممطراً من أيام تشرين الأول. كنت أتصفح الصحف عندما لفت نظري مقال نقدي يناقش معرضاً افتتح مؤخراً لبعض الرســـامين الحداثيـــين. لم أكن أفهم أعمال الفن الحديث كثـــيراً. ربما كانت مبالغتهم وميلهم للتباهي ومحاولتهم لجـــذب الأنظار بأي طريقة هي ماجعلني لا أعجب بأعمالهم، لذلك لم أقرأ المقال حتى. لكن بعد عدة ساعات، عندما كنت أجوب الشوارع عشـــوائياً في جولتي اليومية، اكتشفت أنني كنت أقـــف تماماً أمام المكان الذي يقام به المعـــرض. لم يكن هناك شيءٌ أفضل لأفعله، فقررت الدخول استســـلاماً للمصادفة وتجولت لمدة طويلة وأنا أتفرج على اللوحات الكبيرة والصغيرة بلا اهتمام كبير.

كانت معظـــم اللوحات تثـــير في المـــرء الرغبة في الابتســـام على أقل تقديـــر: أكتاف ورُكـــب مربعة، رؤوس وأثداء غير متناســـبة، ومناظر طبيعيةٍ بألوان صارخة وكأنها صنعت بواســـطة ورقٍ لماع، ومزهريات كريستالية بلا شكل كأنها طوبٌ محطم، وورودٌ بلا روح كوردةٍ سُجنت بين صفحات كتابٍ لسنوات. وأخيراً، رسومات مخيفة كأنها أُخذت من ألبـــوم صور المجرمين المطلوبين للعدالة. لكنه كان شـــيئا ممتعا على أي حال. ربما كانت محاولتهم لخلق تأثير كبير بأبســـط جهد يبذلونه هو ما أوجب الحنق عليهم. لكن لم يكن هناك بد من أن أشعر بالشفقة عليهم

عندما أفكر بأنهم يعرفون أن أعمالهم ستُفهم خطأ وسيُستخف بها، بل وأن ذلك كان يعجبهم و يرضي ذوقهم المريض.

توقفت فجأةً مقابل حائطٍ قريبٍ من باب الصالون الكبير. لم يكن باستطاعتي، ورغم مرور كل هذه السنين، أن أعبر عما شعرت به في تلك اللحظة. كل ما أتذكره أنني وقفت متسمراً أمام لوحة امرأةٍ ترتدي معطف فرو. كان الناس يشاهدون اللوحات ويمرون بسرعةٍ وهم يدفعونني يميناً وشمالاً، لكنني لم أستطع التحرك من مكاني. ماذا كان في اللوحة؟ .. أعرف أني لن أستطيع إيضاح ذلك، كان في وجه المرأة تعابيرٌ قوية - عبارة عن خليطٍ غريبٍ من الوحشية وقليلٍ من الغرور والاستعلاء. لكن وبالرغم من علمي بأني لم أر شبيهاً لهذا الوجه في أي زمانٍ أو مكانٍ من قبل، إلا أنه انتابني احساسٌ بألفةٍ، وكأن بيننا معرفة مسبقة. هذه البشرة الشاحبة، هاتان العينان السوداوان تحت الحواجب السوداء، والشعر الكستنائيّ القاتم.. والأهم من ذلك، تلك التعابير الجامعة بين البراءة والحزم، والحزن اللانهائي والشخصية القوية؛ وجهٌ مثل هذا ليس بغريبٍ عليّ أبداً. كنت أعرفها من الكتب التي كنت أقرأها مذ كان عمري سبعة أعوام، ومن الخيالات التي كنت أنسجها مذ كان عمري خمساً. كان بها صفاتٌ من نهالِ ضياء خالد أوشاك غيل [1]، ومهجورةِ وجيهي بك، وحبيبة تشيفالير، وكليوباترا التي قرأت عنها في

(1) شخصية في رواية "العشق الممنوع" لكاتبها ضياء خالد أوشاك غيل.

كتب التاريخ، بل كان بها أيضا شيءٌ من السـيدة آمنة أم الرسول محمد، التي كنت أتخيلها عندما أستمع في احتفالات المولد النبوي إلى الأناشيد الدينيـة. كانت امرأة مركبة من كل نسـاء خيالي، مزيـجٌ منهم. داخل معطف من فرو السـنّور البري، وجزءٌ بسـيطٌ باهتٌ يظهر من رقبتها البيضاء رغم جلوسـها في الظل، وفوق الرقبة وجهٌ بيضاوي ملتفتٌ إلى اليسـار قليلاً. عيناها السوداوان تنظران إلى الأرض وكأنها مستغرقةٌ في تفكيرٍ عميق، تريد البحث عن شيء ما بأملٍ أخير، رغم تأكدها بأنها لن تجده. رغم ذلك كان الحزن الذي يكتنفها مختلطاً بالإستغناء. كأن لسان حالها يقول: »أعرف، لن أجد ما أبحث عنه.. ماذا في ذلك؟«. كان تعبير اليأس هذا يُرى بوضوحٍ على شـفتيها الممتلئتين، الشفة السفلى بالذات. أجفانها منتفخةً قليلاً. وحواجبها ليسـت بالغليظةٌ ولا بالخفيفة، لكنها قصيرة قليلاً. وشعرها الكستنائي الغامق يتهدل مغطياً أجزاء من جبهتها الواسعة وينسدلٌ في النهاية ملامسـاً زغب الفرو. ذقنها حادُ ومائلُ إلى الأمام قليلاً. أنفها دقيق وطويل مع خنّابتين ممتلئتين بعض الشيء.

ارتجفت يداي وهما تتصفحان الألبوم أملاً في إيجاد مزيد من التفاصيل عنها. في النهاية، وفي الطرف الأسـفل من أحـد الصفحات الاخيرة، وبجانـب رقـم اللوحة قرأت هـذه الثـلاث كلمات: ماريـا بودر، سيلبسـبورتريت. لم يكن هنـاك شيءٌ آخر. كانت هـذه اللوحة هي الوحيدة التي عرضها الفنان، يُفهم من ذلك أنها كانت لوحة شـخصية

(Self Portrait). كنت سعيداً بذلك. فربما لو كانت لها أعمال أخرى لما كان لها كل هذا التأثير علي، بل ولربما قل إعجابي باللوحة كثيراً. بقيت بالداخل لوقتٍ متأخر. أتجـــول أحياناً بين لوحات المعرض، أنظر إليها من دون تدقيقٍ. لكنني سرعان مـــا أعود إلى نفس اللوحة وأعيد تأملها لوقت طويل. في كل مرةٍ كنت أرى فيها تعابير جديدة، كأنني أرى حياةً تُظهر نفســـها أكثر فأكثر. بدأت أظن بأن العينين المحدقتين إلى الأسفل كانتا تختلسان النظر إليّ، وبأن الشفتين تتحركان بخفة.

لم يتبـــق أحدٌ في الصالون. الغالب أن الرجـــل الطويل الواقف بجانب الباب كان ينتظر خروجي. جمعـــت نفسي بسرعةٍ وخرجت. كان المطر هتاناً. وعلى عكس كل ليلة، عدت إلى المهجع مباشرةً من دون تســـكع. كان كل ما أريده هو أن أتناول عشائي بسرعة، وأذهب لغرفتي لأجلس وحيداً وأســـتحضر وجهها أمامي من جديد. لم أنطق بشيءٍ على طاولة العشاء. سأل صاحب المهجع فراو هيبنر:

- "إلى أين ذهبتم اليوم؟"

أجبت: «تجولت فقط، ثم ذهبت إلى معرضٍ للفن الحديث.».

بدأ كل من في الصالة يتكلم عن الفن الحديث، وتسللت أنا إلى غرفتي. بينما كنت أخلع ملابسي سقطت من جيب معطفي صحيفةٌ على الأرض. تناولتها وعندما وضعتها على الطاولة بدأ قلبي في الخفقان سريعاً. كانت هذه هي الصحيفة التي اشـــتريتها في الصباح والتي لمحت بها المقال عن المعرض بينما كنت أقرأها وأنا في المقهـــى. وبنيّة معرفة أي معلومة عن

اللوحة أو الرسامة فتحت الصفحات بتعجلٍ لدرجة أني كنت أجعدها وأنا أبحث عن المقال. حتى أنا نفسي كنت متعجباً من هذا الاضطراب والحماس وهو يصدر من شــخصٍ متأن وهادئٍ مثلي. ألقيت نظرةً على المقال من بدايته، وعندما وصلت إلى وسط المقال تسمّرت عيناي فجأةً على كلمات بين السطور: ماريا بودر.

كان المقال يتحدث بإسهابٍ عن هذه الفنانة التي عرضت عملاً لها لأول مرةٍ في هذا المعرض. الرســامة التي يبدو أنها تريد المضي في طريق الفن الكلاسيكي أكثر، صاحبة الملَكة المذهلة في التعبير. يقال أنها ليست كمثل الكثير من زملائها رســامي اللوحات الشخصية -بورتريه- صاحبات الميل لـ(تجميل) أنفسهم أو (تقبيحها) عناداً. يذكر المقال أيضاً أنهم وبعد دراسة فنيةٍ طويلة توصلوا من خلال النظر إلى وضعية وتعابير وجه المرأة في اللوحة، إلى اعتقاد بأنها وبتصادف فريد، تشبه مريم العذراء في لوحة أندريه ديل ســارتو (مادونا الهاربيز)[1]، وأكمل كلامه شبه مازحٍ متمنياً التوفيق لـ(مادونا معطف الفرو) ومنتقلاً للحديث عن رسامٍ آخر.

أصبح على ســلم أولوياتي في اليــوم التالي الذهاب إلى تاجرٍ مشــهور بالنســخ وبيع النســخ، والبحث عن لوحة (مادونا الهاربيز). وجدتها وسط ألبومٍ كبير لسارتو. ورغم أن الطباعة كانت رديئةً ولم تكن تُظهر شيئاً كثيراً، إلا أن صاحب المقال كان محقاً: تلك المادونا الجالسة في مكان

---

(1) Madonna of the Harpies

عالٍ وبيدها الطفل المقدس - يسوع - وكأنها غير واعيةٍ بوجود الرجل الملتحي والشاب بجانبها، كان هناك مللٌ وكدرٌ بادٍ في نظراتها وشفاهها وإلتفاتة رأسها هو عينه الذي رأيته في اللوحة باالأمس. ولإمكانية شراء الصفحات متفرقة لديهم، اشـــتريتها وعدت إلى غرفتي. عندما دققت فيها متأملاً حكمْتُ من وجهة نظرٍ فنية أن بها شيئا فريداً يميزها. لأول مرة في حياتي أرى مادونا[1] بهذا الشكل، ففي كل تصاوير ورسوم مريم العذراء التي رأيتها إلى الآن، كانت هناك براءةٌ ونقاءٌ بارز بشكلٍ مبالغ فيه وزائدٍ عن اللزوم؛ كأنهـــا تريد أن تقول للأطفال الذين ينظرون إلى الرضيع الذي في حضنها:» أرأيتم؟ كيف أحســـن إليّ ربي!»، أو كانت تشـــبه الخادمات الصغيرات الذين ينظرون إلى طفلٍ لا يستطيعون ذكر اسم أبيه ويبتسمن بذهول.

بينـــما كانت مريم التي في لوحة ســـارتو تبدو وكأنهـــا تعلمت التفكير، وأصدرت أحكامها بحقّ الحياة وأصبحت تســـتخفّ بها. لم تكن تنظر لا إلى الراهبين الواقفين بجانبها، ولا إلى المســـيح، ولا حتى إلى السماء، بل كانت تنظر إلى الأرض لترى شيئاً ما بالتأكيد.

تركْتُ الرسمة على الطاولة. أغمضت عينيّ، حاولت التفكير في لوحة المعرض. لم يخطر على بالي أن المرأة المرسومة في تلك اللوحة موجودةٌ في الحقيقة إلا الآن. هذا هو الواقع، فنظراً إلى حقيقة أن الفنانة قد رسمت نفسها في تلك اللوحة، فهذا يعني أن هذه المرأة الرائعة موجودةٌ على قيد

(1) كلمة مادونا نفسها تعني: "مريم العذراء".

الحياة، تتجول وسطنا، تنظر بعينيها السوداوين العميقتين إلى الأرض أو إلى مايقابلها، تفتح فمها ذا الشفة السفلى المكتنزة وتتكلم. هناك احتمالٌ بأن أراها في أي مكان. عندما فكرت في هذا الإحتمال، كان أول شعورٍ ينتابني هو الخوف. فمقابلة شخص لم يخض أي مغامرةٍ في حياته مثلي لامرأةٍ مثلها سيكون شيئاً مرعباً.

رغم أن عمري أصبح أربعة وعشرون عاماً، إلا أنه لم يكن لي أي مغامرة مع أي امرأة من قبل. لم تكن المغازلات التي فعلناها في هاوران بإرشاد بعض أصدقاء الحي الأكبر سناً أكثر من مجرد مغامراتٍ عابرةٍ تحت تأثير السكر. كان الملل السريع في طبعي كافياً لمنعي من تكرارها. فالمرأة التي كانت بالنسبة لي منشط خيالي، وتشغل أحلامي عندما كنت أتمدد مستلقياً تحت أشجار الزيتون في أيام الصيف القائظة وتجعلني أعيش مغامراتٍ لانهائيةٍ معها، كنت أراها مخلوقاً بعيداً عن المحسوس، مخلوقاً لا يُقترب منه. جارتنا فخرية التي كنت أعشقها لسنوات طويلة من دون علم أحد، ورغم أني عشت معها في خيالاتي مغامرات كثيرة مليئة بالمجون، كنت عندما أواجهها في الشارع صدفةً تهجم علي أزمة تسارع نبضٍ تكاد من شدتها أن تطرحني أرضاً، فأبحث عن مفر ووجهي يلتهب ناراً. وفي ليالي رمضان، كنت أختبئ مقابل باب بيتها لأشاهدها خارجة مع أمها وبيدها فانوس وهما ذاهبتان إلى صلاة التراويح، لكن ما أن يكاد الباب يُفتح وتظهر تحت النور المتسرب من الداخل أجساد متجلببة حتى أسرع بإشاحة وجهي وأبدأ في الارتعاد خوفاً من أن يروني.

عندما كنت أعجب بأي أنثى وبأي شكل كان، كان أول شيءٍ أفعله هو الهرب منها. عندما نتصادف في مكان ما كنت أخاف من أن تبوح حركة من حركاتي أو نظرة من نظراتي بسري وينتابني شعورٌ لا يمكن وصفه، خجلٌ خانق يجعلني أشـــعر بأنني أكثر الناس بؤساً. لا أذكر أني حدّقت في عين أي امرأةٍ في حياتي كلها، حتى عين أمي. في الســـنوات الأخيرة، وفي الفترة التي كنت فيها في إســـطنبول تحديداً، قــررت التغلب على حس الخجل الزائد هذا، وحاولت التصرف بشـــكل طبيعي مع بعض الفتيات اللاتي تعرفت عليهنّ بواســـطة بعض الأصدقاء. لكن سرعان ماكان عزمي وقراري يتلاشـــيان، واتهرب اللحظة التي كنت أبدأ فيها بالإحساس بالألفة تجاه إحداهنّ. لم أكن إنساناً بريئاً أبداً: فالنساء الذين كنت أُحْبِيهنّ في مخيلتي عندما أكون وحيداً، كنت أعيش معهن لحظاتٍ لا تخطر على ذهن أكثر العشاق فحولة. أحس بضغط شفاههن الساخنة والمُسْـــكرة على فمي. كان إحســـاسي بها أكثر مما هو ممكـــنٌ في الحقيقة بأضعاف. لكن مادونا التي رأيتها في المعرض شـــغلت عقلي لدرجة لا تسمح لي بالمساس بها حتى بخيالي. لم تكن الصعوبة في تخيّل مشهد حب بيني وبينها، بل حتى في التفكـــير بالجلوس مقابلها كصديق. في مقابل ذلك، كانت رغبتي في الذهاب إلى المعـــرض لأتأمل اللوحة وأغوص في عينيها، اللتان بـــت متأكداً أنهما لم تكونا تتابعاني، تزداد وتتضخم مع مرور الوقت. ألقيت بالمعطف على ظهري وســـلكت طريق المعرض، واستمر هذا الحال أياماً متتالية.

كنت أذهب إلى المعرض في ظهيرة كل يوم، وأتظاهر بمشاهدة وتأمل اللوحات المعلقة على جانبي الرواق بتأنٍّ، بينما في داخلي كنت لا أطيق الانتظار حتى أصل إلى هدفي الحقيقي وأتجول وأنا بالكاد أضبط خطواتي المتعجلة، حتى إذا وصلت إلى (مادونا صاحبة معطف الفرو) تظاهرت بأني قد وصلت إليها صدفة، فأبقى متأملاً ومتمعناً فيها حتى موعد إغلاق المعرض. أدركت في هذا الوقت أن حراس المعرض وكثير من الفنانين لاحظوا تواجدي هناك بشكل يومي. فبمجرد دخولي إلى المعرض تبدأ وجوههم بالإبتسام وعيونهم بمتابعة مهووس اللوحة العجيب. في آخر الأيام تركت الدور التي كنت أمثله في الأيام قبلها في تصنع الاهتمام باللوحات الأخرى. فأصبحت أتوجه مباشرةً أمام (مادونا صاحبة معطف الفرو)، وأجلس على أحد المقاعد متفرجاً على اللوحة لفترة، وناظراً أمامي حتى تصاب عيني بالتعب.

كان من المؤكد أن وضعي هذا سيوقظ فضول المتواجدين في المعرض. في يومٍ من الأيام حصل ما كنت أخشاه. جاءت إحدى الفنانات الشابات اللاتي كنت أصادفهن في المعرض ووقفت بجانبي سائلةً: «هل أثارت اللوحة فضولك كثيراً؟ كل يوم تأتي لمشاهدتها!»

رفعت عينيّ وخفضتها بسرعة. ضايقتني لهجتها اللامبالية وضحكتها المستهزئة جداً. كان يبدو أن صاحبة الحذاء ذو المقدمة الطويلة الواقفةَ أمامي وتنظر في وجهي، تنتظر جواباً. كانت ساقاها العاريتان أسفل تنورتها القصيرة، ولا أنكر بأنهما كانتا جميلتان، تهتزان بين حين وآخر

فتعطيان جســـدها موجات تمتد حتى جواربها مارةً بركبها المســـتديرة. عندمـــا رأيت بأنها لا تنـــوي الذهاب من غير جـــواب أجبتها: «نعم، لوحةٌ جميلة!». ثم لا أدري، شعرت بأن علي أن أكذب وأعطي إيضاحاً فهمهمت مستطرداً:

- "إنها تشبه أمي."

- "آها، معنى ذلك أن هذا هو سبب مشاهدتك لها بالساعات!"

- "نعم!"

- "هل أمك متوفية؟"

- "لا!"

انتظرت وكأنها تريدني أن أكمل كلامـــي. أكملت مطأطئاً من دون أن أحرك رأسي:

- "تعيش في مكانٍ بعيد.".

- "صحيح؟..أين؟"

- "في تركيا!"

- "أنت تركي؟"

- "نعم!"

- "خمنت كونك أجنبياً!"

أطلقَت ضحكـــةً خفيفة، وبراحةٍ ومن دون كلَفةٍ جلســـت بجانبي. عندما وضعت ســـاقاً على ســـاق ارتفعت تنورتها إلى مافوق الركبة فشعرت بالنار تشعل وجهي كالعادة. كان يبدو أن حالي هذا مسلٍّ بالنسبة لها. سألَت مجدداً:

- "أليس لديك صورة لأمك؟"

كان يزعجني فضول هذه المرأة الزائـد. أدركت أنها كانت تفعل ذلك للتسلية فقط ليس إلا. والرسامون الآخرون ينظرون إلينا ويتضاحكون بالتأكيد.

- "عندي ولكن.. هذه مختلفة!"

- "صحيح؟ يعني هذا أنها مختلفة!"

وأطلقت ضحكةً صغيرة أخرى على الفور.

تحركت كأني أريد الخروج والهرب. لاحَظت المرأة ذلك وقالت:

- "لاتنزعج، أنا ذاهبة. سأتركك مع والدتك وحدكم."

نهضت ومشت عدة خطوات ثم توقفت فجأة وعادت إلى جانبي، هذه المرة قالت بنبرة مختلفة وجدية، بل وحزينة:

- "هل تريد أمّاً مثلها حقاً؟"

- "نعم.. وبشدة!"

- "حقا؟"

أدارت ظهرها ومضت بخطوات شـابةٍ وسريعة. رفعت رأسي أخيراً ونظرت. كان شـعرها القصير يتماوج على عنقها، ولأنها تضع يديها في جيوب تيورها الضيّق أساساً، أصبح ملتصقاً بجسدها أكثر.

عندما استوعبت أني قد كذبت عليها في آخر جملةٍ قلتها لها، وقعت في ذهولٍ شـديد، ونهضت لحظتها من مكاني من دون حتى أن أجرؤ على أن ألتفت حولي وفررت خارجاً. كان يتنامى في داخلي شـعور إنسـان

اضطر لتوديع وفراق شـخص تعرّف عليه وألفه في إحدى رحلات السفر. أدركت بأني لن أستطيع أن أخطو بقدمي داخل المعرض مجدداً. فالناس، الناس الذين لايفهمون أو يتفهمون بعضهم، نفّروني من هذا المكان أيضاً.

بمجـرد عـودتي للمهجع، وبعدما خطـر على بالي أن أيامي السـابقة الفارغة سـتعود من جديد، وأنني سـأعود لسـماع خطط إنقاذ ألمانيا وتذمر أصحاب الطبقة المتوسطة الذين خسروا ثروتهم بسبب التضخم على مائـدة الطعام، وبأنني سـأعود أغلق على نفـسي غرفتي وأقضي وقتي مع حكايات تورجينيف أو ثيودور ستورم، أدركت حينها معنى فقدان حياتي للمعنى الذي اكتَسَبَته في خلال هذين الأسبوعين. فرصةٌ واحدة، فرصـة لم يكن بإمكاني تخيل تحققها حتـى، جاءت إلى عمري أنا الذي يضيـع ويمضي هدراً. ثم فجأة ومن دون سـابق انذار، وكما جاءت بغتةً من قبل، انسـحبت واختفت من دون أي سبب. لم أبدأ في استيعاب ذلك إلا الآن. مذ عرفت نفسي، وأنا أقضي أيام عمري ،دون أن أدرك أو أعترف لنفسي، بحثاً عن شخص بعينه، ولذلك كنت أهرب من الناس الآخرين. تلك اللوحـة جعلتني أؤمن - ولو لمدة قصيرة - بإمكانية عثوري على ذلك الإنسـان، وبأنني قريب منه جداً، وأيقظت في داخلي أملاً لا يُمكن إخماده. لهذا السـبب أصبحت خيبة أملي في هذه المرة كبيرة. هربت مما حولي أكثر، وتواريت داخل نفسي بشكلٍ أعمق. فكرت بالكتابـة إلى أبي عن نيتي في العـودة إلى تركيا، لكن بماذا كنت

سأجيبه لو سألني: "ماذا تعلمت في أوروبا؟". فقررت المكوث لعدة أشهرٍ أتعلم خلالها حرفة "صابون المسك" إلى الدرجة التي ترضيه وتسعده. تقدمت لنفس الشركة السويدية من جديد، ورغم استقبالهم البارد نوعاً ما لي إلا أنني باشرت في الانتظام بالعمل. بدأت بتدوين صيغ وأصول صناعة الصابون التي كنت أتعلمها في دفترٍ باعتناء كبير، ولم أنس قراءة الكتب المتخصصة في هذا المجال أيضاً.

ازدادت صداقة زميلة المهجع الهولندية فراو تيدمان معي أكثر في الفترة التي تلت. ففي أنصاف الليالي، كانت تناولني إحدى روايات الأطفال التي اشترتها لابنها ذي العشر سنوات لأقرأها لها وتسألني عن رأيي بها. وفي بعض الأماسي كانت تأتي إلى غرفتي بعد العشاء تحت حججٍ واهيةٍ وتجلس مثرثرة لبعض الوقت. في أكثر الأحيان كانت تحاول معرفة نوع المغامرات التي خضتها مع الفتيات الألمانيات، وعندما كنت أخبرها بالحقيقة كانت تقابلني بنظرةٍ وابتسامةٍ خبيثتين، ملوحة لي بسبابتها في الهواء وكأنها تقول لي: "يالك من قوادٍ لعوب!". عرضت عليّ في يوم من الأيام أن أخرج معها لنتمشى سوية، وفي المساء وبينما نحن عائدون أصرت على ذهابي معها إلى الحانة. شربنا إلى وقت متأخرٍ من دون أن نلاحظ الوقت.

منذ قدومي إلى هنا كنت أشرب الجعة بين حين وآخر، لكنني لم أشرب بهذا القدر أبداً من قبل. أذكر أنه عندما بدأ المكان بكامله يدور حولي لم أتمالك نفسي وسقطت مترنحاً على حضن فراو تيدمان. بعد مرور مدةٍ لا أعلمها وعندما عاد إلي بعض الوعي استيقظت بفضل المنديل المبلل

الذي كانت تمسح به الأرملة الهولندية طيبة القلب وجهي.

"لنعد إلى البيت حالاً."، قلت، وأصرّت المرأة على دفع الحساب. وعندما خرجنا لاحظت بأنها أصبحت أكثر قرباً وحميمية معي. كنا نمشي متشابكي الذراعين ومصطدمين بمن حولنا في الطريق. لم تكن الطرق مزدحمةً بما أن نصف الليل قد اقترب. في مكاننا وبينما نحن نعبر الطريق إلى الجهة الأخرى حصلت حادثةٌ غريبة: لحظة وصولنا للرصيف المقابل علق حذاء فراو تيدمان في حافته؛ عندما حاولت المرأة البدينة قليلاً التمسك بي لتفادي السقوط، وبسبب أنها أطول مني غالباً، تعلّقت برقبتي. لكنها هذه المرة لم تتركني حتى بعد استعادتها لتوازنها، كانت تجذبني بشدة بين ذراعيها. لا أدري أكان ذلك من تأثير السُكر أم ماذا، نسيت خجلي وحضنتها بشدة. وفجأة أحسست بشفاه هذه المرأة الثلاثينية في وجهي. مع أنفاسها الدافئة، نشرت هذه المودَّة الفياضة شيئاً يشبه الرائحة القوية والجميلة في داخلي. كان المارّون من جانبنا يبتسمون كأنهم يتمنون لنا السعادة. في هذه الأثناء، وقعت عيني على امرأة تحت عمود إنارةٍ على بعد خمسة عشرة خطوةٍ ومتقدمةً باتجاهنا. شعرت بجسمي كله بدأ يرتعش بشكلٍ ودرجةٍ لاتوصف. عندما لاحظت المرأة التي كانت مازالت متعلقة بي ذلك تهيجت أكثر وأغرقت رأسي بالقبلات. لكني في تلك اللحظة كنت أحاول الفكاك منها والنظر إلى المرأة المقتربة نحونا. كانت هي. الوجه الذي لمحته للحظة، أشعل شيئاً كشرارة في عقلي المغيّب. هذه، داخل معطف فرو

السنّور البري، بوجهها الشاحب، وعيناها السوداوان وأنفها الحاد، هي نفسـها التي رأيتها في لوحة المعرض، (مادونا صاحبة معيطف الفرو). بتعابـير وجهها الدالة على الحزن والملل، كانـت تمشي كأنها غير واعيةٍ بـما حولها. عندما رأتنا تعجّبَت لثانيةٍ وتلاقت نظراتنا في نفس اللحظة. لمحت في عينيها شبح ما يشبه الابتسامة. فانتفضْت وكأني تلقيت ضربة سـوط على رقبتي. ورغم ثمالتي إلا أني كنت أعي تماماً معنى فاجعة أن تكون هذه هي المرة الأولى التي تصادفني فيها، وبالتالي تحكم عليّ منها. نفذت بنفسي من بين ذراعي السـيدة الكبـيرة، وركضت فورا للحاق بـ(مادونا صاحبة معطف الفرو). ركضت إلى رأس زاوية الشـارع من دون أن أعرف ماذا سأفعل أو أقول لها. لقد اختفت من الوجود. بحثت عنها في نواحـي المنطقة لدقائق، لكن لم يكن هناك أحد. لحقت بي فراو تيدمان مجدداً وسـألتني: "ماذا أصابك؟ أخـبرني، ماذا حدث لك؟". سـاقتني إلى المهجع وهي تشـبك يدها في ذراعي. كانت تضغط بيدي على جسـدها وتميل على وجهي ونحن نمـشي في الطريق. في هذه المرة أحسست بأنفاسـها الحارة ثقيلةً لدرجة لا تحتمل، لكني ورغم ذلك لم أكن أقاوم. لم أعتد في حياتي على مقاومة أي أحد. كل ما كان بيدي فعله هو الهرب. لكنني لا أستطيع فعل ذلك الآن. كانت المرأة تمسك بي قبل أن أسـتطيع الإبتعاد لثلاث خطوات. زيادة على ذلك، كانت الصدفة التي حصلت قد تركتني مذهولاً. بدأت مع انجلاء السـكر عن عقلي أحاول التفكير بشـكل مترابطٍ وأسـتذكر عينيها اللتين نظرتا إلى عينيّ

وابتسمتا قبل دقائق قليلة. لكن كل ذلك أصبح الآن يبدو لي كخيال. لا، لم أرها. لا يمكن أن أكون قابلتها على وضعي هذا. كل هذا كان كابوساً صنعه احتضان وتقبيل المرأة التي بجانبي لي وأنفاسها التي كانت تلفح وجهي. أردت الذهاب إلى غرفتي والتمدد على سريري والنوم متخلصاً من كل هذه الأوهام السخيفة، لكن لم يبدو أن في نية المرأة أن تتركني أبداً. مع اقترابنا إلى المهجع كانت تصرفاتها تهتاج أكثر، وذراعاها تتشبثان بي بحرصٍ أكبر.

وبينما نحن نصعد الدرَج ارتمت على عنقي من جديد، فاستخلصت نفسي منها بحركةٍ رشيقةٍ وهربت صاعداً. ركضت خلفي بأنفاس متلاحقة مزلزلةً الدرجات بجسمها الممتلئ. وبينما كنت أدخل المفتاح في قفل الباب ظهر تاجر المستعمرة هير دوبكه في الردهة. كان يمشي ببطءٍ شديد. ونظراً لأنه لم ينم حتى هذه الساعة، فهمت بأنه كان ينتظرنا فتنفست الصعداء، كان كل نزلاء المهجع يعرفون أن هير دوبكه شديد الثراء، كان يغذّي الأرملة التي كانت في ذروة إشتعالها على آمالٍ وأحلامٍ لذيذة. حتى أنه كان يقول لي بأنها لم تستهجن ما يكنه لها من حميم المشاعر، وبأنه مازال يتمتع بعافيته رغم تجاوزه سن الخمسين، حكى لي عن نواياه بخصوص ربط هذه المرأة به بأربطةٍ ناعمة. وكصديقين قابلا بعضهما في الردهة، توقفا متحدثين لبعض الوقت. فدخلت لغرفتي وأقفلتها من الداخل في الحال. كانت هناك محادثة تدور في الخارج، واستمرت لمدة طويلة عن طريق التهامس. يُفهم منها أن الأجوبة على

الأسـئلة التي كانت تُسـأل كان لها تأثير مطمئن على أذن السائل الذي كان مسـتعداً لتصديق أي شيء من دون شك. بعد قليل بدأ تهامسهم يبتعد مع صوت وقع أقدامهم إلى طرف الردهة، ثم اختفى.

اسـتغرقت في النوم بمجرد اسـتلقائي في السرير رأيت أحلاماً مقلقة حتى حلول الصبـاح. كانت مادونا صاحبة معطف الفرو تظهر أمامي بأشكالٍ عديدة. ترعبني بابتسامتها العجيبة والساحقة تلك. أردت أن أكلمها، أن أخبرها بأشـياء، أن أوضح لها، ولكننـي لم أفلح في ذلك. كانت تعابير عينيها السوداوين الحادة تجمّد حنكي عن الكلام. وعندما كنت أرى نفسي كمحكومٍ عليه، وأرى عدم استعدادها لتغيير حكمها، أرتعد وأقع في قنوطٍ شـديد. اسـتيقظت قبل انبلاج الصبح، وانتابني صداع بمجرد اسـتيقاظي. أشـعلت المصباح وحاولـت قراءة بعض الأشياء. كانت السطور تمحي من أمام عينيّ، وتظهر من بين الغبش في وسط الصفحات البيضاء عينان سـوداوان ساخرتان، كانتا تضحكان بصمتٍ على بؤسي. لم أسـتطع تهدئـة نفسي رغم علمي بـأن مارأيته البارحة كان محض خيالٍ فقط. ارتديت ملابسي وخرجت. كان صباحاً بارداً ورطباً من صباحات برلين. لم يكن في الشـوارع أحد عدا أطفالٍ يجرّون عرباتهم اليدوية لبيع الحليب والزبدة والخبز للمنازل. وفي طرف الشارع رجال شرطةٍ يحاولون تمزيق بياناتٍ ومنشوراتٍ ألصقها بعض المتمردين. مشـيت بمحاذاة ضفة النهر حتى تيغرتان. على سطح المياه الســاكنة إوزّتان تطفوان من دون أي حركةٍ وكأنهما دميتان. العشـب

ومقاعد الحديقة مبتلةٌ بالندى. على الأرض كانت هناك صحيفة مجعدة وشبه ممزقةٍ ودبوس شعر. عندما رأيتها تذكرت حالي ليلة البارحة. على الأرجح أن فراو تيدمان أوقعت الكثير من دبابيس الشعر في الحانة والشوارع، والآن يحتمل أنها تغط في نوم عميق بجانب هير دوبكه، وربما تفكر بأن لاضرورة لاستيقاظها مبكراً وعودتها إلى غرفتها قبل استيقاظ الخدم.

ذهبت للمصنع أبكر من العادة وحيّيت البواب من قلبي. عزمت على التخلص من أوهامي عن طريق الانشغال والانهماك حتى رأسي في مشاكل العمل، وبجانب مرْجل الصابونِ الذي تفوح منه رائحة الورد دوّنت في دفتري ملاحظاتٍ طويلة. سجلت حتى أي نوع من الشركات صنعت المكابس التي نستخدمها للوسم على الصابون. كنت أتخيل نفسي مديراً لمصنع الصابون الكبير الذي سأسسه في تركيا، و أتخيل صابوني الوردي والبيضاوي الشكل مختوماً بشعار «محمد رائف -هاوران»، مغلفاً بأوراق تعبق برائحةٍ جميلةٍ وهو ينتشر ويشتهر في كل أرجاء تركيا. لاحظت بحلول الظهر أن همي وقلقي بدآ بالتلاشي، وأني بدأت أرى الحياة بلونٍ وردي. عرفت لأي قدرٍ كنت أكدر على نفسي بأمورٍ تافهة، وألقيت باللوم كله على كوني شخصاً حالماً واهماً منغلق على نفسي أنسج الخيالات. لكنني سأتغير اليوم، سأقلل من قراءة الكتب التي لا تتعلق بمهنتي. مالذي ينقص ابن أشرافٍ مثلي كي يكون سعيداً؟

في هاوران كانت تنتظرني مزارع زيتون أبي، ومصنعين ومتجر صابون.

بأخذي لحصص أخواتي الكبار المتزوجات من أغنياء، سأعيش كأحد تجار تركيا المعتبرين. دُحر الأعداء من الوطن، وحَرر الجيش الوطني هاوران[1]. كان أبي في رسائله مسروراً محتفلًا، مسطراً إياها بجملٍ تعبر عن حب الوطن. وحتى نحن هنا، تجمعنا في السفارة التركية وذقنا شيئاً من طعم الانتصار. بين حينٍ وآخر كنت أخرج عن صمتي المعتاد وأشارك مع هير دوبكه وأصدقائه الضباط بأرائي في مواضيع إنقاذ ألمانيا وثورة الأناضول[2] استناداً على ما لدي من معلومات. في تلك الأجواء لم يكن هناك ماينغص عليّ. ما الدور الذي ستلعبه صورةٌ لا معنى لها -أو حتى ذات معنى، مهما يكن- منبثقةٌ عن روايةٍ من نسج الخيال في حياتي. لا، من اليوم فصاعداً سأتغير تماماً.

إلا أنه رغم كل هذا كان وبمجرد انتشار الظلام وحلول المساء جثم على صدري غمٌّ لا سبب له. وكي لا أواجه فراو تيدمان على سفرة الطعام قررت أن أتناول طعامي في الخارج، وشربت كأسين من الجعة. لكن على الرغم من كل محاولاتي إلا أني لم أستطع استعادة روح التفاؤل التي كانت تغمرني في النهار. كأنما كان هناك في زوايا قلبي المخفية شيء مضغوطٌ يُسحق. حاسبت عن عشائي بسرعةٍ لأخرج وأتمشى في الهواء الطلق، راجياً أن يتحسن مزاجي. في الخارج كانت قد بدأت ذرات المطر بالتساقط بينما كانت السماء مكفهرّة. كان بالإمكان مشاهدة

(1) حررها الجيش الوطني بقيادة مصطفى كمال أتاتورك بعد أن احتلها اليونانيون لثلاثة سنوات.

(2) الثورة التي انطلقت بقيادة أتاتورك من الأناضول ضد الاحتلال.

انعكاس أضواء المدينة الحمراء الكثيفة على السحاب المنخفض المار من فوق تلّتنا. جاء بي المسير إلى جادّة كورفورستاندام الرحبة والطويلة. هنا كانت السماء تأخذ وضعاً مشعّاً، وكانت حبات المطر الذي يهطل من ارتفاع مئات الأمتار تأخذ لوناً برتقالياً. وجدت أن الكازينوهات والمسارح وصالات السينما التي تقع على جوانب الطريق مقفلة. وعلى الأرصفة أناسٌ يتجولون دون أن يخرب المطر نسقهم. كنت أمشي الهوينا مفكراً بأشياء كثيرة لاعلاقة لها ببعضها. وكأنني بذلك أحاول إبعاد فكرة مصرّةٍ على الظهور. كنت أقرأ كل اللافتات واليافطات وأدقق في الإعلانات الضوئية. قطعت الجادة الممتدة لعدة كيلومترات أكثر من مرة ذهاباً وإياباً. ثم منحنياً إلى اليمين، مشيت باتجاه ميدان ويتينبيرغ. هنا وعلى الأرصفة المواجهة لسوق كبير يدعى «كا-دا-وي» يتجول شبّانٌ مرتدين أحذيةً حمراء وصابغين وجوههم كالنساء، ينظرون إلى الذاهب والقادم من المارة بنظراتٍ غاوية.

أخرجت ساعتي، كانت تتجاوز الحادية عشرة. معنى هذا أن الوقت تأخر. بدأت خطواتي بالتسارع فجأةً، سلكت طريق ميدان نوليندورف القريب. هذه المرة كنت أعرف وجهتي جيداً. هناك وفي نفس هذا الوقت من ليلة البارحة صادفت (مادونا صاحبة معطف الفرو). كان الميدان خالياً، وفي طرفه الجنوبي ومقابل بناء المسرح كان يتجول أحد أفراد الشرطة. دخلت إلى الشارع المواجه له وجئت إلى المكان الذي توقفنا به أنا وفراو تيدمان ونحن ثملين. ثبتت عيني أسفل عمود

الإنارة وكأن الشخص الذي أبحث عنه سيظهر إلى الوجود فجأة. رغم كل إقناعي وتلقيني لنفسي بأنه مارأيتــه كان مجرد وهمٍ إلا أنني ها هنا الآن، أنتظر هذه المرأة، أو هذا الخيال. منذ الصباح كانَ النسيم يهفهف مقابل البناء الذي كنت عنده. مجدداً، أصبحت كما كنت في السابق، لعبةً بيد خيالاتي البعيدة عن الدنيا وعالمي الداخلي.

في هذه الأثناء تماماً، ظهر شخصٌ يمشي من منتصف الميدان ماراً باتجاه الشـــارع الذي كنت أقف فيــه. اختبأت عند أحد أبــواب الأبنية التي كانت هناك وانتظرت. وعندما مددت رأسي خارجاً ونظرت، تعرفت على (مادونا صاحبــة معطف الفرو) من خطواتهــا القصيرة والحادة. لايمكن أن أُخطئ هذه المرة. لم أكن ســكراناً. في هذا الشـــارع الخالي، كانــت أصداء صوت كعب حذائها تــتردد مصطدمة بجدران البيوت على جانبي الطريق. بــدأ قلبي يؤلمني وكأنه يتفتــت وازدادت نبضاته بالخفقان بسرعة عجيبــة. كان وقع أقدامها يقترب أكثر. أدرت ظهري إلى الشـــارع وانحنيت على الباب متظاهراً بأني أحاول فتحه للدخول. وعندما وصلت خطواتها إلى خلفي مباشرة، ضبطت نفسي بجهدٍ كبير كي لا أصرخ وتشبثت بالجدار خشــية السقوط. تابعت المرأة طريقها، خرجت من مخبئي وبدأت بتعقبهــا خوفاً من أن تفلت عن ناظري من جديد. لم أرَ وجهها، ورغم كل خــوفي ورهبتي من مواجهتها إلا أنني أمشي الآن خلفها على بعد خمســة أو ست خطوات. لم يكن يبدو عليها أنها لاحظت ذلك. لماذا أتيت إلى هنا وانتظرتها إذا كنت سأختبئ متوارياً

عنها؟ ولأي هدفٍ أمشي خلفهـــا الآن؟ هل هذه هي يا ترى؟ من أين حكمْت بوجوب مرورها من نفس الشارع وفي نفس الوقت من الليلة التالية؟ لم أكن في وضعٍ يسمح لي بالجواب على كل تلك الأسئلة. كنت أمشي خلفها بخفقـــانٍ لا يخفّ وانفعال وهيجانٍ يتضاعفان كلما فكرت في احتمال أن تقف وتلتفـــت خلفها فتراني. كنت أمشي متعقباً أصوات خطواتها، مطأطئ الرأس ومن دون أن أنظر إلى أي شيء غير الرصيف. توقـــف الصوت فجأة. بقيت مكاني وإنتظـــرت حانياً رأسي كمحكوم بالإعدام. لم يدنُ مني أحد، لم يســـألني أحد: «لماذا تتعقبني؟». لم ألحظ أنني كنت في القسم المضيء من نفس الجادة إلا بعد عدة ثوان.

رفعت نظـــراتي ببطء، لم يكن هناك امـــرأةٌ أو أي أحد. وعلى بعد بضع خطواتٍ كان هناك نادٍ ليلي مشـــهور جداً، بابـــه مضاءٌ بأنوار كهربائية. وعلى لوحته الكبيرة مكتوب كلمـــة «أتلاتنيك» وهي تومض وتنطفئ بالمصابيح الزرقاء، وتحتها بالأنوار أيضاً أشـــكالٌ تشـــبه أمواج البحر. دعاني الرجل الطويل الواقف على الباب والمرتدي لباساً منمقاً وملوناً، ومعتمراً طاقية حمراء منحنياً للدخول إلى النادي. اســـتنتجت بأن المرأة قد دخلت إلى هنا فدخلت بلا تردد:

- "هل دخلت المرأة صاحبة معطف الفرو والتي كانت تمشي أمامي قبل قليل إلى هنا؟"، سألته.

قال البواب منحنيا من جديد:

- "نعم!"

كانت في وجهه ابتسامةٌ ذات معنىً عميق. خطر فجأةً بعقلي احتمال أن تكون أحد زبائن هذا المكان الدائمين، مجيئها إلى هنا كل ليلةٍ وفي نفس الساعة يُظهر ذلك. خلعت معطفي وأنا آخذ نفساً عميقاً ومستريحاً، وولجت إلى القاعة.

كان النادي مزدحماً. ساحة الرقص منخفضةٌ تتوسط المكان، وفي مقابلها فرقة أوركسترا، وفي زوايا القاعة مقصورات مغلقة. كانت ستائر أكثر من نصف تلك المقصورات مسدلة؛ وكان الأزواج بداخلها يخرجون ليرقصون قليلاً بين فينةٍ وأخرى، ثم يعودون لمقصوراتهم مسدلين الستائر خلفهم. ذهبت إلى واحدةٍ يبدو أنها لم تكن محجوزة وجلست فيها. طلبت بيرة. ولّى خفقاني بلا رجعة. تفحصت المكان حولي بنظراتٍ غير متعجلة. تمنيت أن أجدها، صاحبة معطف الفرو، سارقة أحلامي منذ أسابيع، على أحد الطاولات بجانب عربيدٍ شاب أو مسن، فتُثبت لي بذلك عدم صحة تلك الأهمية والمعاني العميقة والاستنتاجات المبالغة التي صبغتها بها، فأخلّص نفسي بذلك من أوهامي الفارغة. لم تكن على إحدى الطاولات المحاذية لساحة الرقص. على الأغلب أنها بداخل إحدى المقصورات. شعرت بنفسي أضحك بألم. أحنق على نفسي لإصراري على النظر إلى الناس بغير ماهم عليه في الحقيقة. أصبح عمري أربعٌ وعشرون سنة، لكنني لم أتخلص من سذاجة طفولتي بعد. لوحةٌ بسيطة، بل وربما ليست جميلةً أبداً، كم تركت فيّ من انطباعات، وكم ولّدت من آمال. ذلك الوجه الشاحب، أعطيته معانٍ وتفسيراتٍ تملأ كتباً، ووجدت لها أوصافاً

غير موجودةٍ في الحقيقة أصلاً. بينما هي في الواقع ليست سوى إحدى أولئك النسوة الشابات، اللاهثات وراء المتعة في مثل هذه الأماكن. على الأغلب أيضاً أن معطف فرو السنّور البري الذي كنت أشاهده بكل إجلالٍ، كان من ثمن خدماتها التي تقدمها هنا.

قررت متابعة المقصورات المسدولة الستائر بالتتالي لأعرف من بداخلها. بعد مرور نصف ساعة، ميّزت كلّ الأزواج الملتهبين الذي كانوا في المقصورات المستترة. تأكدت من أن مادونا صاحبة معطف الفرو لم تكن في إحداها. في كل مرةٍ كانت ترفع ستائر إحداها، كنت أستميت للنظر داخلها بشكلٍ يثير الانتباه. لم تكن هناك مقصورة لا يخرج من فيها للرقص. وقعت في حيرةٍ محزنة مرة أخرى. يا ترى هل تهيّأ لي أني رأيتها هذه المرة أيضاً؟ فليست هي المرأة الوحيدة التي ترتدي معطف فروٍ في برلين. لم أر وجهها حتى. هل كان بإمكاني أن أميز امرأةً نظرت إليّ البارحة بابتسامةٍ ساخرةٍ وأنا سكرانٌ من مشيتها فقط؟ لنرَ، هل كانت هي التي رأيتها بالأمس فعلاً؟ أم كانت كل تأويلاتي وتفسيراتي منذ الصباح عبارةً عن وهمٍ وخيال؟ بدأت بالخوف من نفسي. ما الذي يحصل لي؟ الوقوع تحت تأثير شديد للوحةٍ ما... ثم الظن بأنني سأقابل تلك المرأة التي في اللوحة، ثم تتبّع امرأةٍ عشوائية ظاناً بأني قد تعرفت عليها من معطفها الفروي ووقع أقدامها.. لم يكن أمامي خيارٌ غير الخروج فوراً ومحاولة السيطرة على نفسي في المرات القادمة.

أظلمَت القاعةُ فجأة. وُسلّط ضوء خفيف على الأوركسترا. أُخليت

ساحة الرقص من الراقصين. وبدأت موسيقى ثقيلةٌ بالعزف بعد زمن بسيط. ومن بين أنغام عزف آلات البزق[1] برز صوتٌ خفيفٌ لعزف كمان. كان الصوت يقترب شيئاً فشيئاً. استمرت المرأة المرتدية لفستانٍ يبرز مفاتنها كثيراً بالعزف وهي تنزل، وبدأت وبطبقةٍ خفيفةٍ وقريبةٍ لصوتٍ ذكوري بغناء إحدى الأغاني المشهورة في ذلك الوقت. كان الضوء يرسم دائرة بيضاوية على مكان المغنية.

عرفتها على الفور. كل ترددات وآلاف تخميناتي طارت مختفية. وتلوّى صدري من جديد. أحزنني جداً كونها مجبورةٌ في عملها هذا على توزيع الابتسامات الكاذبة في كل الجهات والتصرف بغنج ودلالٍ مع الزبائن. كان بإمكاني أن أتصور المرأة التي كانت في اللوحة في كل الوضعيات، حتى وهي تنتقل من حضن إلى آخر. لكن لم يخطر على بالي أني سأراها على هذا الوضع أبداً. في حالها هذا بؤسٌ صريحٌ لا يمكن مقارنته بحالها الذي رسمته في مخيلتي مغرورة مستغنية وذات إرادة قوية. فكرت في نفسي «لو أراها تفعل ماتوقعت أنها تفعله هنا أنفاَ، تشرب وتسكر مع الرجال، تراقصهم وتتبادل معهم القبل لكان أفضل لي. لأنها ومهما كانت ما تفعله، فهي ستفعله باختيارها. ستفعله ساهية وتاركةً لنفسها الحبل على الغارب. لكن ما تفعله الآن ليس ما كانت تريد فعله أبداً. لم يكن عزفها على الكمان مميزاً. صوتها هو الشيء الوحيد الذي كان جميلاً، بل مؤثراً إذا صح التعبير. تغني أغانٍ مرتعدة بالشكوى وكأنها

(1) آلة موسيقية شرقية تشبه العود - المترجم.

تنســكب من فمِ طفل ثمل. تقف وعلى وجهها ابتسامةٌ معوجّة؛ كانت كمــن ينتظر أي فرصة صغــيرةً لكي يختفي من الوجــود. حين كانت تقترب منحنية من أحد طاولات الزبائن، وبعد أن تعزف له عدة نغمات مبهمــة، كان وجهها يأخذ طابع الجدية ريثما تنتقل للطاولة التالية. كان نفس التعبير الذي رأيته في اللوحة بتماماً. لم أرَ في هذه الدنيا شــيئاً أكثر إيلاماً من محاولة شــخصٍ حزين أن يضحك ويتصنّع السعادة. نهض أحد الســكارى من إحدى الطــاولات التي كانت قريبــةً منها بهدوءٍ وقبّلها بغتةً على ظهرها العــاري. إرتعدت المرأة وإنقبض وجهها كأنما لدغها ثعبان، لكن ردة الفعل تلك لم تســتمر لأكثر مــن ثانية. بعدها إعتدلت واقفةً ومبتسمة تنظر إلى الرجل وكأنها تقول له: «ياه، ما أجمل مــا فعلت!»، وبجانبها رجل يظهر عليه أنه غضب من ردة فعلها تلك. رأيت المــرأة التي كانت تجالس الرجل عــلى الطاولة تلتفت إليها وتهز رأسها لها، وكأنها تقول:»تصرفي بشــكلٍ حسن، فالرجال أحرار في أن يفعلوا بنا مثل هذه الأشياء!».

كان يُســمع تصفيــق متقطع بعد كل أغنيــة، ثم تومئ المرأة برأســها للأوركســترا ليعزفوا أغنية أخرى. ثم تبدأ بغنــاء أغنية أخرى بنفس الصوت الحي والمليء بالشكوى، تدنو بساقيها المتواريتان خلف تنورتها البيضاء على الأرضية الخشــبية، مقتربةً من طاولــة ومنتقلة إلى أخرى وهي تعزف على رؤوس الأزواج الثملين الحاضنين لبعضهم، أو مقابل ســتائر المقصورات التي لا يُعرف مايحدث بداخلها، مميلةً رأســها على

الكمان ومداعبةً أوتاره بأصابعها الغير محترفة.

عندما رأيتها تقترب من طاولتي وقعت في اضطراب شـــديد. لم أعرف كيف ســـأنظر لها أو ماذا سأفعل. ثم ســـخرت من حالي هذا. فهل من الممكن لها أن تتعرف على رجلٍ لمحته البارحة في طريق مظلم؟ ماذا من الممكن أن أكون بالنســـبة لها غير أحد الشـــبان القادمين إلى هنا للمتعة وإيجاد رفيقـــةٍ لتلهو معهم؟ رغـــم هذا حنيـــت رأسي. رأيت أطراف تنورتهـــا المغبرة بفعل احتكاكها بالأرضية ومـــن تحتها حذائها الأبيض بمقدمتـــه البارزة إلى الأمـــام. لم تكن ترتدي جوربـــاً. ورغم الإضاءة الباهتة، إلا أنني اســـتطعت رؤية بقعةٍ وردية كانت تبرز على جلد أحد أصابـــع قدمها. عندما وصلت عينيّ إلى هنا شـــعرت بي وكأنني رأيتها عاريةً تماماً فرفعتهما وأنا أرتعد وأشـــعر بالخزي. كانت تُمعن فيّ النظر. لم تكن تغنّي، بل تعزف الكمان فقط. اختفت من على وجهها الابتسامة المصطنعـــة، وعندما إلتقت عينانا حيّتني بـــود. نعم، من دون مبالغةٍ أو ابتسامةٍ فاترة، حيّتني وكأنني صديقٌ قديم. فعلت ذلك وهي تومئ إليّ مغمضةً وفاتحة عيناها لمرةٍ واحدة فقط، لكن بشـــكلٍ صريحٍ لا يمكن معه أن أكون مخطئاً. ثم ضَحكَت، وكأنها تضحك لصديقٍ قديم. بعد أن عزفت لمدة، وبعد أن حيتني برأسها وعينيها، انتقلت لطاولاتٍ أخرى. انتابتنـــي رغبةٌ عجيبةٌ بأن أقفز من مـــكاني وأعانقها وأقوم بتقبيلها وأنا أبكـــي. لا أذكر أني كنت في حياتي كلها ســـعيداً ومنشرح الصدر كما أنا اليوم. هل من الممكن لإنســـان أن يكون سبباً في سعادة إنسان آخر إلى

هذا القدر ومن دون حتى أن يفعل شيئاً يُذكر؟ تحيةٌ ود وضحكةٌ نقية.. لا أريد شيئاً آخر في هذه اللحظة. كنت أغنى رجال العالم. تابعتها بعينيّ مردداً في نفسي: «شكراً لكِ.. شكراً لكِ!» ومسروراً لأن ظنوني في معرض اللوحات لم تخب. كانت كما تصورتها تماماً. لو لم تكن كذلك هل كانت لِتنظر إليّ وكأنها تعرفني؟ وتحيّيني؟

بعد لحظاتٍ باغت قلبي شكٌّ كماء رُشّ على نار. يا ترى هل شبّهتني بأحدٍ تعرفه، قلت في نفسي. أم يا تُرى هل كان وجهي مألوفاً لها لأنها رأتني في الشارع ذلك اليوم، ولكنها لم تستطع تذكر أين ومتى رأتني، فارتأت أن من الأفضل أن تسلم عليّ احتياطاً؟ لم يبد على وجهها أدنى ترددٍ أو حيرة، أو أي شيءٍ يدل على أنها كانت تحاول مراجعة ذاكرتها لتتذكر. نَظَرت إلى عينيّ بأمانٍ ثم ضَحِكَت. ليكن ما يكن، فإظهارها لهذا التودد والقرب إليّ كان كافياً لجعلي أسعد إنسان في الدنيا. كنت جالساً على طاولتي بابتسامةٍ وبهجةِ الناس الراضين عن حياتهم، أنظر إلى المرأة التي ذهبت إلى الطرف الآخر من القاعة. خصلات شعرها الكستنائي، المتموجة والقصيرة كانت تنسدل على كتفيها. وعندما تحرك ذراعيها العاريتين كان قدّها يتثنى بخفةٍ يميناً وشمالاً، وتتحرك عضلات ظهرها قليلاً.

بعد أن أنهت آخر أغنيةٍ مشت بخطوات متعجلة إلى خلف الأوركسترا واختفت، ومن ثم أُشعلت الأضواء من جديد. في نشوة سعادتي الغامرة، جلست لبعض الوقت من دون أن أفكر في شيء. ثم سألت

نفســي «ماذا عليّ أن أفعــل الآن؟». هل أخرج وأنتظــر خروجها عند الباب؟ ولأي مقصد؟ رغم أني لا أســتطيع حتى أن أقول لها كلمتين، فماذا لو أني انتظرتها وسألتها عندما تخرج: «هل تسمحين لي أن أرافقك إلى منزلك؟»، ماذا كانت ســتظن بي؟ هل أقابل إظهار توددها وطيبتها لي بتصرفي هكذا، كزير نساءٍ محترف؟

قررت بأنّ أكثر تصرف لبق أفعله هو أن أعود إلى بيتي، وفي مســاء الغد أجيء إلى هنا مجدداً. وشيئاً فشــيئاً سأطور علاقتي بها أكثر. يكفي هذا القدر لليلةٍ واحدة. فأنا ومنذ طفولتي كنت أخاف دائماً من الإسراف في السعادة، آملاً أن أخبئ بعضاً منها لأوقات أخرى. وقد كان ذلك سبب تفويتي لكثير من الفرص، لكني كنت أتردد دائماً من طلب المزيد، خوفا من أن أُنفّر حظي.

نظرت حولي باحثاً عن النادل فوقعت عيني على المرأة القادمة من خلف الأوركســترا باتجاه القاعة. لم يكن بيدها كمانٌ هــذه المرة. تمشي بعجلةٍ واضحة. وعندما رأيتها تدنو باتجاه المنطقة التي كنت أجلس فيها تلفتُّ حولي. كانت قادمة إلي، إلى طاولتي. تبتسم بمودةٍ وصدقٍ كما فعلت من قبل. توقفت أمامي ومدت يدها:

- "كيف حالك؟" سألتني.

بالكاد تخلصت من بعض ذهولي في تلك اللحظة ونهضت مصافحاً إياها.

- " شكراً.. أنا بخير!"

جلسَــت على كرسيٍّ مقابل لي. هزت رأســها بخفة لإبعاد الشعر الذي

كان يغطي وجنتيها.

- "تبدو مستاء مني غالباً!" قالت.

فوجئت. ولعدم فهمي ماترمي إليه، بدأت العديد من الاحتمالات بالتوافد إلى عقلي.

جاوبتها:" لا. ما المناسبة؟!"

لم يكن صوتها بغريبٍ عليّ أبداً. كان من الطبيعي أن أتذكر كل خطوط وتفاصيل وجهها، وأن أجد معانٍ وتفسيراتٍ أكثر مما كان هنالك في الحقيقة. فبتأمّلي للوحتها لأيام، نقشتها في ذاكرتي، ثم أتممت النقش بلوحة مادونا. لكن صوتها.. يبدو أني سمعته في مكانٍ ما على كل حال. ربما قبل زمنٍ طويل. في طفولتي.. أو ربما في خيالي فقط.

ولأنقذ نفسي من أفكاري المتلاحقة، حرّكت يدي. فمادام أنها أمامي، وتتكلم معي، فليس هناك داعٍ للانشغال بأشياء أخرى.

كرّرت المرأة سؤالها:

- "يعني هذا بأنك غير مستاء مني؟ حسناً، ولكن لمَ لمْ تأت مرةً أخرى أبداً؟"

يا للمصيبة! يبدو أنها شبهتني بأحدٍ آخر فعلاً. فتحت فمي لأسألها: «من أين تعرفيني؟»، لكنني تراجعت عندما مرّ ببالي تساؤل مريب. ماذا لو أدرَكت خطأها واعتذرت ونهضت ذاهبة؟ سيكون من الجيد أن يستمر هذا الحلم الرائع لأطول وقتٍ ممكن. لم يكن من حقي أن أنهض مقاطعاً إياها وأترك الحديث في منتصفه، ولو في سبيل قول الحقيقة.

انتقلت المرأة إلى سؤالٍ آخر عندما رأت عدم استجابتي:

- "هل تصلك رسائل من أمك؟"
بعـد أن وقعت في حيرةٍ لم تدم أكثر من ثانية، قفزت قائماً من كرسـيي. وصرخت ممسكاً بيدها:
- "آه ياربي، هذا أنت؟"
فهمت كل شيء الآن. تذكرت من أين تعرفت على صوتها.
ألقت المرأة بضحكةٍ رنانة:
- "يالك من ولدٍ غريب!"، قالت.
تذكرت ضحكتها أيضاً. لقد كانت تلك المرأة التي قطعت علي تركيزي وأنا أتأمل اللوحة في المعرض، وعندما سـألتني عن ما أجده في اللوحة وأجبتها بأنها تشـبه أمي سـألَتني :»أليس لديك صورةً لأمك؟« وهي تضحك. لم أفهم كيف لم أسـتطع التعرف عليها من قبل، هل سـلبت اللوحة لبّي لدرجة أنها أعمتني عن تمييز أصلها؟
تمتمت :"لكنك، يبدو أنك لم تكوني تشبهين اللوحة في ذلك الوقت!"
- "كيف كنت ستعرف ذلك؟ إذ لم تكن قد نظرت في وجهي حتى!"
- "لا، أستبعد ذلك.. فكيف لي ألّا أفعل؟"
- "نعم، نظرت قليلاً، ولكن كيف؟ وكأنك تتفادى الرؤية!"
ثم قالت ساحبةً يديها اللتين كنت مازلت أعصرهما:
- "عندما عدت إلى أصدقائي لم أخبرهم بأنك لم تتعرف عليّ، وإلا كانوا سيضحكون عليك كثيراً!"
- "شكراً!"

فكرتَ لوهلة، كأنما مرت من أمام عينيها سحابة. وفجأةً قالت بلهجةٍ جادة:

- "هل مازلت تريد أمّاً مثلها؟"

توقفتُ للحظةٍ غير مدرك مقصدها، ثم جاوبت بسرعة:

- "طبعاً.. طبعاً.. وبشدة!"

- "نفس جوابك في المرة الفائتة!"

- "ربما.."

ضحِكَت مجدداً.

- "لكن هل يمكنني أن أصبح أمك؟"

- "إنها! لا، لا!"

- "ربما أختك الكبرى!"

- "كم عمركم؟"

-»وهل تُسأل امرأةٌ هذا السؤال؟ لكن لا يهم، ست وعشرون سنة.. ماذا عنك؟»

- "أربع وعشرون!"

- "أرأيت؟ أستطيع أن أصبح أختك الكبرى!"

- "نعم، صحيح."

سكتنا لمدة.. كنت أشعر أن بداخلي أشياء رحبة ولا نهاية لها لأخبرها بها، أشياء لاتكفيني سنواتٌ لأخبرها كلها بها. لكن لم يكن يحضرني أيٌّ منها الآن أبداً. هي أيضاً، كانت تنظر أمامها من دون أن تنطق بشيء. أسندت مرفقها الأيمن على الطاولة، وتركت يدها تستريح على الغطاء الأبيض.

كانـــت لها أصابع دقيقة الأطراف تعطي انطباعـــاً بأن عظامها نحيلة جداً، وكانـــت أطراف أصابعها حمـــراء، من البرودة ربما. تذكـــرت أنني عندما صافحتها قبل قليل كانت يداها باردتان فعلاً. فانتهزت هذه الفرصة قائلاً:

- "يداك باردة!"

أجابت بلا تردد:

"أدفئهما!"، ومدتهما إليّ.

تطلّعـــت إلى وجهها. كان في عينيهـــا هيمنةٌ وإرادة قويـــة. كأن تركها يديها لشـــخصٍ تكلمه لأول مرةٍ لم يكن شيئاً ذا أهمية. ياترى؟.. كانت الاحتمالات المعتادة وغـــير المتعلقة بالموقف تتدفـــق على عقلي. ولكي أبعدها عن عقلي قررت أن أقول شيئاً:

- "أنـــا معذورٌ لعدم قـــدرتي على التعرف عليـــك في المعرض! فقد كنت مبتهجة، بل وهازلة أيضاً، لدرجة أنك.. لا أعرف كيف أشرح لك؟. كل ما كان فيك من الصفات معاكسٌ لما كانت عليه اللوحة. شـــعرك قصير، تنورتك أيضا قصيرة وردائك ضيق، ومشيتك أشبه بالجري، عجولة. كان صعباً بطبيعة الحال أن أشـــبّهك بـ(مادونا) التي يصفها النقاد بالوقورة، المتأملة، والمتكدّرة قليلاً. لكنني متعجّب...يبدو أنني أسرفت في التأمل!"

- "صحيح، جداً. أتذكر أول يومٍ قدمتَ فيه إلى المعرض. بعد أن تجوّلت لمدةٍ والضجر بادٍ عليك، توقفت فجأةً عند لوحتي. وبدأت في النظر إليها بشـــكل غريبٍ لدرجة أن زوار المعرض تعجبوا من ذلك أيضاً. في أول وهلةٍ ظننت بأنك رأيت فيها شـــبهاً من أحد تعرفه، ثم أصبحت تتردد

عليهــا كل يوم. فوقعت في فضولٍ أظنك تتفهمه. وفي عدة مراتٍ وقفت بجانبك وتفرجت على اللوحة معك، لكنك لم تشعر بوجودي، رغم أنك كنت بين فينةٍ وأخرى تلتفت إلى هذه الفضولية التي تقاطع تركيزك، إلا أنك لم تتعرف عليّ. كان هناك شيء جذابٌ في شرودك.. مثلما قلت لك، كنــت تثير فضولي. وفي النهاية قررت التحدث معك. حتى الرســامون الأخرون كانوا فضوليــين أيضاً، أصرّوا عليّ أن أفعــل، لكن ياليتني لم أفعل. فقد خسرناك تماماً بعدها، لم تعد إلى المعرض أبداً!"

قلت: «ظننت أنكم تتسلون بالسخرية مني!». لكنني ندمت على الفور، فربما ستنفعل من كلامي هذا. لكنها قالت:

- "صحيح، معكم كل الحق!"

ثم حدقت في وجهي بعينيها كأنها تبحث عن شيءٍ ما وقالت:

- "أنت وحيد في برلين، أليس كذلك؟"

- "ماذا تقصدين؟"

- "أعنــي.. وحيد، غريــب، بلا أحد. روحك وحيــدة، كيف أشرح مقصدي.. فيك حالٌ .."

- "أفهم، أفهم ما تعنين. نعم، أنا وحيدٌ جداً.. لكن ليس فقط في برلين. أنا في كل هذه الدنيا وحيد.. وحيدٌ منذ طفولتي."

- "حتى أنا وحيدة.." قالتها هذه المرة وهي تمسك يدي براحتي يديها. ثم استطردَت: "وحيدةٌ لدرجة الإختناق.. وحيدةٌ مثل كلبٍ عليل."

رفعت يدي ضاغطةً على أصابعي بقوةٍ ثم ضربت بها على الطاولة:

- "أستطيع أن أصبح صديقك!" قالت، "لم تتعرف عليّ إلا مؤخراً، لكنني راقبتك لمدة خمس وعشرين يوماً. فيك شيءٌ لا يوجد عند غيرك. نعم، أعتقد أننا سنكون أصدقاء جيدين.."

نظرتُ إلى وجهها باستغراب شديد. ما الذي كانت تقصده؟ ماذا كان يمكن أن يكون عرض امرأةٍ لرجلٍ بهذه الطريقة؟ لم أكن أفهم شيئاً. فلم يكن لديّ أيّ خبرة، ولم أكن أعرف الناس أبداً. لاحظت هي ذلك أيضاً. فقالت وفي وجهها قلقُ من اعتقد بأنه قد تمادى قليلاً، وخاف من أن يُساء فهمه:

- "لاتفكر مثل الذكور الآخرين. لاتحاول إعطاء كلماتي معانٍ أخرى. فأنا دائماً هكذا أتكلم بوضوحٍ وصراحة، كالرجال. في الحقيقة أنا أشبه الرجال في كثيرٍ من جوانب شخصيتي، وربما هذا هو سبب وحدتي."

تفحصتني بعينيها من رأسي حتى أخمص قدميّ. ثم قالت فجأة:

- "أنت أيضاً فيك شيءٌ من الأنوثة.. الآن عرفت لماذا. ربما لهذا السبب حكمت بأني وجدت فيك شيئاً يعجبني منذ رأيتك في أول مرة، فيك حالٌ يشبه حال الفتيات اليافعات.."

ورغم أني اعتدت على سماع هذا الكلام من أمي وأبي كثيراً، إلا أن صدوره عن شخصٍ أتحدث معه لأول مرةٍ أحزنني وفاجأني.

قالت مكملةً كلامها:

- "لن أنسَ حالك ليلة البارحة أبداً! كنت أضحك طوال الليل عندما أتذكرك.. كنت مضطرب كفتاةٍ تحاول الدفاع عن شرفها، لا أعتقد أن

الخلاص من فراو تيدمان سهلٌ على كل حال."
فتحت عينيّ بدهشة قائلاً:
- "أتعرفينها؟"
- "كيف لا أعرفها وهي قريبتي! ابنة خالي.. لكننا متخاصمتان حالياً؛ لســت أنا، ولكن أمي لا تريدنا أن نتواصل بسبب تصرفاتها هذه. كان زوجها محامياً، وقُتل في الحــرب العالمية. والآن هي بتعبير أمي، تعيش حياةً "غــير لائقة". لكن ما دخلنا؟ ماذا حــدث البارحة؟ هل نفذت بجلدك منها؟ من أين تعرفان بعضكما؟
- "نقيــم في نفس المهجع، أنقذت نفسي ليلــة البارحة بفضل مصادفةٍ عجيبة. فقد صادفنا في المهجع رجلاً كان على علاقةٍ حميمية بابنة خالك، اسمه هير دوبكه."
- "ليتزوجوا على الأقل!"
أدركت أنها أرادت إنهاء الموضوع بجملتها الأخيرة هذه. صمتنا لوهلة، كلانا كان يحاول تفحص الآخر من دون أن يظهر ذلك، وعندما كانت تلتقي أعيننا نبتسم ابتسامة تنمُّ عن رضا كلّ منّا عن الآخر، ونستمر في تبادل النظرات.
كنت أنا من مزّق الصمت:
- " يعني ذلك أن لك أمّاَ؟"
- "مثل مالك أنت!"
شعرت بالانزعاج، كأن ما سألتُه كان سؤالاً سخيفاً. لاحظت هي ذلك

وغيّرَت الموضوع:

- "هذه أول مرةٍ أراك فيها هنا!"

- "نعم، لا آتي إلى مثل هذه الأماكن أبداً، باستثناء هذه الليلة."

- "هذه الليلة؟"

مستجمعاً كل جرأتي، قلت:

- "أتيت إلى هنا متتبّعاً اثرك!"

فوجئت قليلاً:

- "هل كنت أنت من تبعني إلى عند البوابة؟"

- " نعم، يعني ذلك أنك لاحظت."

- " طبعاً، وهل يُعقل أن لاتلاحظ امرأةٌ مثل هذه الأشياء؟"

- " لكنك لم تنظري خلفك أبداً!"

- " لا ألتفت لأنظر خلفي أبداً!"

صمتت وفكّرت ملياً، ثم قالت بضحكةٍ جريئة:

- "هذا أيضا شكلٌ من أشكال تسليتي. عندما أحس بتتبع شخص لي في الطريق، أقاوم فضولي الشديد وأصرّ على عدم الإلتفات إليه، وفي تلك الأثناء أمَرِّر بذهني العديد من الاحتمالات: قد يكون متتبعي شابّاً، أو مسناً يصطاد النساء الضعيفات، أو أميراً غنياً، أو طالباً فقيراً، ربما يكون سكيراً عربيداً حتى. أحاول تمييز ماهيته من وقع خطوات أقدامه وبهذه الطريقة ينتهي طريقي من دون حتى أن أدرك ذلك. يعني هذا أنك أنت من كان يتبعني، ها؟ على الرغم من أنني، ومن خطواتك

المترددة حزرت بأنك رجلٌ عجوزٌ ومتزوج."

ثم أردفت بغتة وهي تنظر في داخل عينيّ:

- "هل كنت تترصد طريقي؟!"

- "نعم."

- "كيف حزرت بأني سأمر بنفس الطريق هذه الليلة؟ هل كنت تعرف بأني أعمل هنا؟"

- "لا، لكن لا أعلم!. قلت لنفسي ربما، ربما لم أقل حتى، وجدت نفسي ومن دون أن ألحظ ذلك، أقف هناك في نفس الوقت. ثم اختبأت عند أحد الأبواب خوفاً من أن تريني."

- "هيا لنمض، سنتحدث في الطريق."

وعندما رأت ذهولي سألت:

- "ألا تريد مرافقتي إلى منزلي؟"

نهضت من مكاني فوراً. أضحكتها حركتي هذه:

- "لاتتعجل ياصديقي" قالت. "سأذهب لأغير ملابسي أولاً. انتظرني مقابل البوابة بعد خمس دقائق!"

نهضت بسرعة. ذهبت بخطوات متعجلة وهي تمسك بطرف تنورتها، واختفت خلف الأوركسترا. نظرت في وجهي مجدداً ونحن ذاهبون، حيّتني عيناها المدهشتان تلك بإغماضةٍ وكأني صديقها منذ أربعين سنة. استدعيت النادل ودفعت الحساب. عادت لي جسارتي وجرأتي فجأة. كنت أحدق في وجه الرجل الذي كان يقيد أرقاماً في دفتره ذي الأوراق

الطويلة وكأنني أقول له: "ألم تلاحظ كم أنا سعيد يا أحمق!"، وشعرت برغبةٍ قويةٍ في السلام ضاحكاً على كل من لم يترك القاعة من الزبائن وفرقة الأوركسترا. كان تشبثي وتعلقي المفاجيء بالناس كشعور من اجتمع بأصدقائه بعد فراق سنين طويلة، يريد مصافحتهم وتقبيلهم مع محادثاتٍ مليئة بالبهجة والحماس.

قمت من مكاني. مشيت إلى غرفة تغيير الملابس بخطواتٍ واسعة مرتاحة وواثقة، هبطت السلم متخطياً عدة درجات في القفزة الواحدة. رغم أن مثل هذا السخاء المبذر وأنا أصرف أموالي للحساب لم يكن من طبعي أبداً، إلا أني أعطيت ماركاً للمرأة التي ناولتني معطفي. مقابل البوابة تطلعت حولي أخذاً أنفاساً عميقة. أُطْفِئت كتابة أتلانتيك التي كانت على اللافتة فوقي، واختفت موجات البحر معها. السماء صافية وفي الغرب البعيد يظهر هلال صغير يقترب من الأفق.

سمعت صوتًا رقيقاً خلفي:

- "هل انتظرت كثيراً؟"

- "لا... خرجت للتو!"، قلت ذلك وأنا ألتفت نحوها.

كانت واقفة أمامي، أعيننا ترمش وكأننا أناس يفكرون من دون أن يصدروا قراراً. أخيراً حركت شفتيها بخفة:

- "حقاً تبدو كإنسان طيب!"، قالت.

اضمحلت كل جسارتي وجرأتي فوراً عندما عادت إلي، ورغم أن هناك رغبة بداخلي لشكرها، وأن أضم يديها وأقبلها، إلا أن كل ما استطعت

هو أن أنطق بصوتٍ لايكاد يسمع:
"لا أدري!".
أمسكت المرأة ذراعي بلا تكلف، وبيدها الأخرى أمسكت ذقني. قالت بصوت ناعمٍ كمن يدلل طفلا صغيراً:
- "أووه، حقاً أنت خجول مثل فتاةٍ صغيرة!".
نظرت أمامي مقطباً وجهي. كنت قد بدأت في السأم من معاملة امرأة لي بهذه الجرأة وعدم المبالاة. لم تبالغ في ذلك على كل حال. تركت ذقني أولاً، ثم أسقطت يدها التي كانت ممسكةً بذراعي ببطئ إلى جانبها، وعندما رفَعْت رأسي فوجئت. فقد كان في وجهها ذهولٌ عجيب، بل كان فيه حياءٌ أيضاً. كان الاحمرار يمتد على خدها وإلى رقبتها. عيناها نصف مغلقتين وخائفتان من النظر إلي. مر ببالي تساؤلٌ مفاجئ: «لماذا ياترى تفعل ذلك؟ رغم أنها بالتأكيد ليست بذلك النوع من النساء.. لكن لماذا تفعل ذلك؟».
قالت كمن حزر ما في خاطري:
- "أنا هكذا! أنا امرأةٌ غريبة. إذا أردت مصادقتي فعليك تحمل أشياء كثيرة، مثل تقلباتي السخيفة، فلي أحوالٌ لاتلائم بعضها. الخلاصة أنني مخلوق مزعجٌ ولايُفهم من أي أحدٍ أصادقه."
ثم أتبعت بصوت حاد وفظٍ، وكأنها قد غضبت من سوء فعلتي:
- "لكن إذا أردت، فليس لي حاجةٌ لأحد. ليس في نيتي أن أكون ممتنة لأحد، أو أن أحسب صداقة أحدٍ ولطفه. هذا إذا أردتم."

قلتِ بنفس صوتي البطيء والمتردد: «سـأحاول فهمك.». مشينا لعدة خطوات. وشـيئاً فشـيئاً تشـبثت بذراعي. وكمن يتحدث عن أشياء عادية جداً، بدأت في الكلام بصوت لا لون له:

- "يعني ذلك أنك ستحاول فهمي؟ ليست فكرة سيئة. لكني أشعر بأنه سـيكون زرعاً بلا حصاد!.. رغم أني أحياناً أعتقد أن بإمكاني أن أكون صديقةً جيدة. سـيثبت الزمان ذلك، ولو افتعلت بعض الشـجارات الصغيرة فلا أهمية لذلك، لا تبالي."

توقفت في منتصف الطريق، وأشارت ملوحة بسبابة يدها اليمني كمن ينذر طفلاً ليتصرف بأدب قائلة:

- "لكنِ تنبّه لما سأقول. في اليوم الذي ستطلب مني فيه شيئاً ما سيعتبر كل شيء منتهيـاً. ولا أيّ شيء.. أتفهم؟ لن تطلب مني أي شيء." ثم تابعت بصوت شرسٍ كمن يتعارك مع عدو له: "أتعلم لماذا أنفر منكم، أعني كل الرجال في هذه الحياة؟ لأنهم يطلبون كل شيء من المرأة وكأن ذلك من أبسط حقوقهم الطبيعية. لا تسء فهمي، فليس من الضروري أن تكـون طلباتهم عـن طريق الـكلام. بل ترى ذلـك في نظراتهم، وضحكاتهم تلك، وحركات أيديهم، بل تعاملهم مع المرأة. باختصار، على المرء أن يكـون أعمى حتى لايلاحظ ثقتهـم الزائدة والحمقاء في أنفسهم. ويكفي رؤية الذهول الذي يقعون فيه عندما يُرفَض لهم طلب - بـأي طريقة - لفهم كبرياءهم المتعجرف. فهـم لايتوقفون أبداً عن رؤية أنفسـهم كصيادين، والتفكير بنا نحن كفرائس. مهمتنا الوحيدة

هـــي أن نكون تابعات، مطيعات، وأن نفعل مايــراد منا. نحن لا نريد ذلك، ولا نعطي شيئاً من أنفسنا. أنا أتقزّز من غرور الرجل المتعجرف الأحمق. هل تفهمني؟ لهذا أعتقد أن بإمكاني أن أكون صديقتك. لأن في حالك هذه لا يوجد أي ثقة في النفس. لكن لا أدري، فما أكثر ما رأيت من الخراف التي تظهر أسنان الذئاب من أفواهها.".

استمرينا في المشي مجدداً وهي في منتصف كلامها. كانت تمشي بخطوات متعجلةٍ وقوية. تتكلم مشيرةً بيدها، وعيناها تارةً في الأرض، وتارةً في السـماء. كانت في منتصف جملها تترك فواصلاً تعطي إحساساً بأنها قد أنهت كلامها، وتغمض عينيها نصف إغماضة مجدداً وتستمر في مشيها. مشينا لمسافة طويلة، وغاصت في صمت طويل من جديد. أما أنا، فقد كنت أمشي خائفــاً بجانبها دون أية كلمة. توقفــت عند بناء ذو ثلاث أدوار مجاور لشارع من شوراع حي تيرغارتان.

- "أســكن هنا.. مع أمي. ســنكمل حديثنا في الغــد، لكن لاتأت إلى هناك. لاأعتقد بأني ســأسرّ من رؤيتك لي على تلك الحال. أسجل هذه كنقطة لمصلحتك. لنلتق غداً نهاراً ونتمشى سوياً. لدي في برلين أماكن تنزه خاصة. لنرى ان كانت ستعجبك أم لا. هيا، ليلة سعيدة. لحظة! لم أزل لاأعرف اسمك!"

- "رائف!"

- "رائف؟ فقط؟"

- "رائف خطيب زاده!"

- " لا، يستحيل أن أتذكر ذلك، فضلاً عن أن أنطقه! ألا يكفي رائف؟"
- "يُسعدني أكثر!"
- "أنتم أيضاً تســتطيع مناداتي بماريا. قلت لك، لا أريد أن أكون تحت تفضّل أحد!"

ضحكت مجدداً، وأخذ وجهها الذي كان يتغير بتعابير كثيرة ذلك الطابع الحلو الأليــف. مدت ذراعها ضاغطةً على يدي في راحة يدها. تمنت لي مجدداً ليلة ســعيدة بصوت ناعم يعطي إحساساً بأنها تحاول الإعتذار، وأدبرت مخرجةً مفتاحها من شــنطتها. ابتعدت ببطء. لم أبتعد أكثر من خمسة أو عشرة أقدام حتى سمعت صوتها يناديني:

- "رائف!"

إلتفتّ منتظراً في مكاني.

- "تعال! تعال!"، قالت وهي بالكاد تضبط قهقهاتها. قالتها بغاية الرقة المصطنعة:

- "كم أنا محظوظةٌ لحصولي على شرف مناداتك باســمك بهذه السرعة!".

ولأنها كانت على درجات السلم العليا، رفعت رأسي لأنظر إليها. لم أستطع رؤيتها لأن الســلم كان مظلماً. كنت أنتظرهــا أن تكمل كلامها. حاولت اصطناع الجدية، ولكن بنفس ذلك الصوت الأشبه بالضحك، قالت:

- "يعني هذا أنك ذاهب؟"

تقدمتُ خطوةً وقلبي يتقافز حماساً، قلت وفي عقلي احتمال لست متأكداً إن كان سيسرّني أم لا، وبأملٍ أخشى حتى من التفكير فيه:

- "ألا تريدين أن أذهب؟"
هبطت درجتان على السلم. استبان لي وجهها تحت أشعة إضاءة الشارع. سألتني وعيناها تتفرسان في وجهي بفضولٍ يشوبه مكر:
- "ألم تفهم سبب استدعائي لك بعد؟"
كنت سأرتمي بنفسي على ذراعيها هاتفاً: «فهمت، فهمت، ها أنا ذا قادم.». لكنني شعرت في داخلي بإحساس مغاير لهذا وأقوى منه. إحساس بالتحطم، بالذهول، والكآبة. احتنق وجهي محمراً ونظرت أمامي، لا! لاأريد ذلك!
مسحت المرأة بكفها على وجنتي:
- "ماذا يحدث لك؟ تبدو على وشك البكاء. أخبرني هيا، كنت ستودعني وتذهب الآن، صحيح؟"
- "صحيح!"
- "لن تأتِ إلى الأتلاتنيك للبحث عني، هكذا اتفقنا!"
- "صحيح! سنتقابل غداً نهاراً!"
- "أين؟"
نظرت إلى وجهها شاعراً بغبائي. لم يخطر هذا على بالي أبداً. سألتها بنبرةٍ فيها رجاء:
- "ألهذا دعيتني؟"
- "طبعاً. أنت حقاً لاتشبه الذكور الآخرين، فهمّهم الأول هو تحديد مكان اللقاء ثم الإطمئنان بعد ذلك. الإنسان الذي تبحث عنه لن يظهر

في طريقك صدفةً دائماً كما حدث الليلة."

شعرت بثقل الشك، وقد انزاح من روحي. كنت أخشى من أن أعيش معها مغامرة نسـائية عادية. لم أكن لأقدر على ذلـك. كنت أفضّل أن أبدو في نظرها كأحمقٍ سـاذج على أن أرى مادونا صاحبة معطف الفرو علـى تلك الحال. لكن هذا الاحتمال كان مزعجاً أيضاً. كان من الممكن للتفكير في أنها سـتضحك من وراء ظهري على سـذاجتي وتسخر من جبني أن يعطي نتائج توجب عليّ أن أدير ظهري لكل الناس قاطعاً أملي منهم والانزواء على نفسي من جديد.

لكـن فؤادي الآن مرتاح. شـعرت بحياءٍ وخجـلٍ كبيرين من ظنوني السافلة تلك، وبإمتنان كبير لإنقاذ المرأة لي من تلك الظنون. استجمعت نفسي بجرأةٍ بائسة:

- "يا لكِ من امرأةٍ رائعة!"، قلت.

- "لاتستعجل. كن محتاطاً جداً عند حكمك عليّ!"

ضغطت عـلى يديهـا وقبلتها. على الأغلـب أن عينـيّ دمعتا. رأيت دنوّ وجهها مـن وجهي، وعيناها اللتان كانتا أدفـأ من العادة وكأنهما تحتضنـاني. كاد قلبي أن يتوقف في مواجهة هذه السـعادة التي يفصل بينها وبين وجهي بضعة سـنتيمتراتٍ فقط، لكنها وفجأةً سحبت يديها بأسلوب فظ جداً واستقامت.

- "أين تسكن؟"

- "على شارع لوتزاو!"

- "ليس ببعيد! .. في هذه الحال تعال غداً بعد الظهر وخذني من هنا!"
- "في أي شقة تسكنين!"
«سأنتظرك على النافذة. لا حاجة لصعودك!»
أدارت مفتاحها في قفل الباب ودخلت.
في هذه المرة سلكت طريق البيت بخطىً سريعة. شعرت بجسدي أخف مما هو على العادة، وفي مقابل عينيّ كان خيالها متجسداً. أتمتم بأشياء لا أعرف ما هي. وعندما استجمعت تركيزي أدركت أني كنت أردد اسمها وأخاطبها بكلماتٍ لطيفة ورومانسية، وألقي بين حين وآخر بضحكاتٍ حادةٍ وعالية يستحيل كبحها. وعندما وصلت إلى المهجع كان الصباح قد بدأ بالانبلاج.
لأول مرةٍ منذ طفولتي أغط في النوم من دون أن أقول وأنا أشعر بتحطم في صدري، ومفكرا بفراغ حياتي وسخافتها: "هذا يوم آخر قد ولّى. وكل أيامي ستمضي هكذا، ما الذي سيختلف لاحقاً ياترى؟!".
لم أذهب إلى المصنع في اليوم التالي. وفي تمام الساعة الثانية والنصف مررت بتيرغارتان متوجهاً إلى حيث تسكن ماريا بودر. كنت أتساءل ما إذا كان الوقت مبكراً أم متأخراً، ومتردداً من أن أزعجها وهي التي سهرت إلى الصباح، ولديها عمل شاق في الليل أيضاً، كنت أحمل بداخلي نحوها شفقةً يصعب وصفها. أتخيل تمددها على السرير، وتنفسها الثقيل العميق، وبعثرة شعرها على الوسادة، ولا أفكر بوجود شيء في هذه الحياة أسعد من رؤية هذا المنظر. كان الشعور بالصلة والانتماء الذي

استأثرت به عن الناس، والحب الذي لم أشعر به تجاه أي أحدٍ بمعناه الكامل، كأنه قد تجمع ككتلة واستفحل حجمه ثم خرج أخيراً بين يدي هذه المرأة. كنت أدرك بأنني لا أعرف عنها أي شيء بعد، وأني قد استمديت كل أحكامي عليها من تصوراتي وخيالاتي. ومع ذلك كانت عندي قناعةٌ ثابتة لا تهتز بأن ظني لن يخيب أبداً. طوال حياتي كنت أبحث عنها وأنتظرها. هل كان يمكن أن تخيب أحاسيسي المصحوبة بدقة شديدة وموهبةٍ شبه مرضية، والتي تجعلني عن طريق استجماع كل تركيزي ووجودي في نقطة واحدة، أبحث عن هذا الإنسان في كل الجهات مدققاً النظر في كل من أصادفه؟ هذه الأحاسيس لم تخطئ أبداً حتى الآن. هي من يكون لها الحكم الأول على الإنسان، ولاحقا يغيرها عقلي وتجاربي، وغالباً مايكونا مخطئين. لكن في كل مرة ينتهي الأمر باكتشاف أن الاحساس الأول كان صائباً منذ البداية. في بعض الأحيان، كان الشخص الذي أُصدر بحقه حكماً قاطعاً تبدأ صورته في التغير نحو الأسوأ في عينيّ مع الوقت، أو يظهر على عكس ما ظننته تماماً. عندها أقول لنفسي: "معنى هذا أن انطباعي الأول خانني!"، لكني وبعد مدة - قد تكون قصيرةٍ أو طويلة جداً - أكتشف أن حكمي الأول كان مصيباً، وأضطر فوق ذلك على قبول حقيقة كون المنطق كاذباً ومؤقتاً بسبب تعرضه للتأثيرات الخارجية والوقائع الخدّاعة.

الآن ولكي أعيش، أصبحت ماريا بودر الإنسان الذي أحتاج اليه بلا قيدٍ أو شرط. في أول اللحظات كنت أشعر بغرابة هذا الشعور. كيف

لي أن أشعر فجأةً بهذا القدر من الحاجة إلى إنسان لم أكن أعرف بوجوده حتى؟ لكن أليس هذا هو الحال أبداً ودائماً؟ ألسنا لا نكتشف حاجتنا الملحة لأشياء كثيرة إلا عندما نراها ونتعرف عليها؟ حتى أنا، بدأت بالشعور بأن فراغ حياتي من هدف أو معنى إلى هذا اليوم كان بسبب حرماني من هذا الإنسان فقط. كان انزوائي عن الناس وهروبي منهم وتخوفي من أن أُشعر أياً ممن كان حولي بأي ذرةٍ مما كان يختلجه صدري، يبدو لي سخيفاً وغير ضروري. كنت أخاف أن تكون هذه الأحزان التي تلفّني من وقت لآخر، والسأم من الحياة من أعراض مرضٍ نفسي. وعندما كنت الاحظ عقب استغراقي في قراءة كتاب ما لساعتين بأن هاتين الساعتين كانتا أكثر أهمية وثقلاً من سنواتٍ كثيرة في حياتي، كان يراودني التفكير في العدمية المروعة لحياة الإنسان وأقبع في يأسٍ محبط.
لكن من الآن فصاعداً تغير كل شيء. منذ اللحظة التي رأيت فيها لوحة هذه المرأة قبل حوالي أسبوعين أحسست بأنّي عشت أكثر من كل سنوات حياتي. كل أيامي، كل ساعاتي، بل وحتى منامي كان ممتلئاً عن آخره. لم تكن أطرافي هي التي تتعبني فقط، بل مباشرة روحي بالحياة وبكل هذه القوة أشعرني بالتعب أيضاً، وظهور المناظر الجذابة والبديعة الجمال التي تشكّلت بخروج مكنونات ما كبت في صدري وبهذه الفجاءة من دون علمي إلى الوجود.
أعلمتني ماريا بودر بوجودٍ روحٍ لدي. وحتى أنا، لأول مرة أشعر بوجود شخصٍ له روحٌ من بين كل الناس الذين صادفتهم. من المؤكد أن لكل الناس أرواح خاصة بهم، لكن كثيراً منهم لايستوعبون ذلك،

وسيعودون إلى المكان الذي جاؤوا منه قبل أن يعوا ذلك أيضاً. بمجرد أن تجد الروح ما يشابهها، ومن دون حاجة إلى حساباتنا واستشاراتنا، تخرج نفسها وتظهر على السطح. وقتها فقط نبدأ بالعيش الحقيقي، - وذلك أن نعيش مع أرواحنا -. في ذلك الوقت نترك كل ترددنا وخجلنا جانباً، لتتحاضن الأرواح مع بعضها، ساحقةً كل شيءٍ في طريقها، وهي تجري إلى من تتعلق به.

استحال كل خجلي وتحفظاتي عدماً. كنت أنتظر بفارغ الصبر لأسكب كل ما بنفسي بين يدي هذه المرأة. كل جوانبي الجيدة والسيئة، الضعيفة والقوية، ومن دون إخفاء نقطةٍ واحدة حتى، ترافقها رغبة بأن أعري روحي أمامها. كم كان هناك كثير من الأشياء لأخبرها بها وأحكيها لها.. لو تكلمت طوال مابقي من حياتي لما كفت لأكملها. لأنني بقيت طوال سنوات عمري الماضية صامتاً، ومقابل كل ما يمر بخاطري أقول لنفسي: "يارجل، ماذا سيحدث لو تكلمت؟". في الماضي كنت عند مصادفة أي شخص، ومن دون اعتماد على أي أساس عدا شعورٍ لا يقاوم، كنت أقول لنفسي :"هذا لن يفهمني!"، لكن وفي هذه المرة، وبلا استنادٍ على أي أساسٍ أيضاً غير ذلك الإحساس الأول الذي لا يخطئ قلت: " نعم، هذه ستفهمني!".

وصلت وأنا أمشي بخطىً ثقيلة إلى قناةٍ تمرّ بجنوب حي تيرغارتان. من فوق الجسر هنا كان بيت ماريا بودر يبدو واضحاً من بعيد. الساعة لم تتجاوز الثالثة، وبسبب زجاج النوافذ العاكس لم أستطع تبيّن إذا ما

كان هنــاك أحدٌ خلفها أو لا. نظرت إلى المياه الســاكنة مقترباً إلى حافة الجسر. كانت قطرات المطر الخفيف البادئ منذ قليل تنزل عليه بلطف. وعلى بعد مســافةٍ لابأس بها كان هناك زورقٌ يفرغ حمولته من الخضار والفاكهة إلى العربات التي كانت على المرســى، و كانت الأوراق التي كانت تتساقط من الأشجار التي على جوانب القناة تطير ملتفة في الهواء قبل أن تســقط. كم كان هذا المنظر السوداوي والمغموم جميلاً! كم كان الهواء الرطب الذي تنشــقته منعشــاً! أن تحيا، متأملاً أصغر اهتزازات الطبيعــة، أن تحيا هو أن تراقب انســكاب الحياة ومضيهــا بمنطقٍ لا يتزعزع. وتعرف بأن لحظةً ما قد تملأ عمراً كاملاً.. والأهم من ذلك، أن تؤمن بوجود إنسان ستحكي له كل ذلك، وأن تحيا وأنت تنتظر قدومه. هــل في الدنيا شيءٌ باعث للسرور والإنشراح أكثر من هذا؟ ســنمشي بعد قليل سويةً في هذه الطرق المبتلة، وسنجلس في مكان منعزلٍ ومعتم وســتقابل عيناي عينيها. سأحدثها عن أشــياء كثيرة، أشياء لم أبح بها لأحدٍ حتى الآن، ولاحتى لنفسي. أكثرها كانت تولد في لحظة مفاجئة، وبسرعةٍ تثير دهشــتي كانت تترك أماكنها لغيرها وتذهب. سأمســك يديهــا براحتي كفي، وأدفئ أطــراف أصابعها الحمــراء الباردة بفرك لطيف. وبكلمةٍ واحدة، سأكون قريباً منها.

جاوزَت الســاعة الثالثة والنصف. "هل اســتيقظت ياترى؟"، قلت لنفــسي. هل من الصــواب أن أذهب إلى مقابل منزلهــا وأتجول إلى أن تظهر؟ قالت بأنها ســتكون منتظرةً في النافذة. هل ستخمن بأني أنتظر

هنا؟ هل ستأتي حقاً؟.. طردت هذا الشك من رأسي فوراً. شعرت بأن في هــذه الفكرة التي تحمِل عدم الثقة بها ظلماً لها، كنســفٍ للبناء الذي شــيدته بنفسي. كانت هذه الاحتمالات تتلاحق وتطارد بعضها بسرعة كبيرة. قد تكــون مريضة، أو ذهبت لقضــاء شيءٍ ضروري. نعم هذا أكيد. فقدوم سعادةٍ كبيرة جداً بهذه السهولة ليس بالشيء الطبيعي. مع مرور كل دقيقةٍ كان اضطرابي يزيد أكثر، و يخفق قلبي بشــدة أكبر. ما مررت به ليلة الأمس كان مجرد صدفةٍ من الصدف التي يمر بها الإنسان مراتٍ قليلةٍ في حياته. وانتظار تكرارها ليس صواباً أبداً. بدأ عقلي حتى بإيجاد تعازٍ تواسيه. ربما لم يكن شيئاً جيداً لحياتي أن تسلك طريقاً جديداً ومظلماً لا تبدو نهايته فجأةً هكذا. أليســت عودتي لسكوني، والرضوخ لأغلال أيامي المخدرة والبقاء فيها ستكون مريحة أكثر؟!

عندما أدرت وجهــي، رأيتها وهي تمشي قادمــةً باتجاهي. على ظهرها معطفٌ خفيف، وعلى رأسها قبعة زرقاء داكنة، ومرتدية لحذاء منخفض الكعب. كان وجهها باسماً. وعندما وصلت إلى جانبي مدت يدها:

- "هل انتظرتني هنا؟ منذ متى؟" قالت.

- "منذ ساعة!"

كان صوتي يرتجف من الحماس. ظنّت بأني قلتها شــاكياً، فقالت بعتابٍ نصف مازح:

- "أنت المخطئ، ســيدي."، وأكملت "فقد انتظرتك لساعة ونصف الســاعة. وأدركت قبل قليلٍ صدفةً بأنك فضّلت مشــاهدة هذا المنظر

الشاعري على أن تأتي لمقابل المنزل!"

معنى هذا أنها انتظرتني، وبالتالي فأنا أعتبر إنســاناً ذا أهميةٍ بالنسبة لها.
نظرتُ إليها بعيون قطة تتعرض للتمسيد قائلا:

- "شكرا!"

- "على ماذا؟"

تلقفت ذراعي من دون أن تنتظر جواباً:

- "هيا لنذهب!"

بــدأت بالمشي كتابعٍ لها. كانت ترمي بخطــوات قصيرة ولكن سريعة. كنت خائفاً من أن أسألها عن وجهتنا. لم نتكلم عن شيءٍ بينما كنا نمشي. رغم أني كنت مرتاحا للســكوت جداً، إلا أني كنت آكل نفسي ظاناً بأنه يتوجب علي قــول شيء ما. ليس هناك أية أثر لأيــة فكرة من الأفكار الجميلة والمهمــة التي كانت تتابع في ذهني قبــل قليل. ومع اجتهادي بالتفكير أكثر، أحسســت كأن رأسي يفرغ من كل شيء ويصبح وضعه بائساً، ولم أشــعر بكون دماغي أكثر من قطعة لحم تؤلم رأسي. وعندما نظــرت إليها بطرف عينــي، أدركت أن كل ما اعــتراني من اضطرابٍ وهيجانٍ لم يترك عليها أثراً. كانت تمشي وعيناها الســوداوان مطرقتان إلى الأرض، ووجهها يعلوه ســكون ثابت، وعلى طرف شفتيها انحناء يذكّر بابتسامة. تركت يدها اليمنى تستند على ذراعي بارتياح، وإصبع سبابتها المنتصب قليلاً كان وكأنه يشير إلى نقطة ما أمامنا.

وفي كل مرة أنظر إلى وجهها كنت أرى حواجبها مرتفعة وكأنها تفكر في

شيءٍ ما. في أجفانها كانت تظهر عروق زرقاء دقيقة، ورموشها السوداء الكثيفة ترتجف بخفة وتلمع عليها نقاط صغيرة من قطرات المطر، وكان معظم شعرها قد ابتل.

قالت ملتفتةً نحوي فجأة:

- "لماذا تنظر إلي بهذا التمعن؟"

خطر على بالي هذا السؤال في نفس اللحظة أيضاً: كيف حدث هذا؟ أن أنظر ومن دون أي تردد أو خوف، وربما لأول مرةٍ في حياتي، في وجه امرأة وأدقق النظر لفترة طويلة من دون أن أفكر في فعلي هذا. وكيف لهذا أن يستمر إلى اللحظة، كيف لي حتى بعد أن سألتني ونظرت إلي لم أخسر جرأتي واستمريت بالتحديق فيها؟ قلت لها بشجاعة أذهلتني:

- "أيزعجك ذلك؟"

- "لا، ليس هذا السبب، سألت فقط. ربما أريدك أن تنظر ولذلك سألتك!"

كانت عيناها سوداوان وعميقة الدلالة لدرجة اني لم أتحمل فسألت:

- "هل أنت ألمانية؟"

- "نعم، لماذا سألت؟"

- "شعرك ليس بأصفر ولا عيونك زرقاء!"

- "ربما!"

حدثت في وجهها حركة تشبه الإبتسامة المعتادة، ولكنها ظهرت مترددة نوعاً ما.

- "أبي كان يهودياً!"، قالت. " أمي ألمانية. لكن حتى هي ليست

شقراء."

سألت بفضول:

- "معنى هذا أنكم يهود؟"

- "صحيح.. هل تعادي اليهود أنت أيضاً؟"

- "ما العلاقة؟! ليس عندي شيء من هذا القبيل. كل الموضوع أنني لم أتوقع ذلك!"

- "نعم، أنا يهودية. أبي من براغ. وقبل أن أولد تحول إلى الكاثوليكية!"

- "في هذه الحال أنتم تعتبرون مسيحيين!"

- "لا.. أعني أني شخصياً ليس لي علاقة بأي دين!"

مشينا مسافةً طويلةً. لم تكمل كلامها، ولا أنا سألتها سؤالا آخر. اقتربنا ببطءٍ من أطراف المدينة. بدأ الفضول يجتاحني لمعرفة وجهتنا. لم نخرج لنتمشى في مثل هذا الجو على كل حال. كان المطر مستمراً في الهطول بنفس الغزارة. قالت ماريا في لحظة:

- "إلى أين نحن ذاهبون؟"

- "لا أعلم."

- " ألا تشعر باالفضول؟"

- "أنا تابع لك، أينما تريدين أذهب!"

قالت ملتفتة إلي بوجهها الذي كان كوردة بيضاء غُطيت بقطرات الندى:

- "يا لسذاجتك. أليس لك فكر مستقل ورغبات خاصة؟"

استذكرت كلماتها بالأمس على الحال:

- "لقد منعتني من طلب أي شيء منك!"
لم تجب. استطرَدْتُ بعد صمتٍ قصير:
- " أيعنــي هذا أنك لم تكــوني جادّة بالأمــس؟ أو أنك غيرت رأيك اليوم؟"
- " لا! لا! أنا لا أغير رأيي!"
وغرقت في أفكارها مجدداً.
وصلنا إلى أمام حديقة كبيرة مسيجة. قالت وهي تحثُّ خطاها:
- "ندخل إلى هنا؟"
- "ماهذا المكان؟"
- "حديقة نباتات!"
- "أنت أدرى!"
- "لندخل إذن. أجيء إلى هنا دائماً، حتى في أجواء ممطرة كهذه."
لم يكن هناك أحد بالداخل. تمشينا في الطرق الموحلة لمدة طويلة. جوانب الطريق كانت ممتلئةً بأشــجار كثيرة لم تتســاقط أوراقهــا رغم فوات مواســمها، وأحواض الماء الكبيرة الصخرية محاطــةٌ بأنواع كثيرة من أعشــاب مختلفة الألوان، كان هناك أزهار وطحالب مائية أيضاً، ووجه الماء تغطيه أوراق كبيرة. وبداخل بســاتين الحمضيات المرتفعة تتواجد نباتات المناطق الحارة ونباتات كثيفة صغيرة الأوراق. قالت ماريا:
- "هنا أجمل مكان في برلين. في هذا الموســم أستطيع القول بأنه خالٍ لا يأتيه أحد.. ثم إن هذه الأشــجار الغريبة تذكرني دائما بأوطانها وتجعلني

أتأسف وأتوجع لها. عندما أراها بعد أن اجتثت من الأرض التي اعتادت عليهـــا، وأحضرت إلى هنا وهم يحاولون إبقائهـــا حية تحت ظروفٍ غير طبيعية أحزن عليها بعض الشيء. أتعلم؟ في مئة يوم من أيام السنة تكون برلين مشمسة وجوها صحو، وغائمة قاتمةً في مئتين وخمس وستين يوماً. أتســـتطيع إضاءات البساتين وشموســـها الصناعية إشباع حاجة أوراق الأشـــجار التي اعتادت على الضوء والجو الحار؟ رغم ذلك فإنها تعيش ولاتجف. لكن أيمكن القول عن هذه المعيشة بأنها حياة؟ ألا يعتبر فصل كائن حي عن بيئته المناســـبة له، وجعله تابعاً تحت هذه الظروف الفظيعة لإرضاء بعض الفضوليين نوعاً من أنواع التعذيب؟"

- "لكنك أنت أيضاً أحد الفضوليين."
- "صحيح ، لكن في كل مرة أجيء فيها إلى هنا يغمر داخلي حزن عميق!"
- "لماذا تأتين إذن؟"
- "لا أعلم!"

جلســـت على أحد المقاعد المبتلة. جلســـت بـــدوري إلى جانبها. قالت ماسحةً حبات المطر عن وجهها:

- "مشاهدتي لهذه النباتات هنا تجعلني أفكر في نفسي. ربما أتذكر أجدادي الذين عاشوا قبل عصورٍ مع هذه الأشجار والأزهار الغريبة في نفس المكان. ألسنا نحن أيضا مثلهم؟ انتُشـــلنا من أماكننا وفُرّقنا؟ لكن هذا لايهمك.. بالأصح هو لايهمني أنا كثيراً أيضاً، لكن تفكيري في أشـــياء كثيرة يمكنني من عيش أشـــياء كثيرة داخل عقلي. ســـترون، فأنا إنسانة أعيش في داخل

رأسي أكثر مما أعيش في العالم الخارجي. في الحقيقة، حياتي ليست بأكثر من حلم ممل. ربما وجدتم عملي في الأتلانتيك محزناً، لكنني لست واعية حتى لكونه أو عدم كونه ذلك. أحيانا يكون مسلياً لي حتى.. أنا لاأعمل هناك إلا لأجل أمي، فأنا مجبورة على الاعتناء بها. العيش على ماأكسبه من بيع لوحاتي التي أرسمها في السنة لا يكفي. هل لكم خبرة في الرسم؟"

- "قليلاً!"

- "لماذا لم تستمروا؟"

- "لم أحس بأني مستعد لذلك!"

- "لا يمكن! كانت تعابير وجهك وأنت تشاهد اللوحات في المعرض تظهر استعدادك لذلك. فهمت بأنك لست بجريء، جرب. فليس من الجميل أن يكون هناك رجلٌ جبان إلى هذه الدرجة. أقول هذا لمصلحتك. عندما يتعلق الأمر بي، فعندي الشجاعة لفعل ذلك. أريد الرسم وعكس أحكامي على الناس على الورق، وربما أنا ناجحةٌ في ذلك، لكن هذا جهد فارغ أيضاً. لايمكن للناس الذين أستخف بهم فهم ما أفعله، والذين يستطيعون الفهم لايستحقون الاستخفاف بهم أصلاً. في هذه الحال، ومثل ماهو الوضع في كل الفنون، فالرسم فنٌ، اذا لم يكن هناك مُتلقٍ معين، فذلك يعني أنه عاجز عن مخاطبة من يقصده في الأصل. ورغم هذا فإنه العمل الوحيد الذي آخذه على محمل الجد في هذه الدنيا. لهذا لا أريد العيش على ما أكسبه من الرسم. لأني لو فعلت ذلك، فسأفعل مايريده غيري مني، لا ما أريده أنا. لا، أبداً، إني أفضّل أن أعرض

جسدي في السوق على أن أفعل ذلك، لأني أرى جسدي بلا أهمية."
ضربت ركبتي وقالت:
- "هكذا ياصديقي العزيـز، مانفعله نحن أيضاً ليس بالشيء المختلف كثيراً. كنت موجوداً البارحة عندما قبّل ظهري أحد المخمورين، أليس كذلـك؟ يقبّل طبعاً، من حقه، إنه يصرف ماله لذلك. يقولون أيضا أن ظهري جذاب، هل تريد تقبيله أنت أيضاً؟ أمعك نقود؟"
تسمرت مكاني وكأن في لسـاني عقدة. وبدأت عيناي ترمشان بسرعة وأسـناني تعض على شفتي. عندما لاحظت ماريا ذلك عبست وأصبح وجهها شاحبا أكثر من أي وقت مضى، قالت ووجهها كالجصّ :
- "لا، لاأريد هذا ياسـيد رائف. قطعاً. فأكثر شيء لا أسـتطيع تحمله هو الشفقة. في اللحظة التي أشـعر أنك أشفقت فيها علي، سأقول مع السلامة! لن ترى بعدها وجهي حتى."
وعندما رأت تفاجئي وكوني أنا من يستحق العطف، رمت بذراعها على كتفي:
- "لا تنفعل من كلامي! علينا ألا نتردد من التحدث صراحةً عن أشـياء قد تنغص علينا صداقتنا في المسـتقبل. الجبن في مثل هذه المسـائل مضر. ماذا سـيحدث؟ إذا أدركنا عدم إمكانية تفاهمنـا، توادعنا وافترقنا.. هل هـذه مصيبة عظمى؟ ألا تقبل بحقيقة أن كون الشـخص وحيداً في هذه الحياة هو الطبيعي؟ كل التقاربات وشـتى أنـواع الترابط كاذبة، فالناس يسـتطيعون الاندماج مع بعضهم إلى حد معين فقـط، وماغير هذا فهو

تصنع؛ وفي يوم من الأيام وعندمـــا يدركون أخطائهم، يتركون كل شيءٍ ويهربون بسبب يأسهم. لكن لو أنهم اقتنعوا بما هو ممكنٌ فقط، وتراجعوا عما اعتقدوا في عقلهم بأنه الحقيقة لما كان لهذا أن يحصل. عندما يقبل الكل بما هو طبيعي، لن تبقى أية خيبة أمل أو انكســار. كلنا نســتحق الأسف والشــفقة في حالنا هذا؛ لكنا يجب أن نكون نحن من نشــفق على أنفسنا، فالعطف والشــفقة على غيرك تعني أنك تعتقد بأنــك أقوى منه، وماهو حقنا في أن نرى أنفسنا كباراً، أو في أن نرى غيرنا بؤساء؟ أنذهب الآن؟"

اعتدلنا واقفين، نفضنا عن ملابســنا ماعلق بها من قطرات المطر، كان الطين اللزج الملتصق بأحذيتنا من الاســفل يسبب صوتاً غريباً. بدأت الشوارع تكتسي بالظلام، لكن أعمدة الانارة لم تضيء بعد. كنا عائدين كما أتينا، بخطوات مسرعة مارين من نفس الشوارع. في هذه المرة كنت أنا من أدخل يدي في ذراعها، ملتصقاً بها كطفل صغير، وملصقاً وجهي بها. في داخلي حالٌ غريبٌ يتردد بين الحزن والبهجة، مع رؤيتي أن كثيراً من أحاسيســها وأفكارها تتشابه مع أحاسيسي وأفكاري يجعلني أشعر باقترابنا لبعضنا بقوة أكبر وأبتهج؛ لكن إدراكي كونها ستفترق عني في نقطةٍ ما، وفهمي كونها لاتريد إخفاء الحقائق عنها أو التعرض للخداع أبداً، يبقيني خائفاً. كان هنالك شعورٌ غامض يهمس لي بأنك إذا رأيت أحداً - كائناً من كان- على حقيقته، ولم تخف مارأيته عن نفســك فلن تستطيع الاقتراب منه مجدداً أبداً.

لكنني لم أرد أن أكون أحد محبي الحقيقة. كنت مدركاً بأنني لن أتحمل أي

حقيقةٍ قد تبعدني عنها. بعد عثورنا على أهم وأغلى الأشياء الموجودة فينا من أجل أرواحنا، أليس تجاهــل التفاصيل، أو بتعبير أصح، التضحية بالحقائق الصغيرة من أجل الحقيقة الكبرى أكثر إنسانية وإنصافاً؟

من المؤكد أن سبب تفكير هذه المرأة بهذه الطريقة وكونها محقة بخصوص كل شيءٍ وســليمة الحكم على ماحولها ما هــو الا نتاج تأثرها بتجارب الحياة المرة وتأثيرات محيطها المفســدة. فبســبب عيشــها بين أناس لا تريدهم ولايعجبونها، وكونها مجبرةٌ على الابتسام والضحك لهم، كانت تقــع في انفعالٍ عميقٍ وتشــتبه في كل الناس. بينــما في حالتي، ولكوني مبتعداً عن الناس طوال عمري، ولم أتعرض لمضايقاتٍ كثيرة منهم فلم يكــن بي حنقٌ على أحد. ما كان يضايقني فقط هو شــعوري بالوحدة، وبســبب تأثيرات هذه الوحدة فأنا مســتعد لخداعِ نفسي في نقاط كثيرة تجاه الإنسان الذي أحسست بالقرب منه.

وصلنا إلى أواســط المدينة. الشوارع مزدحمة ومضاءة. كانت ماريا بودر غارقةً في التفكير ومحزونة قليلاً. سألتها بخوف:

- "هل أزعجك شيء ما؟"

- "لا!"، أجابت. "لم يحدث شيء يزعجني. بل أنا سعيدة بهذه النزهة. سعيدةٌ على كل حال.."

كان جلياً أنها كانت تفكر في أشياء أخرى وهي تتكلم، ففي نظراتها التي كانت تلتفت لي بين كل حين وآخر حالٌ ســارحٌ، وفي ابتسامتها غرابةٌ مقلقة. في لحظة توقفت وسط الطريق.

- "لا أريــد الذهاب للبيت!" قالت. "هيا، لنأكل ســويةً في مكانٍ ما، ونتكلم إلى أن يحين موعد عملي!"

قابلت هذا العــرض الغير المتوقع بحماسٍ شــديد، لكنّي عندما رأيت أن حالي هذا ســيجعلها تتوحش أكثر هدّأت نفــسي ونظرت أمامي. دخلنــا إلى مطعمٍ كبير في غرب المدينة، لم يكــن داخله مزدحماً جدّاً. في أحد زواياه امرأةٌ بافاريةٌ ترتدي زياً شعبياً وتعزف موسيقى صاخبة على الأوركسترا. جلسنا على طاولةٍ في الركن وأكرمناها طعاماً وشراباً.

انتقل إلي أيضاً وجوم وهدوء ماريا . في داخلي قلقٌ وشــعور خيبة ليس له مبرر. عندما لاحظت المرأة ذلــك ، حاولت التخلص من أفكارها والإبتسام لي وتسليتي. ضربَت بيدها يدي المسندة على الطاولة:

- "لماذا تعبس؟ في العادة يكون الخارجون لتناول الطعام مع امرأةٍ لأول مرةٍ مبتهجين وثرثارين!"

قالت مازحةً، لكن عدم ايمانها بما تقوله كان واضحاً، فعادت إثر ذلك الى وضعها السابق بسرعة. جالت بعينيها في المكان لا لشيء إلا لتكون قد فعلت شيئاً ما. احتست عدة جرعاتٍ من الشراب أمامها ثم حولت نظرها إليّ فجأة:

- "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ لاأســتطيع أن أصبح شيئا آخر، لا أستطيع أن أتغير!"

ما الذي كانت تعنيه؟ لم أســتطع تفســير كلامها إلا بشــكل ســلبي. أحسست بأن الشيء الذي قالت بأنها لا تستطيع فعله أصبح يزعجني

أنا أيضاً، لكنني لم أستطع استيضاح ماهيته أو معرفته بعد.

عيناها تريدان التعلق بكل شيءٍ تقعان عليــه، ويبدو أنها بالكاد كانت ترفعهما عما تنظران إليه. أثناء جلوســنا كانت تسري في وجهها الناصع كبياض اللؤلؤ رعدات خفيفة لاتكاد تبدو للعيان. قالت فجأة بصوت به ارتعاش شديد وهيجان بالكاد يُضبط:

- "إياك أن تغضب مني. سيكون كلامي معك بصراحة شديدة أفضل لكيلا تقــع في أمانٍ وآمــالٍ فارغة. لاتسيء فهمــي ولا تغضب مني. بالأمــس أتيت إليك، وطلبت منك مرافقتي إلى منزلي، واليوم عرضت عليك أن نتنزه ســويةً، وفي المســاء عرضت عليك تناول العشاء معاً، وكأنني أصبحت مربوطة بك. لكنــي لا أحبك. هذا كلّ ماكنت أفكر فيه.. لا، حتى أنت لا أحبك. ماذا أفعل؟ ربما أجدك لطيف بالفعل، بل وجذاب أيضاً. ربما أرى فيك جوانب مختلفةً أو غير موجودة عند كل من عرفتهم من الرجال، فقط إلى هذا الحد. فالكلام معك، والتحدث عن أشــياء كثيرة، والنقاش، والجدال...فالخصام، والاعتذار والتصافي من جديد، كل هذا سيجعلني مسرورة بالتأكيد.. لكن الحب؟ لا أقدر على ذلك. أعتقد أنك تريد معرفة ســبب قولي هذه الأشياء الآن؛ كما قلت، لاتنتظر منّي شــيئاً في المستقبل فيخيب أملك وتسخط علي. أنا أُعلمك من الآن بما أستطيع منحه لك حتى لاتزعم بأني خدعتك وتلاعبت بك في المستقبل: مهما كنت مختلف في طباعك، ففي النهاية أنت رجلٌ أيضاً. وكل مــن عرفتهم من الرجال عندما علموا ذلك، أعني عدم حبّي لهم،

عدم اســتطاعتي لحبّهم، هجروني بتأثر كبير، بل وحِدّة شديدة أيضاً.. هكذا، مع الســلامة.. لكن لماذا اعتقدوا بأني أنــا المذنبة؟ أنا لم أعدهم بشيء قطّ، ألأنّني لم أستطع أن أعطيهم ماتخيلوه في عقولهم فقط؟ أليس هذا ظلم؟ أنت أيضاً لا أريد منك التفكير بتلك الطريقة عني، يمكنك تسجيل هذه كنقطة لصالحك."

أصابني الذهول. لكنّي قلت محاولاً ضبط نفسي:

- "ما الداعي لكل هذا الكلام؟ طبيعة صداقتنا لا أصيغها أنا، بل أنتِ. ليكن ماتريدين أنت!"

اعترضت بشدة قائلةً:

- " لا، أبداً، هذا لايصلح. انظر، هل رأيت؟ أنت أيضا مثل كل الرجال، تجعلــون كل شيء يخضع لإرادتكم متظاهرين بأنكم أنتم من يذعن لكل الشروط. لا يا رفيق! لا تُحلّ المشــاكل بمثل هذه العبارات المسكّنة. فكر في هــذا، ليكن هذا الموضوع ضدّي أو ضد غيري، فدائماً ورغم محاولاتي لإبــداء رأيي صريحاً بلا رياء، إلّا أنني لا أصــل إلى نتيجة أبداً. علاقات النساء والرجال معقّدةٌ جداً، ورغباتنا ومشاعرنا غامضةٌ وضبابية لدرجة أن لا إنســان يعلم مايفعله تماماً، الكل يذهب منجرفــاً مع التيار. أنا لا أريد هذا.. ففعلي لأشــياء لســت مقتنعةٍ بها، يجعلني صغيرة حينما أفكر في ذاتي. الــشيء الذي لا أتحمله بالذات هو كون المرأة مجبورة على الهدوء والطاعة أمام الرجل دائماً. لماذا؟ لماذا نهرب نحن دائماً وأنتم تلاحقوننا؟ لماذا نحن المسلِّمين دائماً وأنتم المستلمين؟ لماذا حتى في رجاءاتكم لنا لكم

هيمنة وتحكـــم، وفي رفضنا عجز؟ منذ طفولتي وأنا متمردة على ذلك، لم أستطع تقبله إطلاقاً. لماذا أنا هكذا، لماذا النقطة التي لاتعيها حتى معظم النســـاء تبدو مهمة لي بهذا القدر؟ فكرت في هذا كثيراً. هل هناك جانب طبيعي في شـــخصيتي يا ترى، أقول لنفـــسي. لا، على العكس، ربما لأني عادية أكثر من كل النســـاء، فلهذا أنا أفكر في ذلك. لأن حياتي وبمحض صدفة، مرّت بعيداً عن التأثيرات التي تعوّد النســـاء على رؤية أقدارهم طبيعية. توفّي أبي وأنا صغـــيرة، فبقيت أنا وأمي في البيت لوحدنا. كانت أمي تمثّل إحدى النساء اللاتي اعتدن على أن يكنّ تابعاتٍ، معتاداتٍ على الطاعة. فَقَدَت الإعتياد على المشي وحدها في الحياة، بل من الأصحّ قول أنها لم تنله أبداً في حياتها. بدأت أنا بإدارتها رغم كوني صغيرة في الســـابعة من عمري. أرشـــدتها، لقنتها الصواب والخطأ، وكنت داعماً لها. وهكذا كبرت من دون هيمنة ذكر، أعني كبرت طبيعية. في المدرســـة كان خنوع الفتيات وتصرفاتهنّ تقززني. لم أتعلم أي شيءٍ يجعل الذكور يعجبون بي، إطلاقاً. لم يحمر وجهي في مقابلهم، ولم أنتظر منهم مجاملةً أو مغازلةً أبداً. هذا الحال حكم عليّ بوحدة فظيعة. حتى صديقاتي يجدن صعوبة في تقبل آرائي، فهي لا تعجبهن ولا تريحهن. يفضّلون، بل ويجدونه أبسط وأكثر جاذبيـــة أن يكونوا مجـــرد دمىً يُلعَب بها بلطف عـــلى أن يصبحوا كاملي الآدمية. لم أستطع مصادقة الذكور. عندما يكتشفون أنني لست بااللقمة الســـائغة الناعمة التي يبحثون عنها، يفضّلون الهرب على أن يشـــعرون بأني أمثّل قوة مســـاوية لهم. وقتهـــا أدركت ماهية وحقيقـــة عزم وقوة

الذكور تماماً، ليس في الدنيا أي مخلوقٍ يركض خلف الإنجازات السهلة ولا يوجد أي مخلوق مغترٌّ ومعجبٌ بنفســه كالذكــر، وفي نفس الوقت جبــانٌ ولا يهتم إلا براحته. من بعد أن أدركت ذلك أصبح حبّي للرجال مســتحيلاً بالفعل. حتى الرجال الذين أعجبت بهم كثيراً، ورأيت بأنهم يشــبهونني في خصائص عديدة، رأيتهم وبكل بســاطة يظهرون أنياب الذئاب؛ فبعد رفقتنا التي أمتعتنا ســوياً بنفس الدرجة، أراهم يحاولون الإعتذار إليّ والمحافظة على علاقتنا، وفي نفس الوقت يجلســون بجانبي تعلوهم نظرات أحمقٍ يظنّ بأنه انتصر بشكل أو بآخر. لكنهم هم من كانوا في حال يؤسف له فعلاً، هم من كانوا يُظهرون بؤسهم إلى العلن. فليس هناك أي امرأةٍ مثيرةٍ للسخرية وعاجزة بقدر مايكون رجلٌ طموحٌ. لكن ورغم ذلك يظنّون أن هذه الأحوال هي من مظاهر القوة لدرجة تجعلهم مغرورين جداً. يا إلهي، الإنســان يُجنّ حينما يرى ذلك. رغم أني متأكدة من عدم وجود ميول غير طبيعية فيّ، إلا أني أفضل أن أقع في حب امرأة."
ســكنت قليلاً ثم دققت النظر في وجهي. شربَت قليلاً من الخمر. ومع استرسالها في الكلام كان يبدو أنها ترتاح وتتخلص من همها أكثر.

- "مالذي فاجأك؟"، قالت مسترســلة، " لا تخف، فلســت كما تظن. لكن ليتني أكون كذلك. سأكون قد فعلت شيئاً يحطّ من روح الإنسان أكثر. لكنني رســامة، تعلم.. لي معايير جمــال خاصة بي. لا أجد تبادل الحب مع امرأةٍ شــيئاً جميلاً. كيف أعبّر لــك؟ لا أراه جمالياً. في النهاية أنا أحــب الطبيعة، وأتصرف بتردد تجاه كل ماهــو غير طبيعي. بالتالي

أؤمن بـأن عليّ أن أحب رجلاً في النهاية. لكـن ليس أي رجل، رجل حقيقي، رجلٌ يستطيع جذبي إليه بلا اعتماد على أي قوة، ومن دون أن يطلب مني أي شيء، من دون أن يتسلط علي. رجلٌ يحبني ويمشي إلى جانبي من دون أن يذلني. أعني قـويٌّ حقاً، رجلٌ بمعنى الكلمة. هل تفهـم الآن لماذا لا أحبك؟ لم يمض وقـت كاف ليحصل حبٌّ أصلاً، لكن لسـت أنت ما أبحث عنه. مع أنك في الواقع ليس بك ذلك الكِبر الـذي تحدثت عنه، لكنك في كثير مـن النواحي تبدو كطفل، بل أكون دقيقةً أكثـر لو قلت كامرأة. مثل أمي تماماً، تبدو كمن يحتاج شـخصاً ليقودك. أسـتطيع أن أكون ذلك الشخص إذا أردت، لكن لا أكثر من ذلك. نسـتطيع أن نكوّن صداقةً رائعة. أنت أول رجلٍ ينصت إليّ دون أن يحاول مقاطعتي، أو تغيير رأيـي، أو إقناعي بشيءٍ ما. يتضح لي من نظرتـك أنك تفهمني.. كما قلت لك، نسـتطيع أن نكون رفاقاً في غاية الروعة. كما تحدثت أنا معك بصراحة تسـتطيع أنت أيضاً أن تخبرني عما بداخلك. هل هذا قليل؟ أم إضاعة هذا أيضاً بالطمع في المزيد أفضل؟ لا أريد ذلك أبداً. قلت لك مسـاء البارحـة أيضاً أن لي أحوال تناقض بعضها، لكن لا يجب لذلك أن يسـوقك لأفـكار خاطئة. ففي النقاط الرئيسية أنا لا أتغير أبداً. ما رأيك؟ هل نصبح أصدقاء؟..“

أبقاني كل كلامها هذا مبهوتاً. كنـت خائفاً من إصدار حكمي الأخير بحقها و اللذي كنت اشـعر بأنه لن يكون مصيبـاً. كانت هناك رغبةٌ واحـدةٌ في عقلي: أن أكـون قريباً منهـا، وألّا أنفصل عنهـا، وليكن

الثمـــن مايكون. لا تهمني البقية. لم أعتد أن أطلب من أي إنســـان أكثر ممـــا أعطاني. رغم ذلك كان في داخلي وجــومٌ غريب. نظرت في عينيها السوداوين اللتين كانتا تنتظران جواباً وقلت بصوتٍ ثقيل:

- "ماريا، أتفهمك تماماً. أرى أن تجاربك الحياتية ساقتك لقول كل هذه الإيضاحات، وأشكرك لفعلك ذلك منعاً لأي شيء قد يهزّ صداقتنا فيما بعد. معنى هذا أن لهذه الصداقة قيمة لديك."

هزت رأسها مصادقةً على كلامي، فأكملت:

- "ربـــما لم يكن هناك مايدعو لقول هذا كله. لكن من أين لك أن تعرف؟ فنحن لم نتعرف على بعضنا إلا منذ فترةٍ بسيطة. الإحتياط واجب. ليست لي تجاربٌ في هذه الحياة بقدر تجاربك، لم أتعرف إلا على أناسٍ قليلين وعشت دائما مع نفسي. أرى أننا ورغم سلوكنا طرقاً مختلفة، إلا أننا وصلنا لنفس النتيجة: كلانا يبحث عن إنســـان بعينه. إذا وجدنا هذا الإنسان في بعضنا فســـيكون ذلك ممتازاً. هذا هو أهم شيءٍ في الحقيقة، وكل المسائل المتبقية تعتبر من الدرجة الثانية. مجيئاً إلى علاقات الرجل والمرأة، يمكنك ان تثقي مـــن أني لن أكون في أي وقتٍ رجلاً يخشـــى منه. رغـــم أنه لم تكن لي أي مغامرات نسائية، إلا أنه لا يخطر على بالي أبداً أني أستطيع أن أحب إنساناً لا أقـــدّره وأجده قوياً مثلي. تحدثت عـــن الإذلال قبل قليل، الذكر الذي يسمح لكل ذلك بالحصول ينكر شخصية ذاته، وفي الحقيقة يذلّ نفسه. أنا أيضاً مثلك أحب الطبيعة وكل ماهو طبيعي، بل أســـتطيع أن أقول أيضاً أنني بقدر ما أبتعد عن الناس أكثر فإني أقترب من الطبيعة. وطني هو من

أجمل أماكن الدنيا. كثيرٌ من الحضارات التي درسناها في التاريخ نشأت واندثرت هناك. كنت أفكر وأنا أضطجع تحت أشجار الزيتون المعمّرة لعصورٍ طويلةٍ في الناس الذين جمعوا محاصيلها قبلي. في الجبال المكسوة بأشجار الصنوبر، رأيت جسوراً رخاميةً وعواميد مزخرفة في أماكن كان يُعتَقد أنه لم تدسها قدم إنسان. هؤلاء كانوا أصدقاء طفولتي ومواضيع خيالاتي، منذ ذلك الوقت وأنا أقدّم الطبيعة ومنطقها على كل شيءٍ آخر. لنـرَ، لتمشِ صداقتنا في طريقها الطبيعي أيضاً. دعينا لا نضع لها إتجاهاتٍ صناعية، أو نربطها بقراراتٍ مسبقة!"

ضربت ماريا بسبابتها يدي التي كانت على الطاولة:

- "لست طفلاً بالقدر الذي ظننت!"، قالت.

عيناها حائرة ومترددة تتجوّل في وجهي. شفتها السفلى والتي كانت مكتنزة برزت إلى الخارج أكثر، وهكذا أخذت حال طفلةٍ صغيرةٍ على وشك البكاء. وعلى عكس ذلك، كانت عيناها مفكرةً باحثة. أذهلتني قدرة وجهها على التغير وأخذ تعابير عديدة في زمن قصير.

- "هل لك أن تحكِ لي أشياء كثيرة عن حياتك، ووطنك، وأشجار زيتونك؟"، هكذا بدأت بالكلام. "وأنا أحدثك عن طفولتني وبعض الأشياءِ التي أتذكرها عن والدي. لا أعتقد أننا سنواجه صعوبة في إيجاد موضوعٍ لنتكلم فيه، لكن المكان هنا صاخبٌ جداً. ربما كان سبب ذلك أن الصالون خالٍ. المساكين يريدون أن ينتشي المدير بموسيقاهم على الأقل. آخ، لو تعلم معنى أن تكون مديراً هنا!"

- "هل هم فظون جداً؟"

- "ولدرجة لا تتخيلها! هذه أيضا أحد طرق التعرف على حقيقة الرجال عن قرب. فمثلاً مدير الأتلانتيك رجلٌ طيبٌ جداً، لكن ليس مع زبائنه، بل مع كل امرأةٍ لا تربطه بها علاقة المدير بالموظف. من المؤكد أنني لو لم أكن أعمل في ناديه الليلي لعاملني بلطف النبلاء وأذهلني بلباقته، بيد أنه يتغير في مواجهة الناس الذين يتلقون مالاً منه ويطلق على تصرفه عبارة "أخلاقيات العمل". لو قال أخلاقيات الكسب" لكانت العبارة أبلغ وأصدق. لأن الناس الذين يندفعون إلى الظلم وأحياناً إلى قلة الأدب، يتفوق خوفهم من التعرض للخيانة والخداع على رغبتهم في الحفاظ على جدية مؤسساتهم. هذا الرجل الذي قد يكون أباً لعائلةٍ أو مواطناً مخلصاً، لو ترى كيف أنه لايطلب مننا أن نبيع أصواتنا، ضحكاتنا، وأجسادنا فقط، بل وإنسانيتنا كذلك لاقشعر بدنك."

قطعت حديثها مغيراً دفة الحديث:

- "بماذا كان يعمل والدك؟"

- "ألم أخبرك من قبل؟ كان محامياً. لماذا سألت؟ أكان تفكيرك فيما أوصلني إلى هذه الحال هو السبب؟!"

لم أنطق.

- "يبدو أنك لم تتعرف على ألمانيا جيداً بعد. ليس هناك مايثير التعجب في حالي. أكملت دراستي بالمال الذي تركه أبي خلفه. لم يكن وضعنا بالسيء، وفي أثناء الحرب عملت كممرضة أعتني بالجرحى ثم أكملت

إلى الأكاديمية. ذهب دخلنا الضئيل ضحية التضخم، وأصبحت مجبرةً على التكسب. لســت متذمرةً من ذلك، فالعمل ليس بشيء سيء أبداً. ماكان يثير حنقي هو عدم تقبّل طلبنا للعمل من دون إهانتنا نفســياً. ثم أيضاً يزعجني أن أكون مجبرة على التعامل مع ســكارى وأناسٍ جائعين للحم البشري. أحيانــاً تكون لهم نظرات.. لا أكتفــي بأن أقول عنها حيوانيــة، ولو كانت بذلك القدر لكان معقــولاً.. لكنه شيءٌ أحطّ من الحيوانية. شيء مقرف...»

جالــت بنظرها في المكان. صخب الأوركســترا كان قد تضاعف أكثر وأكثر. كانت المرأة البدينة المرتدية للزي البافاري والتي يشــبه شعرها ظفائر الــذرة تغني أغانٍ جبليةٍ مرحةٍ بصوت عــالٍ، تُخرج من جوفها أصواتاً عجيبةً وهي تدور حول نفسها.

قالــت ماريا: "هيــا لنرَ، لنجلــس في مكانٍ هادئ... فــما زال الوقت مبكرًا!". ثم حدقت في وجهي بدقة وقالت:

- "أو ربما ضجرت مني؟ منــذ الصباح وأنا اجرك من مكانٍ إلى مكان وأزعجك بثرثرتي. ليس بجيد أن تكون النساء لصيقات بهذا القدر. أنا جادّة، إذا شعرت بالضجر فسأتركك تذهب!"

أمسكت بيديها. لم أستطع أن أجبها لمدة طويلة. لم أنظر حتى إلى وجهها. فقط عندما تأكدت من أنها فهمت مايدور بخلدي قلت:

- "أنا ممتنٌّ لك!"

- "وأنا أيضاً!"، قالتها وسحبت يداها.

وعند خروجنا إلى الشارع قالت:

- "تعال، لنذهب إلى مقهىً قريبٍ من هنا!"
- "إلى مقهى رومانيسشه؟"
- "نعم، أتعرفه؟ هل ذهبت إليه من قبل؟"
- "لا، سمعت به فقط!"

ضحكت قائلةً: »من أصدقائك الذين لايحل آخر الشهر إلا وهم مفلسون؟«
ابتسمت ونظرت أمامي.

سـمعت عن هذا المقهى الـذي يُعد وجهة للفنانـين في كل الأوقات بـأن لياليه، وابتداءً من السـاعة الحادية عشرة، تمتلئ بالمسـنين وهواة الفن، والفضوليين الشـبّان، ونساء الليل والقوّادين من كل الجنسيات والأعمار، وهم يحاولون جذب الأنظار. ولقدومنا إلى المقهى في سـاعة مبكرة لم يكن بها إلا فنّانون شـبّان. جالسون في مجموعات هنا وهناك، ويتناقشون بأصواتٍ مرتفعة. صعدنا على درجات سلمٍ من بين الأعمدة إلى الطابق العلوي. وبشقّ الأنفس وجدنا طاولةً فارغة.

حولنا رسّامون شـبّان يقلّدون في هيئتهم الفرنسيين بقبعاتهم الواسعة وشـعورهم الطويلة، ومحرّروا صحفٍ إخبارية في أفواههم غليوناتٍ، يكتبون أوراقاً بأصابعهم ذات الأظافر الطويلة. جاء إلينا شـابٌّ أشقر طويل القامة، وذو عارضين طويلين بعد أن أشار إلينا من بعيدٍ.

"مرحبـاً، مادونا صاحبة معطف الفرو!" قالها ممسـكاً رأس ماريا بين يديه؛ قبّل جبهتها ثم خدّيها.

أطرقت برأسي إلى الأرض وانتظرت، تحدثوا عن أشياء مختلفة، فهمت بأنهم كانوا قد عرضوا أعمالهم في نفس المعرض. وأخيراً شدّ الشابّ على يد ماريا وصافحها مودعاً وقال لي:

"في أمان الله أيها السيد الشاب!"، يبدوا أنه حياني على طريقة الفنّانين وذهب.

مازلت ناظراً أمامي. سألَت ماريا:

- "بماذا تفكّر؟"

- "خاطبتني بصيغة المفرد، ألاحظت ذلك؟"

- "نعم. ألا تريد ذلك؟"

- "ولم لا؟ شكراً!"

- "أف! الشكر لك كثيراً!"

- "نحن الشرقيون لبقون جداً. أتعلمين بم كنت أفكر؟ أنّ ذلك الرجل قبّلك ولم أشعر بأي غيرة."

- "أصحيح ذلك؟"

- "أتعجّب من عدم شعوري بالغيرة!"

تبادلنا النظرات لمدّةٍ بكلّ ثقة.

- "حدثني عن أنفسك قليلاً." قالت.

هـزت رأسي موافقاً. طيلة اليـوم وأنا أفكر في أشـياءٍ أحدثها عنها، لكنّـي لا أجد أياً منها في ذاكرتي الآن. كانت تمر بعقلي أشـياءٌ جديدة. في النهاية قررت الكلام بطريقةٍ ارتجاليـة. لم أكن أتحدث عن موضوعٍ معين. تحدثت عن طفولتي، خدمتي العسـكرية، ما قرأت من الكتب،

وخيالاتي، وجارتنا فخرية، ومن كنت أعرفهم من قطاع الطرق. كل ما كنت أخشـــى قوله عن نفسي لنفسي حتى، كان ومن دون سابق إنذار، يخرج من مكامنه التي يختبئ فيها ويندفع إلى الخارج. كنت ولأني أتحدّث عن نفسي مع إنســـان آخرٍ لأول مرة، أريد أن أُرى بكلّ عريي، دون أن أخفي شيئاً. كنت أجاهد نفسي محاولاً عدم الكذب أو تحريف شيءٍ عن نفسي أو تغيير أي شيء، حتى أن هذا الجهد كان أحياناً يدفعني للمبالغة في إظهار عيوبي، وبالتالي يحرفني عن قول الحقيقة كما هي.

كانت كل الخواطر والمشـــاعر المكبوتة بداخــلي لزمنٍ طويل وكل تلك الهيجانات المكبوتة مثل السيل يكبر ويزداد اندفاعاً كلما تقدم، ثم يتدفق إلى الخارج. عندما أراها وهي تنصت إلي باهتمامٍ شديد، وتحاول أن تفهم مشـــاعري بالنظر في تعابير وجهي وما لم أستطع أن أعبّر عنه بالكلام، كنت أشـــعر براحةٍ أكبر وأسترسل في الحديث. أحياناً كانت تهزّ رأسها بشـــدّةٍ كأنها تحاول أن تخبرني بأنها تصدقني، وأحياناً أخرى كانت تفغر فاها قليلاً من الدهشة والتعجب. وعندما كنت أنفعل كانت تمسّد يدي بلطف، وعندما تأخذ كلماتي طابع الشكوى تبتسم لي بعطف.

في لحظة، وكأنّ قوةً خارجيةً مجهولـــةً نكزتني، قطعت كلامي ونظرت إلى الســـاعة. كانت تقترب مـــن الحادية عشر مســـاءً. لم يتبقّ أحدٌ على الطاولات حولنا. وثبت من مكاني قائلاً:

"ستتأخرين على موعد عملك!"

استجمعت نفسها، ضغطت على يدي بقوةٍ أكبر، ونهضت بلا تعجّل:

"معك حق!"، قالت. واستطردت بعد أن اعتمرت قبعتها:

- "كانت جلسةً جميلة!"

أوصلتهــا إلى مقابل نادي الأتلانتيك. بالكاد تحدثنا ببعض الكلمات في الطريق. كلانا كان سارحاً شــارداً كأننا نريد أن نغرس انطباعات هذه الليلة في داخلنا. عندما اقتربنا من نهاية الطريق أحسست برعشة تسري في جسدي.

- "بســببي أنا لم تســتطيعي الذهــاب إلى البيت وارتــداء معطفك، ستبردين!"، قلت لها.

- "بسببك؟ هذا صحيح، بسببك. لكن الذنب عليّ أنا. لايهم. لنمش بسرعة!"

- "هل أنتظرك لأوصلك إلى البيت فيما بعد؟"

- "لا، لا.. أبداً. نلتقي غداًا!"

- "كما تريدين!"

التصقت بجانبي أكثر، ربما لكــي لاتبرد. عندما اقتربنا من الباب المنار بالأضواء الكهربائية توقّفت، ســحبت يدها مــن ذراعي ومدّتها إلي. كانت كأنها تفكر في شيءٍ شــديد الجدية. ســحبتني إلى زاوية الجدار. أخيراً، انحنت باتجاه وجهي، غــرزت نظراتها في الرصيف وقالت فيما يشبه الهمس ولكن بسرعة:

- "معنى ذلك أنك لاتغار علي! ها؟ أتحبّني فعلاً إلى هذا القدر؟"، وفجــأة رفعت عينيهــا ونظرت إلي بفضول. في هــذه اللحظة، ولعدم إيجادي كلمة تعبّر عما أشعر به، أحسست بضيق في صدري وجفاف في

حلقي. كنت خائفاً من أن أي كلمةٍ أو أي صوتٍ يصدر مني سيفسد عليّ سعادتي ويعكرها. كانت ما تزال تحدق في وجهي، ربما بشيءٍ من الخوف هذه المرة. لاحظت أن عينيّ كانتا تدمعان من اليأس. عندها هدأت ملامحها، وأغلقت عينيها كأنها كانت تستريح. ثم أمسكت برأسي وقبّلتني من فمي وأدارت ظهرها. ومن دون أن تقول شيئاً، مشت بسرعة إلى الداخل.

عدت إلى المهجع وكأنني أجري. لم أرد التفكير في أي شيء، أو تذكر أي شيء. ماحدث هذه الليلة كان عزيزاً وغالياً بالنسبة إلي لدرجة أني كنت أخاف حتى أن ألمسه بالتذكّر. كما كنت قبل قليلٍ أخشى من أن يفسد صوتٌ يخرج من جوفي سعادتي، فإنني الآن أخشى من أن تعبث ذاكرتي بتفاصيل ماحدث الليلة من أحداثٍ فريدة.

كان يبدو لي المهجع وهو مظلم السلالم جميلاً، وممراته الممتلئة بمختلف الروائح تروقني. منذ ذلك اليوم أصبحت ألتقي بماريا كل يوم وأخرج معها للتنزه. لم ينته كل شيءٍ نقوله لبعضنا من أول ليلة. كان أي شخص ممن نصادفه، والمناظر التي نراها تجعلنا نتحدث عن خواطرنا، وبالتالي نكتشف كم كانت أفكارنا قريبةٌ لبعضها. هذا التقارب الفكري، كان نتيجة تفكيرنا في كل شيءٍ بنفس الطريقة، رغم أنه أحياناً كان تأثير تقبُّل رأي الطرف الثاني وتبنّيه حاضراً. لكن أليس إيجاد قناعة من أمامك صائبةً وتبنّيك لها نوعٌ من التقارب الروحي معه أيضاً؟

كنا نرتاد المتاحف ومعارض الفن في أكثر الأحيان. وهي تتولى شرح

الفن الحديث والقديم وأساتذته لي، وتناقشني في قيمة كل منهم. ذهبنا عدة مـــراتٍ إلى حديقة النباتـــات أيضاً، وفي أحد المســـاءات ذهبنا إلى مسرح الأوبرا، لكن الدخول في الســـاعة العاشرة والخروج بعد نصف ســـاعةٍ ومن ثم التوجه إلى عملها كان سيكون جهداً لاداعي له بالنسبة لها، ولذلك تراجعنا عن الفكرة. ثم في يوم من الأيام قالت لي:

"لم يكن السبب ضيق الوقت فقط، بل لسببٍ آخرٍ أيضاً لم أرد الذهاب إلى الأوبرا. كان مجـــرد الخروج من مسرح الأوبرا ثم الذهاب للغناء في بار الأتلانتيك يبدو لي من أكثر الأشياء سخفاً على وجه الأرض."

كنت أذهـــب إلى المصنع قبل الظهر فقط، وبالكاد أصبحت أقابل نزلاء المهجع. فراو هيبنر بين حينٍ وآخر كان يقول لي:

"يبدوا أنك وقعت في شراك أحدٍ ما!"، وكنت أبتسم ولا أطيل الكلام معه. بالذات فراو تيدمان، لم أكن أريدها أن تعلم شيئاً. لم تكن ماريا تجد في ذلك مشكلةً، لكنني أنا، بل ربما عادةٌ لحقت بي من تركيا كانت تقنعني بوجوب ذلك.

في الواقـــع لم يكن هنـــاك شيءٌ نخبئه عن أحد. فمنذ أول ليلة اســـتمرت صداقتنا في حدودها التي قررناها لها، وماحدث مقابل الأتلاتنيك في تلك الليلة لم يذكره أيٌّ منا بأي شكل. في البداية كان ما يقربنا من بعضنا فضولٌ زائد. نقول في أنفســـنا ياترى ماذا هناك أيضاً، ونسترسل في الكلام. بعد ذلك أخذ مكان الفضول الاعتياد. عندما لانســـتطيع لقاء بعضنا ليومين أو ثلاث لســـبب ما فإننا نشـــتاق للقاء كثيرا، وعندمـــا نلتقي فإننا نبتهج

كأصدقاء صغارٍ افترقــوا عن بعضهم، ونمشي ممســكين بأيدي بعضنا. كنت أحبها جداً. أعتبر نفسي محظوظاً لأني أخيراً وبعد أن كنت أحسّ أن بداخلي حبٌّ محبوس يكفي كل الدنيــا، وجدت أحداً أصرف عليه ذلك الحب. هي أيضاً كان من المؤكد أنني كنت أروق لها، وأنها كانت تفتقدني في غيابي. لكنها لم تكن تعط لصداقتنا أي فرصةٍ لتتحول إلى شيءٍ آخر.

في يــوم من الأيام وبينما نحــن نتجول في غابةٍ قريبــةٍ من برلين تدعى غرونوالد ألقت بذراعها على رقبتي، واستمرت بالمشي متكئةً علي. يدها المتدلية من على كتفي تتأرجح بخفة وسبابتها تتحرك كأنها ترسم دوائر في الهواء. وبنزوةٍ لا أدري كيف تولّدت، التقطت يدها وقبلت راحتها. ســحبت يدها على الفور، لكن برفق. لم نتحدث بعدها واســتمرينا في التنزه. لكن جدّيتها في تلك اللحظة كانت قويةً وصريحةً لدرجة تمنعني من الانســياق وراء نزواتي مجدداً. في بعض الأحيــان كنّا نتناول بعض مواضيــع الحب. وفي كلّ مرةٍ أراها تتحدث عنه وكأنه شيءٍ بعيد عنها، شيءٌ لاعلاقة لها به أبداً، أشــعر بشيءٍ يتحطــم في داخلي. صحيح أني رضيت وقبلت بكل شروطهــا، لكني رغم ذلك، كنــت أحياناً أنقل موضوع الحديث ليصبح عنّا، وأحِاول تحليل صداقتنا. ليس للعشــق عندي مفهومٌ مجردٌ وواضح، كل أشــكال المودة والتحابّ والتعاطف التي تظهر في علاقات الناس ببعضهم هي في النهاية شــكلٌ من أشكال العشق. الإسم والشكل فقط هما ما يتغير بحسب الظرف الذي يكونان فيه. عــدم إعطاء الحب الذي يكون بين الرجل والمرأة اســمه الحقيقي

ماهو إلا خداعٌ لأنفسنا.
حينها كانت ماريا تلوّح باصبع سبابتها ضاحكةً:
"لا يارفيق، لا.. العشــق ليس كما تقولون مجرد تعاطف بســيطٍ أو محبةٌ عميقة. العشــق شيءٌ مختلفٌ تماماً، إنه إحساسٌ لانستطيع تحليله، كما أننا لانعرف من أين يأتي، لانعرف أيضاً إلى أين يهرب في يوم من الأيام. بينما الصداقة باقية، ومرتبطةٌ بالتفاهم. نســتطيع أن نستعرض كيف بدأت، ولو انتهت أيضاً فنستطيع أن نحلّل أسباب انتهائها. العشق شيءٌ لايمكن تحليله. ثــم فكّروا معي. كلنا لنا أناسٌ يعجبوننــا في هذه الدنيا، أنا مثلاً لدي عددٌ من الأصدقاء الذين أحبهم صدقاً، - أستطيع أن أخبركم بأن حضرتكم تأتون في مقدمتهم - ، الآن هل أعتبر عاشقةً لهم جميعهم؟"
قلت مصراً على رأيي:
- "نعم. أنتم عاشقون بدرجاتٍ متفاوتة لكل شخصٍ تحبونه!".
ردت ماريا بجوابٍ لم أتوقعه:
- "في هذه الحالة لماذا لاتغارون عليّ؟"
لم أستطع أن أجد شيئاً أرد به عليها، وبعد فترة صمتٍ أوضحت:
- "من كان في داخله القابلية على المحبّة الحقيقية فهو لايحصر هذا الحب على شــخصٍ واحد، ولايتوقع من أي أحــدٍ أن يفعل ذلك أيضاً. مهما كان عدد الذين نحبهم، فالشــخص الذي نحبه فعلاً نستطيع أن نحبه بنفس الدرجة التي نحب بها كل الآخرين، فالعشق ليس بالشيء الذي يتناقص إذا وزعته."

- " كنت أعتقد أن الحب الذي تتناوله كلمات الأغاني شيئاً مختلفاً!"
- "أنا لاأعتقد ذلك!"
قالت ماريا بعد أن ثبّتت عينها على نقطةً ما وشردت لمدةٍ طويلة:
- "العشق الذي أريده مختلف. عشقٌ خارج حدود المنطق، شيءٌ صعب التعريف، غامض الماهية. الإعجاب والحبّ شيئان آخران، أما الرغبة، بكل الروح، بكل الجسد، بكل شيءٍ.. هذه الرغبة هي العشق في نظري، رغبةٌ لا يمكن مقاومتها!"
عندها قلت بثقةٍ كأني أمسكت بها متلبسة:
- "ما قلته للتوّ ماهو إلا مسألة وقت. فالمحبة والاهتمام الموجود في داخلك، بشكلٍ غير معروف، وفي لحظةٍ لا يمكن تحديد زمانها، يتجمع فجأةً ويتكاثف؛ تماماً مثل أشعة الشمس اللطيفة عندما تتجمع في نقطةٍ واحدةٍ وتبدأ في الإحراق، تزداد قوة هذا الحب بشكلٍ غير عاديٍ، فيلفّكم ويلهبكم. الإعتقاد بأنه شيءٌ يأتينا من الخارج فعلٌ خاطئ، فماهو إلا استقواء مفاجئ لأحاسيس ومشاعرٍ موجودة بداخلنا في الأصل."
تركنا النقاش عند هذا الحد، لكننا تداولناه مجدداً في أيامٍ أخرى. لم أدر هل كان الحقُّ معي أم معها. لم أستطع التحديد. مهما أردنا أن نكون صريحين وواضحين مع بعضنا البعض، فمن المؤكد أن العديد مما خفي من أفكارنا الغامضة ورغباتنا كانت تلعب دورها أيضاً. ومهما كثر عدد النقاط التي نتّفق فيها، فسيبقى لدينا نقاطٌ نختلف حولها أيضاً، وإذا ما وافق أحدنا الآخر بسهولة، فإنه لايفعل ذلك إلّا في سبيل غايةٍ يراها أهم.

من بين كل النـــاس الذين صادفتهم، لم أكن قريبـــاً لأي أحدٍ منهم كما أنا من ماريا الآن، ولذلك فإن أهم مســـألةٍ عندي هي المحافظة عليها. ربما كانت غاية أمنياتي هي أن تكون لي، بكل وجودها المادّي والمعنوي، وبلا نقصان، لكنني خوفاً من أن أخسر ما بيدي حالياً، كنت أتخوف من أن أحوّل عينيّ إلى هذا الهدف، كشـــخصٍ يراقب عصفوراً جميلاً ويريد الإمساك به ولكن يخشى هروبه مع أي حركةٍ بسيطة تصدر عنه.

كنت أستشعر في نفسي بأن هذا الجمود، والتردد المبني على الخوف أشد ضرراً، وأنه في نقطةٍ ما ســـيخرج عن صمته، وأن كل خطوةٍ لا يخطوها الإنسان إلى الأمام فهي تعود به إلى الوراء، وأن اللحظات التي لا تقربه فهي بالتأكيد تبعده. كنت أفكر بكل هذا بســـوداوية، وأشعر في داخلي بقلقٍ يحرقنيَ بصمت ويكبر يوماً بعد يوم.

لكنني ولكي حتى أســـتطيع أن أفعل شـــيئاً عليّ أيضاً أن أصبح إنساناً آخـــر. ورغم أني كنت أعرف بأني كنت أدور حـــول نفس النقطة كثيراً إلا أننـــي لم أكن أعرف الطريق الموصل إليها، ولم أســـتطع البحث عنه. اختفى خجلي وضجري القديم. لم أعد أنطوي على نفسي كما في السابق، حتى أني أحياناً كنت وبشـــكلٍ مفرط أعـــرض روحي للجميع ليراها؛ لكن دائماً بشرط أن لا أمسّ هذه النقطة.

لا أعـــرف إذا ماكنت في ذلـــك الوقت أفكر في كل ذلـــك بهذا العمق والوضوح. اليوم، وبعد مرور أكثر من اثني عشرة سنة، أستعرض حالي في ذلك اليوم وأخرج بهذه النتائج. حتى أحكامي بشـــأن ماريا تخضع

لنفس عامل التصفية والتحليل الزمني.

في تلك الفــترة كنت أفهم أن ماريا أيضاً كانـــت تحت تأثير العديد من المشاعر المتباينة. فأحياناً تكون واجمةً جداً، وباردةً أيضاً، وأحياناً تبتهج فجأة، وترفع الكلفة معي لدرجةٍ لم أكـــن أفعلها مع نفسي حتى، كأنها كانت تعمل على إثـــارتي عمداً. لكن حالاتها هـــذه كانت تمر بسرعة، وتعود صداقتنا لوضعها القديم. حتى هي كان من المؤكدٌ أنها لاحظت، مثلي تماماً، بأن صداقتنا، وببقاءها في مكانها كما هي، ستدخل في مأزق. لكنهـــا، ومع عدم إيجادها لمن تبحث عنه، تـــرى أن الكثير من جوانب شخصيتي قيّمةٌ جداً لديها لدرجة أنها لا تستطيع التضحية بها، فتتخوف بالتالي من فعل أشياءٍ تظن بأنها ستتسبب بابتعادي عنها.

كانت كل هذه المشـــاعر المختلطـــة التي بدت وكأنهـــا خائفة من الخروج للضـــوء، تتجمع في أبعد ركـــنٍ في أرواحنا. ونحـــن، في الحقيقة كنا كما في السابق، صديقين حميمين يبحثان ويريدان بعضهما، وممتنّان لسعادة بعضهما. لكن فجأةً تغير كل شيءٍ وأخذ إتجاهاً لم نكن نتوقعه. كنّا في أواخر شهر كانون الأول، ذهبت أمها لتقضي عطلة رأس الســـنة إلى إحدى قريباتها الساكنة قريباً من براغ، وماريا كانت سعيدةً بذلك:

"من أكثر الأشياء التي تثير أعصابي في الدنيا هي تلك الشموع وأشجار عيد الميلاد المزركشـــة."، كانت تقول. "لا تظنّ أن ذلك بسبب أصولي اليهودية، فليس من الغريب أن أجد محاولة الناس إشعار بعضهم بأنهم ســـعيدون للحظة شيئاً ســـخيفاً. خاصة بأن الدين اليهودي فيه الكثير

من مثل هذه الأيام المقدسة، والممتلئة بالواجبات السخيفة والغريبة. في الحقيقة أمي البروتستانتية صاحبة الدم الألماني النقي، لم تتعلق بهذه العادات إلا بسبب تقدمها في السن وأنها لم تعد تجد ماتفعله. وإذا كانت تجد في أفكاري زندقةً، فسبب ذلك ليس قناعاتها الدينية فقط، بل لخشيتها من أن تسرق أفكاري راحتها النفسية في أيامها الأخيرة."

- "باعتقادك، أليس لعيد الميلاد أي أهمية؟" سألتها.

- "لا"، قالت. "في ماذا يختلف هذا اليوم عن أيام السنة الأخرى ياترى؟ هل ميّزته الطبيعة عن باقي الأيام بأي شكل؟ حتى إخباره لنا بأن سنةً أخرى مضت من عمرنا ليس بالشيء المهم أبداً، ذلك لأن تقسيم عمرنا على سنواتٍ هو من اختلاق الإنسان أيضاً. فما عمر الإنسان إلا طريقٍ يمتد من الولادة إلى الموت، وأي تقسيماتٍ أخرى فهي مختلقة. لكن دعنا من الفلسفة. إذا أردت، لنقضي ليلة عيد الميلاد في مكانٍ ما سويةً. عملي في حانة الأتلانتيك ينتهي قبل منتصف الليل، لأنهم يعرضون في تلك الليلة أشياءً أخرى مدهشة. سنخرج معاً، ونشرب للثمالة مثل الآخرين. كم هو شيءٌ جميلٌ أن نرمي نفسنا مع التيار ونتخلص من أنفسنا بين الحين والآخر. مارأيك؟ هذا يذكّرني، نحن لم نرقص معك من قبل. أليس كذلك؟"

- "لا، لم نرقص!"

- "أنا في الحقيقة لا أستمتع بالرقص كثيراً، ولكن أحياناً يثير من أراقصه إعجابي، ولهذا فقط أتحمل عبء الرقص."

- "في هذه الحال لا أعتقد بأني سأثير إعجابك!"
- "ولا أنا. لكن ليكن، فالصداقة تحتّم أحياناً بعض التضحيات!"
في ليلة رأس السنة تناولنا العشاء سويةً وجلسنا في المطعم نتسامر حتى موعد عملها. وعندما وصلنا إلى الأتلانتيك، ذهبت إلى مكانٍ في الخلف كي تبدل ملابسها. أما أنا فجلست على الطاولة التي جلست عليها في أول ليلةٍ أتيت إلى هنا. كانت الصالة من الداخل متلألئة بالنجوم والفوانيس الملونة والشرائط الورقية، والناس يبدون كالسكارى من الآن، وكل الراقصين متلاصقين ببعضهم يتبادلون القبل. في داخلي يتنامى شعورٌ بالضيق بلا سبب.
"والآن ماذا؟" سألت نفسي متابعاً. "ما المدهش في هذه الليلة فعلياً؟ نكذب الكذبة ونصدقها. لو ذهب كل الى بيته ونام لكان ذلك أفضل. ماذا سنفعل نحن؟ مثلهم، نحتضن بعضنا ونعود. الفرق هو أننا لن نقبّل بعضنا. هل سأستطيع الرقص يا ترى؟"
عندما كنت أدرس في معهد الفنون الجميلة بإسطنبول، أراني بعض الأصدقاء رقصاتٍ تعلموها من الروس البيض الذين كانوا يملأون المدينة في ذلك الوقت. كنت أؤدي بعضاً من رقصة الفالس، لكن هل سأنجح في تأديتها الليلة وأنا لم أفعل ذلك منذ سنة ونصف؟ قلت لنفسي: "يارجل، أدّ نصفها وعد للجلوس!"
استمر عزف ماريا للكمان وغنائها أقصر مما كنت أتوقع، وبعده بدأ ضجيج الغناء. لكن الناس كانوا منشغلين ببعضهم عنه. بدّلت ماريا ملابسها

وخرجنا فوراً، ذهبنا إلى مكانٍ كبير مقابل محطة أنهاتلر يدعى "أوروبا". هذا المكان مختلفٌ كلياً عن الأتلانتيك الصغير ذو الخصوصية. مئات الأزواج من الناس يتراقصون بحبورٍ وبهجة في صالاتٍ كبيرة وكثيرة، والطاولات ممتلئة بزجاجاتٍ ملونة بألوانٍ مختلفة. أناسٌ يترنحون وآخرون نائمون، وآخرون جالسون في أحضان بعضهم.

كانت ماريا في هذه الليلة منتشية ومبتهجة لدرجةٍ غريبة، تنكزني بذراعها وتقول:

- "لو علمت بأنك ستجلس عابساً هكذا لاخترت شاباً آخر ليصحبني!"

كانت تشرب زجاجات خمر الراني اللاذع واللذيذ بسرعةٍ تذهلني وترغمني على الشرب معها. بدأت احتفالات الكازينو الحقيقية بعد منتصف الليل. الهتافات، القهقهات، وصخب الموسيقى التي تُعزف من كل مكان، وجلبة إيقاع أقدام راقصي الفالس، كلها كانت تتمازج في هذا المكان. الإحتفالات الجامحة بنهاية سنوات الحرب كانت تُشاهد هنا بكل بهجتها. أجسادٌ نحيلة، ووجوهٌ عظامها بارزة، وعيونٌ لامعةٌ كأنها تعاني من مرضٍ عصبي، وشبّانٌ تاركين لأنفسهم الحبل على الغارب في حماسٍ لا محدود، وفتياتٌ يافعاتٌ يظهرون تمردهم وثورتهم على روابط المجتمع التي يرونها غير منطقيةٍ وظالمةٍ، بترك العنان لرغباتهم الجنسية بالظهور. كان حالهم مجزناً بالفعل. ناولتني ماريا قدحاً آخر هامسةً:

- "رائف، رائف. حالك ليس بالجيد. ألا ترى محاولاتي وما أفعله لكي لاأقع في قبضة الضيق والضجر والاكتئاب؟ هيا، لنخرج عن أنفسنا

هذه الليلة. لنفترض بأننا لسنا نحن، بأننا أحد الآخرين الذين يملأون هـــذا المكان في هذه الليلة. هل هم أيضـــاً فعلياً كما يظهرون كذلك؟ لا أريد. لا أريد أن أعين نفسي كأعقل وأذكى وصاحب أرقى إحســـاس من بين الناس. إشرب واضحك!"

لاحظت بأنها بدأت تثمل. نهضت من كرســيها وجلســـت بجانبي ملقيةً ذراعها على كتفي. قلبـــي بدأ بالخفقان كقلب عصفــورٍ وقع في مصيدة. كانت تظن بأني حزين، لكني في الحقيقة لم أكن كذلك. كنت سعيداً لدرجة أني لم أستطع الضحك، سعيدٌ لدرجة أخذي لسعادتي على محمل الجد.

بدأت موسيقى الفالس بالعزف، انحنيت على أذنها بخفة وهمست:

- "هيا.. لكني لا أرقص جيداً."

قالت وهي تثب من كرسيها وكأنها لم تسمع النصف الثاني من جملتي:

- "هيا!"

بدأنـــا بالدوران في داخل الزحام. لم يكن هذا نوعاً من الرقص، بل كان عبارةً عن انسياقٍ لتدافع الأجساد حولنا من مكانٍ لآخر. لكن كلانا لم يكن مســـتاءً. ركّزت ماريا نظرها فيّ. في هذه العينين الشاردتين، هناك شيءٌ ما لا أفهمه، يلمع ويدهشـــني بين حينٍ وآخر، ومن نحرها تعبق لجسدها رائحةٌ خفيفةٌ لكنها رائعة. لم ينقصني فوق كل هذا، فوق كوني قريباً منها، إلا أن أعرف أني أعني شيئاً لها.

"ماريا"، همست لها. "كيف لإنســـان أن يسعد إنساناً آخر بهذا القدر؟ لابدّ أن في داخله قوىً خارقةٌ مخفية!"

مرّ بعينيها ذلك اللمعان مجدداً. لكنهـا وبعد أن دققت النظر فيّ لوهلةٍ عضت على شفتها. كانت نظراتها ضبابية وبلا معنى.

- "هيا لنجلس!"، قالت. "ياله من زحام! سأبدأ في الملل غالباً!"

عادت تكرع أقداح الشراب من جديد. وبعد مدةٍ نهضت قائلةً:

- "سأعود فوراً!"، وابتعدت وهي تترنح.

انتظرت مدةً طويلة. رغم كل إصرارها ورجاءها إلا أني تفاديت الإكثار من الخمر، كنت أشعر بالدوار فوق كوني ثملاً. رأسي يؤلمني. ورغم مرور خمسة عشرة دقيقةً على ذهابها إلا أنها لم تعد بعد. بدأت بالقلق. بدأت بالبحث في دورات المياه، فربما تكون قد وقعت. كان هناك نساء يرتقن ما تقطع من ملابسهم وأخرياتٌ يتزيّنّ أمام المرآة. لم تكن ماريا بينهنّ. بحثت عنها بين النساء النائمات على الأرائك في زوايا الصالات، لم أجدها. فجأةً وصل القلق في داخلي إلى أقصى درجاته. كنت أركض من صالةٍ لأخرى مصطدماً بالواقفين والجالسين، أهبط درجات السلم قافزاً إلى الدور الأرضي لأبحث عنها، ولم أجدها.

في تلك الأثناء وقعت عيني من خلال زجاج بوابة الكازينو الدوارة الضبابية على شيء أبيض يقف في الخارج. قفزت إلى الباب، وعندما خرجت أطلقت صرخة. ماريا بودر، كانت ممسكةً رأسها بيديها ومستندةً على احدى الأشجار مقابل البوابة وملصقةً وجهها بها. لم يكن على ظهرها شيء سوى رداء خفيفٍ من الصوف و كانت ندفات الثلج تتساقط على شعرها وقفاها. وعندما سمعت صوتي التفتت وقالت مبتسمةً:

- "أين كنت؟!"
- " بل أنت أين كنت؟ ماذا تفعلين هنا؟ هل جننتم!"، صرخت.
قالت واضعةً إصبعها على شفتيها:
- "اسكت! أردتُ استنشاق بعض الهواء النقي والتبرد. هيا لنذهب!"
أدخلتها بصعوبةٍ إلى الكازينو، وجدت كرسياً فارغاً وأجلستها. صعدت إلى الأعلى، دفعت الحساب وأخذت معطفي ومعطفها الفروي، ثم بدأنا بالمشي بخطواتٍ مدفونةٍ في الثلج.

كانت تحاول التمسّك بذراعي بقوةٍ والمشي بسرعة. الشوارع مليئة بأزواجٍ من السكارى. والشوارع الرئيسية ممتلئةٌ بتجمعاتٍ للناس وبنساء خارجات يتجوّلن بألبسةً خفيفةٍ وكأننا في فصل الصيف، يتضاحكون ويطلقون قهقهاتٍ ويغنّون في مثل هذا الطقس وبعد منتصف الليل بثلاثة ساعات، وكأن فجر الربيع دخل مؤذناً بنهاية الشتاء.

كانت ماريا تسحبني لكي نمشي من بين هؤلاء السكارى المنتشين بسرعةٍ أكبر. وتقابل من يقذفها بكلمةٍ أو يحاول التعلق برقبتها بابتسامةٍ باردة وتخلص نفسها منهم وتعود إلى سحبي من جديد. فهمت خطئي بظنّي أنها كانت ثملة إلى حدٍ لاتستطيع المشي معه.

وعندما وصلنا إلى شوارع خاليةٍ نسبياً خففت من سرعتها. كانت تتنفس بسرعةٍ وشدة، صدرت عنها تنهيدة "أوه!" عميقة، ثم التفتت لي قائلةً:
- "مارأيك؟ هل أنت سعيدٌ بهذه الليلة؟ هل استمتعت؟ آه، أنا استمتعت جداً، لدرجة أني.."

بدأت في الضحك مقهقهةً، ثم تحول الضحك إلى سـعالٍ فجأةً. تتلوى وكأنها تختنق، وصدرها يرتعش، لكنها لم تترك ذراعي. وعندما سكنت قليلاً قلت:

- "ماذا حدث لك، أرأيتي؟ أمرضت نفسكِ!"

قالت بوجهٍ ضاحك:

- " آه، لقد استمتعت لدرجة!.."

كنت خائفاً لدرجة أني كدت أبكي، هذه المرة كنت أنا من يريد إيصالها إلى بيتها بسرعة. ومـع اقترابنا من نهاية الطريـق كانت خطواتها تثقل أكثـر فأكثر. اتضح أن قوتها وتحكمها بدا يخذلانها، كان الهواء البارد قد أذهب سكرتي تماماً. كنت أسحبها ممسكا بها من خصرها، وأدوس على قدمها بين خطوةٍ وأخرى. كنا على وشـك التدحرج على الثلج بينما كنا نحـاول العبور من رصيفٍ إلى آخر. الآن هـي تتمتم بكلماتٍ لا تكاد تُسـمع. في البداية ظننتها تحاول همهمة أغنيةٍ ما، ثم وعندما فهمت أنها تخاطبني أصخت سمعي:

" نعـم، هكذا أنا."، كانت تقول. وتابعت: "رائف.. حبيبي رائف. أنا هكذا كما ترى، ألم أقل لك من قبل؟ كل يومٍ لي حالٌ مختلف. لكن ليس هناك داعٍ للتكدر، أنت ولدٌ طيبٌ جداً. من المؤكد أنك كذلك!"

وفجأةً بدأت تشهق، ثم بدأت تعيد كلماتها:

- "لا، لا ، مامن داعٍ للتكدر.."

بعد نصف ساعةٍ وصلنا قبالة الباب. انتظرت مسندةً ظهرها إلى جدار السلم.

- "أين المفاتيح؟" سألتها.
- "لاتغضب مني، رائف. لا تغضب! المفاتيح في جيبي!"
أدخلت يدها في أحد جيوب معطفها الداخلية وناولتني ربطة مفاتيح. فتحت الباب، وعندما عدت إليها لأساعدها في الصعود إلى الأعلى تملّصت مني، وصعدت درجات السلم ركضاً.
- "ستسقطين!"، قلت محذراً.
قالت وهي تتنهد:
- "لا، سأصعد بنفسي!"
تبعتها لأن المفاتيح ما زالت معي، وفي أحد الأدوار هتفت لي من الظلام:
- "أنا هنا.. افتح الباب!"
فتحت الباب. ولجنا إلى الداخل معاً. أشعلت ضوء غرفتها. أول مارأته عيني كان أثاثاً قديماً لكن معتنىً به جيداً، ومنضدةٌ جميلةٌ من خشب البلوط. كنت واقفاً في منتصف غرفتها من غير حركة، نزعت معطف الفرو تاركةً إياه في ركن الغرفة وأشارت إلى كرسيٍ قائلةً:
- "اجلس!"
ثم جلست على طرف سريرها، وبسرعةٍ كبيرةٍ نزعت حذائها وجواربها. تخففت من ملابسها وألقتها على كرسيٍ ثم تغطت بلحافها. نهضت من على الكرسي. مددت يدي إليها من دون أن أنطق بشيء. تفحصتني بنظراتها وكأنها تراني لأول مرة، وسَرَت على وجهها ضحكةٌ ثملى. أخفضت عيني، وعندما نظرت إليها مجدداً وجدتها نصف مستويةٍ

بالجلوس، وعيناها ترمشـــان بصعوبةٍ كأنها تحأول التملص من النوم. كتفهـــا الأيمن وذراعها النافران من بـــين الأغطية البيضاء كانا أبيضين وشاحبين كوجهها تماماً. كان مرفقها مستنداً على الوسادة.

"ستبردين!"، قلت لها.

ســحبت ذراعي بسرعةٍ وأجلســتني على طرف السرير. ثم دنت مني، وأمسكت بيديّ بغتةٍ، وقالت وهي تضع وجهها على راحتي يدَي:

– "آه يارائف.. معنى هذا أنك أنت أيضا تســتطيع أن تصبح كذلك؟ الحق معك. لكن ماذا أفعل؟ لو تعلم، آه لو تعلم.. لكننا استمتعنا أليس كذلك؟ بالتأكيد. لا، لا، أعرف! لا تســحب يديك.. لم أرك هكذا من قبل أبداً بهذه الجديّة! لكن ما السبب؟"

رفعتُ رأسي. جلســت بجانبي حانيةً ركبتهاواضعةً يديها على خدَّي، ثم قالت:

– " اســمعني! ما تفكر به ليس بصحيح، سأثبت لك ذلك. في الحقيقة سأثبته لنفسي. لماذا تقف هكذا؟ ألم تصدقني بعد؟ ألا يزال بك شك؟"

أغمضت عيناها، كأنها كانت تحاول الإمســاك بشيءٍ هاربٍ يستمر في الإفلات منها في عقلها، جبهتها ومابــين حاجبيها كان مقطباً، وعندما لاحظت ارتعاش كتفيها المتعرقين سحبت اللحاف وغطيت به ظهرها واستمريت بالإمساك به لكي لاينزلق.

فتحت عيناها. وقالت ضاحكةً كالمذهولة:

"هكــذا.. أنت أيضاً تضحك أليس كذلك؟"، ثــم وجّهت نظرها إلى

زاوية الغرفة غير قادرةٍ على إكمال كلامها.
انسدل شـــعرها على جبهتها، وظِل رموشـــها منعكسٌ على أعلى أنفها بســـبب الإنارة الجانبية. كانت شفتها السفلية ترتعش بخفة. وجهها في هـــذه اللحظة كان أجمل من الوجه الـــذي كان في لوحة المعرض، ومن الذي كان في لوحة مادونا الهاربيز. وباليد التي كانت ممســكةً باللحاف سحبتها نحوي.
أحسست بارتجاف جسدها. قالت بصوتٍ منخفض:
- "بالطبع.. بالطبــع.. بالطبع أنا أحبك. بل وأحبك جداً. وهل هناك إمــكانٌ لغير ذلك؟ بالطبع أنا أحبك. بالتأكيــد أحبك. لكن لماذا أنت متفاجئ؟ أكنت تتوقع شيئاً آخر؟ أفهم مدى حبك لي، وأنا أيضا أحبك حباً لا شبهة فيه."
سحبت رأسي إليها وأغرقت كامل وجهي بالقبلات.
عندما استيقظت صباحاً أحسست بأنفاسها العميقة والمنتظمة، متوسدةً ذراعها نائمة وظهرها إلي. شعرها منسدلٌ على شكل أمواجٍ على الوسادة البيضاء، ثغرها نصف مفتوحٍ وعلى طرفه كانت هناك بضع شــعرات. أنفها يتحرك مع أنفاسها، والشعرات التي كانت على فمها كانت ترتفع وتسقط مع الشهيق والزفير.
تركت رأسي على الوسادة، وانتظرت متأملاً في السقف. في داخلي عجلةٌ شديدة وصبرٌ نافذ. كنت أفكر، كيف ستنظر إليّ عندما تستيقظ، وماذا ســتقول لي. لكني وبلا سبب، كنت أخاف من اســتيقاظها. لم أجد في

داخلي الشعور بالأمان والسكون الذي كنت أتوقعه عندما أستيقظ. لم أكن أفهم سبب ذلك. لماذا أتصرف وإلى الآن مثل متهمٍ ينتظر صدور الحكم عليه، وصدري يرتجف؟ ماذا أريد منها فوق ذلك؟ ماذا كنت أنتظر أكثر من ذلك؟ ألم تتحقق كل أمنياتي؟

كان في داخلي فراغٌ دون أن يملأه أحد، وكنت أشعر بهذا الفراغ وهو يسحقني فعلياً. شيءٌ ما كان ناقصاً، لكن ماهو؟ كنت كإنسان مهمومٍ يشعر بأنه نسي شيئا بعد أن خرج من بيته لكن لايعرف ماهو. يتوقف، يقلب جيوبه، ثم يكمل مشيه بعد أن فقد الأمل في معرفة مافقد.

لاحظت توقف أنفاس ماريا المنتظمة منذ مدة. رفعت رأسي ببطءٍ ونظرت لها.

كانت عيناها متعلقتان في نقطة ما وهما تنظران إليها. لم تتحرك أبداً، ولم تبعد الشعر المنسدل على وجهها حتى. حتى عندما لاحظت أني أنظر إليها لم تلتفت إليّ واستمرت بالنظر إلى النقطة المجهولة. لم ترمش بعينيها. فهمت أنها كانت مستيقظةً منذ مدةٍ طويلة فتضخم القلق في داخلي فجأةً، وشعرت بطوقٍ يلفّ صدري ويخنقه. أشعر بالضيق وأنا أفكر في كون كل هذه التخمينات والتخوفات عديمة الجدوى، وأنها تسببت في عتمة أكثر أيام عمري ألَقاً.

سألتني من دون أن تلتفت:

- "هل استيقظت؟"

- "نعم! هل مضى كثيرٌ من الوقت على استيقاظك؟"

- "بعض الوقت!"
أعطاني صوتها قليلاً من الجرأة. أدخل صوتها المألوف لي والموقظ لأجمل الذكريات في خاطري انشراحاً إلى صدري، كرفيقٍ موثوقٍ به دخل فجأة. لكن ذلك التأثير استمر يوماً واحداً فقط. قالت لي: «هل استيقظتم؟». صحيحٌ أننا في الأيام الأخيرة مراتٍ نخاطب بعضنا بصيغة المفرد - أنت - ومراتٍ أخرى بصيغة الجمع، لكن هل كان يجب أن تخاطبني بهذه الطريقة في صباح هذه الليلة؟
ربما لم تستيقظ من نومها تماماً بعد. التفتت نحوي وهي على السرير. كانت تبتسم. لكنها لم تكن تلك الابتسامة المعتادة الحميمة النابعة من القلب، بل كانت أشبه بالابتسامة التي كانت تقابل بها زبائن الأتلانتيك.
- "ألن تنهضوا؟"، سألتني.
- "سأنهض! وأنتِ؟"
- "لا أدري. لاأشعر بأني على مايرام. ربما بسبب الشراب.. كما أن ظهري يؤلمني أيضاً.."
- " ربما أخذتِ نزلة بردٍ ليلة البارحة! .. هذه نهاية الخروج إلى الشوارع شبه عارية!"
هزت كتفيها وعادت إلى وضعيتها الأولى مديرةً ظهرها نحوي. نهضت، غسلت وجهي وارتديت ملابسي بسرعة. شعرت بها تتابعني بطرف عينها.
كان في الغرفة جوٌ خانق. أردت أن أستوضح الأمر:

- "هبط على كلانا صمتٌ غريب. ما الذي يحدث؟ هل بدأنا بالسأم من بعضنا كالمتزوجين؟"
نظرت إلى وجهي بعيونٍ لم تفهم ما أقصده. شعرت بالضيق أكثر وسكتّ، ثم جلست على السرير، أردت أن أربت على كتفها، وأذوّب الجليد الذي بيننا قبل أن تزيد سماكته. استوت جالسةً، وتركت ساقيها تتأرجحان على طرف السرير ثم وضعت سترة على ظهرها. ما زالت تنظر إلى وجهي، كان هناك شيءٌ يمنعني من الإقتراب منها أكثر. وأخيراً، قالت بصوتٍ غايةٍ في السكون:
- "ما الذي يزعجك؟"، كسا وجهها فجأة لونٌ ورديٌ لم أره من قبل، وصدرها كان يعلو ويهبط ببطء. أكملت قائلة:
- "ماذا تريد أكثر؟ هل تريد شيئاً آخر؟ لكن أنا أريد، أريد أشياءً كثيرةً ولكني لا أستطيع أن أحصل على أيٍّ منها. جربت كل الطرق، ولافائدة.. ربما أنت سعيدٌ الآن، لكن أنا، ماذا أفعل؟"
سقط رأسها إلى الأسفل، وتدلّت يداها كأنها ميتة. قدماها العاريتان تلامسان السجادة. ترفع إصبع قدمها الكبير وتنزل الأصابع الأخرى. سحبت كرسياً وجلست مقابلها. تناولت يديها، وقلت بصوتٍ يرتعش من الخوف، خوف إنسان على وشك أن يفقد أعزّ مايملك:
- "ماريا! ماريا! مادوناتي صاحبة معطف الفرو! ماذا حصل فجأة؟ ماذا فعلت لك؟ وعدتك بأني لن أطلب منك شيئاً أبداً. ألم أفِ بوعدي؟ ماذا حصل فجأةً في وقتٍ هو أجدر الأوقات بأن نكون فيها أكثر قرباً

من بعضنا؟"

قالت تهز رأسها:

- "لا يارفيق، لا!.. نحن أبعد من بعضنا من أيّ وقتٍ مضى! لأني الآن لم يعد لديّ أمل. هذه هي النهاية. قلت لنفسي لأجرب هذا أيضاً، فلربما كان هذا ماينقصني. لكنه لم يكن كذلك. ذلك الفراغ موجودٌ في داخلي دائماً، وهو مستمرٌ في التوسع.. ماذا عسانا أن نفعل؟ الذنب ليس ذنبك، أنا لست مغرمةً بك. وعدم استطاعتي لحبي لك أفهمني جدياً بأنني لن أستطيع أن أحب أيّ أحدٍ في هذه الدنيا، وأن عليّ أن أتخلى عن كل آمالي. لكن ليس بيــدي شيء، أنا هكذا، وليس هناك خيــارٌ غير تقبل ذلك. حاولت كثيراً، تمنيت أن أتغير وأكون شــخصاً آخر، يا رائف.. رفيقي صاحب القلب الطيب. كن متأكداً بأني حاولت أن أكون شخصاً آخر، أكثر مما تمنيتني أن أكون. ماذا أفعل؟ عدا لذاعة شراب البارحة في فمي، وألم ظهري المطّرد، فأنا لا أحس بأي شيءٍ آخر."

صمتت لمدة وأغمضت عينيها. سرت في وجهها نعومةٌ حلوة، ثم قالت بصوتٍ عذبٍ وكأنها تحكي أقصوصةً سمعتها في طفولتها:

- "مســاء البارحة، وبعد أن جئنا إلى هنا، تمنيت أشــياء كثيرة. ظننت أني بفعل يدٍ سحريةٍ سأتغير تماماً، وبأني سأشعر بحماس طفلةٍ صغيرةٍ في روحي يهيمن عــلى كل حياتي، وبأنني سأســتيقظ وكأنني أولد مــن جديدٍ لدنيا جديــدة. لكن ما أمرّ الحقيقة.. الهواء مازال كــما هو مكتوم، غرفتي باردةٌ، وبجانبي، وبرغم كل شيء، شــخص غريبٌ، ورغم كل قربه مني، إلا أنه

منفصل. إنسان مختلفٌ عني، وفي عضلاتي تعبٌ وفي رأسي ألم يكبر.."
تغطت باللحاف مجدداً، وتمددت على ظهرها مغمضةً عينيها بيديها وتابعت:
- "معنـــى كل هذا أن الناس لا يســـتطيعون أن يقتربوا من بعضهم إلّا إلى حدٍ معين، وبعـــد ذلك فإن كل خطوةٍ هدفها الإقتراب تبعدهم عن بعضهـــم أكثر. كم أردت أن يكون فيما بيننا حدٌ لا نتعداه. مايحزنني هو أن هذا الأمل لم يتحقق. لم يعد هناك داع لنخدع أنفســـنا، لن نســـتطيع أن نتحـــدث براحةٍ كما كنا نفعـــل. لماذا ولأي ســـبب ضحينا بذلك؟ لاشيء! أضعنـــا مانملكه طامعين فيما هو غـــير موجود. هل انتهى كل شيء؟ لا أعتقد. أعلم أن كلانا ليـــس بطفل، لكني أعتقد بأن علينا أن نرتاح ونبتعد عن بعضنا لمدة، إلى أن نشـــعر بحاجةٍ ملحةٍ لرؤية بعضنا من جديد. هيا يا رائف. عندما يأتي ذلك الوقت ســـأخبرك؛ ربما نعود رفيقين مـــن جديدٍ وفي هذه المرة نتصرف بذكاء. لانســـتطيع أن نطلب ونتوقع من بعضنا أكثر مما نســـتطيع أن نعطي. هيا اذهب الآن، أرغب بشدةٍ بأن أجلس وحدي."
أنزلت يديها عن عينيها. كانت تنظر إليّ وكأنها تترجاني. مدت ذراعها، قبضت على أطراف أصابعها وقلت: «في حفظ الله».
- "لا، لا تذهب هكذا، ساخط علي.. ماذا فعلت لكم؟"، كانت تصرخ.
قلت وأنا أحاول بشـــدةٍ أن أتحكم في أعصابي: »لســـت بساخط، إنما أنا متأثرٌ فقط.»
- "وأنا؟ ألست متأثرةً أيضاً؟ ألا ترى حالي؟.. لا تذهب هكذا.. تعال!"

ســـحبت رأسي نحو صدرها ومسدت على رأسي، مسحت على وجهي وخدي، قالت:

- "إبتسم لي مرةً ثم اذهب!"

ابتسمت ثم خرجت مغطياً وجهي بيدي.

بدأت بالمشي عشوائياً في الشارع بلا وجهة. الشوارع خالية، وأكثر المتاجر مقفلة. كنت أمشي باتجاه الجنوب. من جانبي تمرّ عربات المترو بزجاجها الضبابي، وباصات نقلٍ صغيرة. مشيت. بدأت بيوتٌ بواجهاتٍ مظلمةٍ وحدائق مرصوفةٌ بالظهور، أكملت ســـيري، فتحت أزرّة معطفي لأني تعرقت. وصلت إلى طرف المدينة، استمريت في المشي، مشيت من تحت جسور ســـكك الحديد ومن فوق قنوات الماء المتجمدة.. مشيت فقط. مشـــيت لســـاعات، لم أكن أفكر في شيء، عيناي كانتا تطرفان من البرد وبخطىً سريعةٍ كنت أتقدم. على جانبيّ كانت هناك غاباتٌ منتظمةٌ من أشجار الصنوبر، بين حين وآخر كانت كتل الثلج تتساقط من أغصانها إلى الأرض محدثـــة صوتاً عاليـــاً. يمر من جانبي أنـــاسٌ على دراجاتٍ هوائيـــةٍ، وهناك من بعيدٍ قطار يقترب مزلزلاً ما حوله. مشـــيت.. على جهة اليمين كانت هنـــاك بحيرةٌ كبيرةٌ وفوقها تجمـــع أناسٌ يتزلجون. ذهبت إلى تلك الجهة ماراً من بين الأشـــجار. في كل أنحاء الغابة كانت هناك آثار تزلجٍ طويلة ومتداخلةٍ ببعضها، وأجماتٌ من أغراس صنوبرٍ محاطةٌ بأســـياج. من البعيد يظهر كازينو خشبي ريفي ذا طابقين، وعلى البحيرة فتياتٌ بتنانير قصيرةٍ وفتيانٌ يتزلجون بلا توقف، يرفعون ساقاً

في الهواء ويدورون حول أنفسـهم، ممسـكين بأيدي بعضهم .أوشحة الفتيات وشـعر الفتيان الأشـقر يتطاير مع الهواء، وأجسادهم تتلوّى بحركاتٍ منتظمة يمينا ويسـاراً، وأطوالهـم كأنها تطول مع كل خطوةٍ وتقصرُّ مع الأخرى.

كنت أعير انتباهاً لكل ذلك. أمـضي وقدماي تغوصان في الثلج حتى الكاحل وأدقق انتباهي في كلّ شيء. تجولت من خلف الكازينو الريفي ذاهباً إلى أسفل الأشـجار التي تتواجد مقابله. شعرت بأني رأيت هذا المكان من قبل، ولكنني لم أسـتطع تذكر متى ولا كيف. وبعد الكازينو الريفي ببضع مئاتٍ من الأمتار، وفي مكانٍ مرتفعٍ نسـبياً، كانت هناك أشـجارٌ معمرة. توقفـت هناك، وبدأت من جديد في مشـاهدة جموع الناس وهي تتزلج على البحيرة.

ربما مشيت لأكثر من أربع ساعات. مشـيت غير واعٍ بسبب مجيئي إلى هنا، ولا بسبب عدم عودتي إلى الطريق الصحيح. خفّ شعور الاحتراق في رأسي، واختفى شعور مشي النمل في داخل أنفي. لكن كان في داخلي شـعورٌ فظيعٌ بالفراغ. ما ظننت بأنهـا المرحلة الوحيدة في حياتي الغنية وذات المعنى، فرغت وفقدت كل معناها. مثل إنسان استيقظ للحقيقة المرة من منـامٍ رأى فيه كل آماله تتحقق. لم أكن سـاخطاً عليها فعلياً، ولم أكـن لأغضب أبداً. لكني كنت متأثراً فقـط. "هذا ماكان يجب أن يحصل"، كنت أقول لنفسي. معنى كل ذلك أنها لم تكن تحبني أبداً. معها حق. فطوال حياتي لم يحبني أي أحد، أبداً. النسـاء مخلوقاتٌ عجيبة في

الأصل. عندما أريد إستجماع كل ذكرياتي لإصدار حكمٍ عليهن، فإني أصـــل إلى نتيجة أنهن فعلياً غير قادرات على الحب. المرأةُ لا تحبّ عندما تستطيع أن تحب، لكنها فقط تحزن على رغباتٍ غير ملبّاة، وتريد إصلاح ذاتها المكســـورة. تحترق على الفرص المضاعة، وكل ذلك يظهر لها تحت وجه الحب. لكنـــي وبتفكيري بهذه الطريقة عرفت أني أخطأت في حق ماريا. رغم كلّ شيء، لم أكن لأعدهـــا مخلوقاً من هذا النوع. إضافة إلى ذلك، فأنا رأيت حجم الإضطراب التي كانت تعانيه. لم يكن من الممكن أن كلّ حزنها كان بســـببي. هي أيضاً كانت تحترق على شيءٍ بحثت عنه ولم تجده. لكن ماذا كان ذلك؟ مـــاذا كان ينقصني، أو بعبارةٍ أصحّ، ما الشيء الذي كان ينقص علاقتنا؟

ياله من شيء مر، أن نكتشـــف بعدما كنا نظن أن امـــرأةً ما أعطتنا كل ماعندهـــا، أنها لم تعطنـــا أيّ شيءٍ في الواقع، وأننـــا في الوقت الذي كنا نظنها أقرب ما تكون إلينا نكتشـــف بأنها كانت أبعد من كل المسافات. لم يكن يجب أن ينتهي كل شيءٍ هكذا. لكن وكما قالت ماريا، لم يبق شيٌ لنفعله؛ من طرفي أنا بالذات.

ما هو مبررها في أن تفعل بي ما فعلته؟ منذ ســـنواتٍ، وعمري يمرُّ دون حتى أن أحس بفراغها. حتى لـــو أني هربت من الناس، لعزوت ذلك إلى طبيعتي وأكملت حياتي كما هي هارباً منهم، لكني لا أملك أي شيءٍ يجعلني راضياً عن هذه الحياة. نعم، كنت أشعر بوحدتي وأحزن لذلك، ولكننـــي لم أعش على أمل أن هناك ما يمكن أن ينقذني من ذلك. عندما

ظهرت لي ماريا، بل عندما ظهرت لوحتها مقابلي، كنت في هذه الحال. لكنها أخرجتني فجأةً من دنياي الساكنة والمظلمة إلى النور، وإلى الحياة الحقيقية. لم أكتشف وجود روحٍ لي إلا وقتها. والآن، تماماً مثل ظهورها اللحظي بلا سـبب، ها هـي تذهب. لكن ليس هنـاك إمكانٍ لعودتي لسـباتي من جديد. سـأمضي ما تبقى من حياتي أتجول في كل الأماكن، أتعرف على أناسٍ من لغاتٍ أعرفها ولا أعرفها، وفي كل مكانٍ، وفي كل الناس، سأبحث عن ماريا، عن مادونا ذات معطف الفرو. أعرف منذ الآن أنني لن أجدها، لكن ليس بيدي سوى أن أبحث عنها. كان هناك شيءٌ يسـتوجب عليّ أن أبحث طوال عمري عن مجهولٍ، عن شيءٍ غير موجود، كان عليها ألا تفعل ذلك.

كانت السـنوات القادمة تبدو لي بأنها ستكون حزينةً بشكلٍ لا يطاق. لم أكن أستطيع تقبل أي سبب يجعلني أتحمل كل تلك المشقة، وكأن ستائراً انسدلت عن عيني. تذكرت المكان الذي كنت فيه. هذه البحيرة، كانت بحيرة وانـسي. في يومٍ من الأيام وبينما كنا أنـا وماريا ذاهبين للتنزه في حديقة قصر فريدريك الثاني الواقع في بوتسدام، أشارت لي من القطار إلى البحيرة، وأخبرتني أنه وتحت الأشجار التي أجلس تحتها الآن، وقبل أكثر من مئتي سنة، انتحر شاعرٌ ألمانيٌ تعيسٌ اسمه كليست مع حبيبته.

مـا الذي جـاء بي إلى هنا؟ لماذا عندمـا وقعت عيني عـلى هذا المكان بينما أمـشي جئت اليه؟ بل مـا الذي جعلني وبمجـرد خروجي من المنـزل أتوجه إلى هنا. أكان مجيئي إلى المكان الذي انتحر فيه العاشـقين

وانفصلا فيه بعد انفصالي عن أكثر إنســان أثق فيه في هذه الحياة، وبعد استــماعي لقولها بأنّ الناس يستطيعون الإقتراب من بعضهم لحدٍّ معينٍ فقط.. أكان ذلك عبارةً عن جوابٍ أرد به عليها؟ أم كنت أســعى فقط لخداع نفسي؟ أم أردت تذكر إمكانية لقاء العشــاق الذين لم يتخلو عن بعضهــم في منتصف الطريق؟ لم أكن أعرف. لا أعرف حتى إذا ماكنت فعلاً قد فكــرت بهذا في ذلك الوقت. لكن المــكان الذي كنت فيه بدأ بإحراق الأرض تحت قدمي! أصبحت وكأنني أرى جثتي العاشــقين ممــددةً بجانــب بعضها عــلى الأرض؟. المرأة برصاصــة في صدرها، والرجل برصاصةٍ في رأسه. شعرت وكأني أدوس على بحيرةً الدم التي تكونت عن طريق توحد دمائهم النازفة. اختلطت دمائهم كما اختلطت أقدارهم، وهكــذا كانوا هنا، على بعد عدة خطواتٍ فقط، ممددين، وما زالا مع بعضهما! تقهقهرت راكضاً وعدت من نفس الطريق.
كانت الضحكات تتعالى من الأسفل، وتحديداً من جهة البحيرة. أزواجٌ من العشــاق ممســكين لبعضهم من الخصر، كانوا يتجوّلون بلا توقفٍ وكأنهم في رحلة تنزّه لاتنتهي. ومن الباب الموارب للكازينو الريفي كان يصدر صوت موسيقى ووقع أقدامٍ راقصة. توجه المنهكون من التزلج إلى الكازينو مستندين على بعضهم، وهم ينشدون بعض الحماس والرقص.
كانوا يســتمتعون بوقتهم. يعيشون. بينما أنا، كنت أعلم بأني وبإنطوائي عــلى روحي وإغلاقي على نفــسي وحيداً، لم أكــن أتواجد فوقهم، بل أســفلهم كلهم. كنت أظن ومازلت أشــعر بأن الإنفصال عن القطيع

ليس بميزة، ولا زيادة، بل كان إعاقةً وخللاً. هؤلاء الناس يعيشون كما يجب أن يعيشوا. يؤدون وظائفهم، يضيفون شيئاً إلى الحياة. أما أنا، ماذا كنت؟ كانت روحي كدودة شجرة، ليس لها ماتفعله سوى أن تنخرني؟ هذه الأشـــجار، والثلج الذي يغطي أغصانها وجذوعها، وذلك المبنى الخشبي، وذلك الجراموفون، هذه البحيرة وطبقات الجليد التي تعتليها، وأخيراً هؤلاء الناس الكثر والمختلفون عن بعضهم، كلهم مشغولون بما تعطيهم الحياة من مهام، في كل حركةٍ من حركاتهم هدفٌ ومعنى، معنىً لايظهر للوهلة الأولى. أما أنا، فمثل دولاب سيارةٍ يدور حول نفسه في الفـــراغ، و كنت في هذه الحال أحاول إيجاد ميـــزاتٍ لنفسي. من المؤكد أنني كنت أقلّ الرجال أهميةً في هذه الدنيا، لم تكن الحياة مع خسارتها لي تؤذيني. لم يتوقع مني أحدٌ أي شيءٍ، ولم أتوقع من أحد شيئاً.

وهكذا واعتباراً من هذه اللحظة، بدأ التغيّر الذي استلم دفّة حياتي. منذ هـــذه اللحظة آمنت بعدم أهميتي، وعدم فائـــدتي في هذا الوجود، وبين حينٍ وآخر كان يحدث وأن أشـــعر بأني عدت إلى الحياة وبدأت أعيش. حتى بعدما كنت أفكـــر في ذلك بعدة أيام، كنت أصبح في وضع جديد يوقعنـــي تحت تأثيره مدةً ويشـــغلني. لكن، كانت دائـــما ما تخرج ومن أعمق زاويةٍ في روحي، قناعةٌ تخبرني بأن الوجود ليس بحاجتي. لم تنجُ أي حركةٍ عندي من تأثيرها، وحتى اليوم، ورغم مرور سنواتٍ طويلةٍ، إلا أني ما أزال أذكر تلك اللحظة التي كسرت كل شيءٍ وبالذات جرأتي وأبعدتنـــي عن كل ما حولي، بكل تفاصيلهـــا، وأرى أني كنت مخطئاً في

الأحكام التي أصدرتها على نفسي وقتها.

وصلت ركضاً إلى الطريق المسفلت، ومشيت بإتجاه وسط برلين. لم آكل أي شيءٍ منذ مساء البارحة، لكن فوق إحساس الجوع، كان في معدتي شعورٌ بالغثيان. وفي ساقيّ لم يكن هناك تعبٌ، بل تشنجٌ يمتدّ حتى كعب قدمي. في هذه المرة كنت أمشي ببطءٍ غارقاً في أفكاري. ومع اقترابي من المدينة كان شعوري باليأس يتنامى. لم أكن أستطيع تقبل حقيقة أني سأقضي الأيام القادمة بعيداً عنها، وأجد هذا الإحتمال بعيداً عن الجدية، سخيفاً ومستحيلاً..

لم يكن لدي تلك القدرة لأن أخفض رأسي وأذهب لأتوسّل لأحدٍ أبداً. شيءٌ مثل هذا لايصدر عني، ولو حصل فلن تكون له فائدة. كنت أتخيل أشياءً تشبه خيالاتي التي كنت أنسجها في طفولتي، لكن أكثر جنوناً وسخافةً، وأكثر دمويةً منها. في الليل، وعندما يأتي دورها في الأتلانتيك، أتصل بها بالهاتف. وبعد أن أطلب منها العفو لإزعاجي لها وأودعها، أطلق رصاصةً على رأسي وأنا على السماعة، كم سيكون ذلك جميلاً! بعد أن تسمع ذلك الصوت، في البداية لن تعرف من هو، ثم وكالمجنونة ستنادي: "رائف، رائف!" منتظرةً جواباً مني. وربما سأبتسم وأنا أسمعها تنادي باسمي بينما ألفظ آخر أنفاسي. سوف تتخبط في يأسٍ شديد لعدم معرفتها من أي عنوانٍ هاتفتها، ولن تستطيع اخبار الشرطة عن مكاني. وفي اليوم التالي ستقرأ بقلبٍ نادمٍ ويأسٍ محبطٍ عن تفاصيل الفاجعة الغير معروفة التفاصيل في الصحف، وستدرك

بأنها لن تنساني بقية عمرها، وبأني ربطت نفسي في ذاكرتها بالدم.
اقتربت من المدينة، مررت مجدداً من تحت وأعلى نفس الجسور التي عبرتها. بدأ المساء يحل، لم أكن أدري إلى أين كنت أمشي، دخلت إلى حديقةٍ صغيرةٍ وجلست. كانت عيناي تحترقان، أسندت رأسي إلى الخلف ونظرت إلى السماء، كانت الثلوج تجمد قدميّ، ورغم ذلك جلست لساعات. سرى بجسدي خدر غريب. ماذا لو تجمدت هنا مكاني وفي الغد دفنوني بلا مراسمٍ ولا ضجة. ماذا ستفعل ماريا حين تتلقى الخبر بعد أيام؟ كيف سيكون وجهها؟ هل ستندم على كل ما فعلته بي؟
كل أفكاري كانت تحوم وتدور حولها. نهضت واستمريت بالمشي في نفس الطريق. كان علي المشي لساعاتٍ أخرى حتى أصل لمنتصف المدينة، بدأت في الحديث مع نفسي في الطريق. كنت أخاطبها، وكأننا في أول أيام لقائنا. تهجم عليّ أفكارٌ جميلةٌ، جذابةٌ ومخادعة. من المؤكد أن كلماتي هذه كانت لتؤثر فيها وتجعلها تغير رأيها. كنت أقول لها بعينين دامعتين، وصوتٍ مرتجفٍ أننا من المستحيل ان ننفصل لأسبابٍ تافهةٍ بعد تقاربنا وقربنا الآن. وعثورنا على بعضنا البعض في هذه الدنيا الكبيرة المشغولة.. فتستغرب هي في البداية من انفعال وتأثر إنسان طبيعته السكون وتقبل كل شيءٍ كما هو، ثم تأخذ يديّ بهدوء وتبتسم لي وتقول: "معك حق!"
نعم، يجب أن أراها وأقول لها ذلك. عليها أن تغير القرار الرهيب الذي تقبلته بسهولةٍ في الصباح. سوف تغيره. بل ربما هي أيضاً استغربت من

خروجي الفوري بلا اعتراض، وحزنت. عليّ أن أراها في الحال، هذا المساء. تسكعت حتى الساعة الحادية عشرة، وفي الليل انتظرت مقابل الأتلانتيك متجولاً حوله. لكننا لم تأتِ. في النهاية سألت البواب المتأنق عنها فقال: " لا أعلم، لم تأتِ هذا المساء!". خمنت عندها بأن مرضها قد اشتد عليها. توجهت ركضاً إلى منزلها، لم تكن نافذتها مضيئةً، يبدو أنها نائمةٌ على كل حال. عدت إلى المهجع معتقداً بأن إزعاجي لها في هذه الساعة ليست بفكرةٍ جيدة.

مضت ثلاثةُ أيامٍ على نفس الحال وأنا أنتظرها في الطريق. في النهاية ذهبت إلى باب منزلها، نظرت إلى نوافذها المظلمة، ومن دون أن أجرؤ على فعل شيء، رجعت. كنت أجلس في غرفتي كل يومٍ أحاول القراءة. أقلب الصفحات من دون حتى أن أقرأ منها حرفاً، وأحيانا كنت أحاول استجماع تركيزي وأقرأ من البداية، لكن وبعد عدة أسطرٍ فقط كان عقلي يطير إلى أماكن أخرى. كنت أعرف بأني لم أكن أفعل غير تقبّل ما يحدث في النهار كما هو، كما أتقبل قراراتي التي اتخذتها فيه، وانتظار وقتٍ أكثر ليمر. لكن ومع حلول المساء كانت مخيلتي تبدأ في النشاط، تفكّر في أشياء لن تحصل، مثل مريضٍ محموم. وفي النهاية، وضد كل قراراتي النهارية، أخرج من بيتي ليلاً في وقت متأخر، وأتجول في الطرق التي تمرّ هي منها وحول بيتها. لم أعد أسأل البواب عنها لخجلي، فأصبحت أكتفي بالمراقبة من بعيد. مرت خمسة أيامٍ هكذا. كنت أراها كل ليلةٍ في منامي أكثر قرباً مما كنت أراها من قبل.

في اليوم الخامس، وعندما عرفت بأنها لم تذهب لعملها مجدداً، اتصلت بالهاتف على كازينو الأتلانتيك وسألت عن ماريا بودر. أخبروني بأنها لم تستطع القدوم لعدة أيامٍ بسبب مرضها. معنى ذلك أنها كانت مريضةً حقاً، وهل كان عندي شكٌّ في ذلك؟ لماذا انتظرت أن يخبرني أحد حتى أصدق بأنها مريضة؟ فليس من المعقول بأنها ستغير ساعات عملها وتطلب من البواب أن يصرفني لتتهرب مني فقط! توجهت إلى منزلها ناوياً إيقاظها إذا استلزم الأمر. كانت ضرورة الظرف تسمح لي بفعل ذلك، فليس من الحكمة إعطاء قرارٍ أتى بعد ليلة سكرٍ كل هذه الأهمية. صعدت درجات السلم وأنا أتنفس بسرعة، ولكي لا أتردد وأتراجع وضعت يدي على الجرس، كانت رنة قصيرةً وانتظرت. لم تحدث أي حركةٍ بالداخل. بعدها، قمت برن الجرس مراتٍ أطول. لم أسمع وقع أقدام. لكن باب الشقة المقابل فُتح وأطلت منه خادمةٌ تبدو آثار النوم على وجهها. قالت:

- "ماذا تريد؟"

- "الساكنة هنا!"

بعد أن دققت في وجهي لوهلة، قالت بنبرةٍ عدائية:

- "ليس هناك أحد!".

قفز قلبي من مكانه، قلت:

- "هل انتقلت إلى مكانٍ آخر!"

بدى أن حيرتي وقلقي جعلاها تغير من نبرتها، هزت رأسها قائلةً:

- "لا، فأمهـــا لم تأتِ من براغ بعد. أما هي فمرضت، ولعدم توفر أحدٍ يعتني بها تم نقلها إلى المستشفى!"

ركضت إلى الخادمة:

- "ما مرضها؟ وهل هو شديد؟ وإلى أي مستشفى أخذوها؟ ومتى؟.."

عادت الخادمة التي تفاجئت بهجوم الأسئلة خطوةً إلى الوراء وقالت:

- "لاترفع صوتك، ستوقظ أهل المنزل. نقلوها قبل يومين؛ أخذوها إلى مستشفى تشاريتي على الأغلب!"

- "ومرضها؟"

- "لا أعلم!"

ومن دون حتى أن أشــكر الخادمة المشــدوهة ، ركضت قافزاً درجات السلالم خارجاً. سألت أول رجل شرطةٍ صادفته عن عنوان المستشفى وذهبت إلى هناك. لا أدري بأيّ مقصدٍ ذهبت، سرت في جســـدي رهبةٌ عندما رأيت البناء الكبير الممتد لمئات الأمتار، لكنني ومن دون أيّ ترددٍ توجهت إلى البوابة الكبيرة وناديت البواب في غرفته.

لم يكـــن عند الحارس الذي ظهر للزائر الذي أزعجه بعد منتصف الليل في هذا البرد القارس أي معلومـــة. لا عن قدوم تلك المريضة، ولا عن مرضها، ولا عن مكان تنويمها. كان ومقابل كل ســـؤالٍ أسأله، ورغم ضجره مني، يبتسم قائلاً: " تعال غداً الساعة التاسعة".

بتجولي حـــول المبنى الكبير وأنا أفكر فيها حتـــى الصباح، فهمت قدر حبي لها وارتباطي الجنوني بها تماماً. كنـــت أنظر إلى بعض الغرف التي

كانت نوافذها مضيئةً بإضاءةً صفـراء خفيفة، وأحاول تخمين الحجرة التي تنام فيها ماريا، وأشـعر برغبةٍ لا تقاوم بأن أكون بجانبها، أخدمها وأسهر على راحتها وأمسح عرق جبينها بيدي.

في هذا المساء فهمت بأن الإنسان قد يرتبط بإنسان آخر أكثر من ارتباطه بالحياة. ومجددا فهمت بأنني لو خسرتها، فإني سـأتدحرج في هذه الدنيا كحبة جوزٍ جوفاء.

كانت ندفـات الثلج تصطدم بجـدارٍ إلى آخر وتملأ عيني. الشـوارع خاليةً تماماً. وبين حينٍ وآخر كانت عربات الإسـعاف البيضاء تدخل إلى المستشـفى، وتخرج بعد زمن بسـيط. حدّق في وجهي رجل شرطة بعد أن مر من جانبي مرتين، وفي المرة الثالثة سـأل عن سبب تواجدي هنا. وعندما أخبرته عن وجود مريضٍ لي في الداخل، أخبرني أن أذهب وأسـتريح وآتي في اليوم التالي. لكنه في المرات الأخرى التي مر بها من جانبي اكتفى بالصمت حزيناً على حالي.

عندما بـدأ الضوء بالإنتشـار، بدأت الحياة تسري معه في الشـوارع. وبعد فترة وجيزة، بدأ عدد سـيارات الإسعاف الداخلة والخارجة من المستشـفى بالإزدياد. وفي تمام التاسـعة، ورغم أنه لم يكن يوم زيارة، أخـذت إذناً من الطبيب المناوب برؤية المريضـة. كانت تعابير وجهي البائس هي ما جعلته يسمح لي بذلك على كل حال.

وُضعت ماريـا بودر في غرفـةٍ ذات سريرٍ واحـد. أخبرتني الممرضة التـي جاءت لتبلغني بعدم إطالة المكـوث في الداخل وإزعاج المريضة

وإرهاقها بأنها كانت مريضة بذات الجُنُب[1]، لكن الطبيب لم يجد المرض خطيراً. عندما التفتت ماريا ورأتني، ابتسمت على الفور. لكن وجهها تغير فجأةً وأخذ حالا مضطرباً، ولم تكن الممرضة لتخرج وتتركنا وحدنا في الغرفة.

- "ماذا حصل لك رائف؟"، سألت ماريا.

لم يتغير صوتها أبداً، لكن وجهها كان شاحباً ومصفراً أكثر. جلست بجانبها:

- "ماذا حصل لكِ أنتِ؟ أرأيتِ؟"، قلت.

- "لاشيء مهم... نزلةٌ وتمرّ... لكن أنت تبدو منهكاً تماماً!"

- "علمت عن مرضك من كازينو الأتلانتيك. ذهبت إلى بيتك، وأخبرتني خادمة الشقة المجاورة لشقتكم أنك هنا. لم يأذنوا لي بالدخول ليلاً، فانتظرت حتى الصباح!"

- "أين؟"

- "هنا. حول المستشفى!"

تفحصتني بنظراتها. كانت في غاية الجدية. كانت وكأنها على وشك أن تقول شيئاً، ثم تراجعت. فتحت الممرضة الباب، ودّعت المريضة. هزّت رأسها، لكنها لم تبتسم.

مكثت ماريا بودر في المستشفى خمسةً وعشرين يوماً. وربما سيبقونها لمدةٍ أطول، لكنها أخبرت الأطباء بمللها في المستشفى، وبأنها تستطيع الإعتناء بنفسها في بيتها. خرجت محملةً بتوصياتٍ ووصفاتٍ طويلة في يومٍ مثلج.

---

(1) التهاب رئوي يجعل التنفس مؤلما للغاية.

لا أذكــر حالياً ما فعلته في تلك الخمس والعشريــن يوماً، لكنّ الغالب أننـــي عدا ذهابي إليها ورؤيتها، والجلوس عند رأســها، ومراقبة وجهها المتعرق وعينيها الذابلتين بين وقــتٍ وآخر، وصدرها الذي كان يتنفس بصعوبة.. عدا ذلك لم أفعل شيئاً يذكر. بل لم أعش حتى؛ لأني لو عشت لتذكرت شــيئاً من تلك الأيام، ولو شيئاً بسيطاً. لكن كان في داخلي وأنا بجانبها خوفٌ عظيم، خــوفٌ من أن أفقدها. أصابعها النافرة من طرف السرير، وساقاها الخارجتان من أسفل نهاية الغطاء، كانوا كلهم كأطراف ميتٍ من الآن. حتى وجهها، شــفتاها وخديها، كانوا كمن ينتظر فرصةً تمنعهم من هذا التحول المخيف.. وقتها ماذا سأفعل؟ نعم، سأحافظ على هدوئي، وأنجز آخر معاملاتها، وأختار مكان الدفن، وأعمل على تعزية أمها التي ســتأتي وقتها من براغ، وفي النهاية ســأودعها الحفرة وأتركها. ســأتركها وجمع المعزين، ثم أعود لاحقاً خفيــة، وأجلس معها وحدنا. وهكذا كل شيءٍ ســيبدأ في هذه اللحظة. ســأكون من تلك اللحظة قد خسرتها فعلاً. ماذا سأفعل لو حصل ذلك؟ أستغرق في التفكير والخيال إلى تلك اللحظة. ولكني لا أســتطيع تصور مابعدها. نعم، ماذا سأفعل بعد أن أودعها الحفــرة ويذهب المعزون وأبقى معها وحدي؟.. في تلك اللحظة ونظراً لأن كل أعمالها انتهت، فلن يكون مثيراً للسخرية وسخيفاً وبلا سببٍ بقدر وجودي على هذه الأرض كذلك. كلّ روحي كانت في حالة فراغ. قالت لي في يوم بعد أن تحسنت حالتها:

- "تكلم مع الأطباء، ليخرجوني!"، ثم تمتمت وكأنها تقول شيئا عادياً:

- "أنت تعتني بي أفضل منهم!"

طرت خارجاً من دون أن أرد عليها، طلب الإستشـــاري مكوثها لعدة أيامٍ أخرى، ورضينـــا بذلك. أخيراً، وفي يومهـــا الخامس والعشرين، ألبستها معطفها الفروي، أمسكت بذراعها وأنزلتها السلالم. أوصلتها بيتها عن طريق ســـيارة أجرة، ساعدني الســـائق ونحن صاعدون على حملها إلى الطابق الذي تسكنه؛ ورغم هذا، عندما نزعت عنها ملابسها وأرحتها على سريرها كانت تبدو مرهقةً جداً.

منـــذ تلك اللحظة اعتنيت بها أنا بنفـــسي فقطِ. كانت تأتي امرأةٌ عجوزٌ لتنظيف المنزل إلى وقت الظهر، تشعل المدفأة، وتحضّر طعاماً للمريضة. ورغـــم إصراري وإلحاحـــي إلا أن ماريا رفضت تمامـــاً إخبار والدتها وجعلها تأتي. كانت تكتب بيدٍ متعبةٍ رسائل إلى أمها : "أنا بخير، اعتني بنفسك واستمتعي واقضِ الشتاء هناك.".

كانت تقول :"لو جاءت فلن يفيد قدومها في شيءٍ أبداً، لأنها هي نفسها بحاجة للعناية. ستكتئب لمرضي وتحزنني معها!"، ثم تتمتم مجدداً بنفس النبرة كأنها تقول شيئا لاأهمية له:

- "أنت موجود للعناية بي! لاحاجة لأحدٍ آخر! أو أنك سئمت؟"

لكنها لم تكن تبتسم وهي تقول ذلك، لم تكن تمزح. في الواقع هي ومنذ وقوعها مريضةً لم تكد تبتســـم أبداً. قابلتني بابتســـامةٍ في اليوم الأول الذي جئت فيه إلى المستشـــفى، من بعدها حافظت على جديةٍ عنيدة. في كلّ حالٍ ووضع، وهي تطلب شيئاً، وهي تشكر أحداً، وهي تتكلم في

أيّ موضوعٍ، كانت دائماً جـــادة. كنت أمكث عندها حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، أنتظر عند رأســـها، وآتيها مبكراً صباحاً. وفي الأيام الأخيرة كنت أحضر بعض الأغطية من غرفـــة أمها وأنام في نفس الغرفة. حتى الحادثة التي حصلت في صباح رأس السنة، أو بالأصح، تلك المحادثة الصغيرة، فليس مـــن الصواب إطلاق لفظ حادثة عليها، لم يذكرها أي منا قط. كل شيء، زياراتي للمستشـــفى، وأخذي لها إلى المنزل، وحياتنا هنا، كل ذلك كانت تتلقاه وكأنه طبيعي. كنا ومن باب أضعف الإيمان، نحاول التهرب من ذكر الموضـــوع، لكن من المؤكد أنها كانت تفكر في شيءٍ ما. كانت تتابعني بعينيها وأنا منشغلٌ بأشياءٍ في الغرفة، وأنا أقرا لها كتاباً بصوتٍ عالٍ. كنت اشعر دائما بمتابعتها لي، كأنما كانت تبحث عن شيءٍ فيّ. في يوم مـــن الأيام، وفي وقت الغروب كنت أقرأ عليها حكاية جاكوب واسيرمان «الثغر الذي لم يُقبَّل أبداً». كانت الحكاية تحكي عن معلمٍ لم يحبه أحـــدٌ في حياته، ورغم عدم اعترافه حتى لنفســـه بذلك ، شاخ وهو ينتظر حب أحدٍ له. صُورت الوحدة النفسية للرجل البائس، وأحلامه المتولدة في نفسه، وموته سريعاً قبل أن يكتشف ذلك أحد بقلمٍ ماهر. عندما انتهت الحكاية، صمتت ماريا لمدةٍ طويلةٍ مغمضةً عينيها. ثم التفتت إلي، وقالت بنبرةٍ لا مبالية:

– "ماذا فعلت في الأيام التي تلت رأس السنة؟"

– "لم أفعل شيئاً!"

– "حقاً؟"

- "لاأعرف..".

عــادت لصمتها من جديد. لأول مرةٍ تتطــرق هذا الموضوع، لكنني لم أكن متفاجئاً. بل حتى أنني كنت انتظر هذا الســؤال لمدة طويلة، لكن وبدل أن أجيبها كنت ألقمها طعامها. بعدها غطيتها جيداً، وجلســت بجانب رأسها مجدداً، وقلت:

- "هل أقرأ لكِ شيئاً؟"

- "أنت حر!"

بعد الأكل، تعودت أن أقرأ أشياء مملةً جداً محاولاً نسيانها، في لحظةٍ ترددت:

- "لو أردتِ فسأحكي لكِ عما فعلته في تلك الأيام الخمسة، ستنامين أسرع!"

لم تضحك، ولم تجاوبني حتى. هزت رأســها موافقةً فقط. بدأت محاولاً اســتجماع كل ما علق في ذاكرتي من تلك الأيــام. خروجي من البيت، الأماكن التي ذهبــت إليها، ما رأيته وفكرت فيــه عند البحيرة، كيف كانت الليالي والطــرق التي مررت بها وتجولت حولها، وأخيراً، ركضي إلى المستشــفى بعد أن علمت بمرضها في آخر ليلة وانتظاري بالخارج حتى طلوع الصبح. كان صوتي في غاية الســكون، وكأنني كنت أقصّ حكايةً حصلت لأحدٍ غيري. أتوقف عند التفاصيل، أحأول تحليل كل مايدور في خاطري، ثم أســكبه للخارج. هي أيضاً لم تكن تنبس ببنت شفة. عيناها مغمضتان. ســاكنةٌ وكأنها تحأول إقناعي بأنها نائمة. رغم ذلك، أكملت. كنــت فوق كل ذلك وكأنني أحــاول التكرار لنفسي. أقول بعض المشــاعر التي أنا نفسي لم أســتطع فهمها، وأتحدث حولها، وأنتقــل إلى غيرها قبل أن أصل إلى نتيجة. غــير مرةٍ واحدة، بينما كنت

أحكيها عن رغبتي في وداعها على الهاتف، فتحت عيناها، ونظرت في وجهي بتركيز، ثم أغمضتهما من جديد. لم يبْدُ على وجهها أي تعبير.
لم أكن أخفي شيئاً، فلم أرى داعٍ لذلك، لأنه لم يكن لدي أي مقصد. كنت أشعر بالحوادث التي أحكيها وكأنها حصلت قبل زمنٍ بعيدٍ لإنسان لا أعرفه. تشكلت بيني وبينها مسافة. لذلك فإن أحكامي بحق نفسي وحقها، كانت بعيدة عن تفكيري وحسابي، لم أكن منصفاً تماماً.
لم تخطر على بالي أيٌّ من الكلمات التي كانت تهجم عليّ في الليالي التي أنتظرها فيها في الشارع، ولم أكن أحاول استحضارها. لم يكن في داخلي غير "حاجةٌ بسيطةٍ لقصّ حكايةٍ" فقط. لم أكن أقيم الوقائع من حيث أهميتها لي، بل من حيث أهميتها لها. بينما هي، ومن دون أن تصدر أي حركة، كانت تنصت إلي بكل جوارحها.
كنت أشعر بذلك تماماً. عندما حكيت لها عما كنت أفكر فيه وأنا أراقبها في المستشفى، وكيف تخيلتها ميتةً، لاحظت أن جفونها قد تحركت فقط. هذا كل ماحصل.
وعندما انتهى كلامي صمتّ، وهي أيضاً صمتت. ربما استمر الوضع هكذا لعشر دقائق. أخيراً التفتت إلي بوجهها، وفتحت عينيها، ولأول مرةٍ منذ مدةٍ طويلة، أظهرت مايشبه الإبتسامة - أو هذا ما اعتقدته - وقلت بصوتٍ غايةٍ في الهدوء :
- "ألن ننام؟"
قمت من مكاني. جهزت مكان نومي، غيرت ملابسي وأطفأت الأنوار، لكنني لم أستطع النوم لوقتٍ متأخر. حتى هي لم تستطع. عرفت أنها كانت

مستيقظةً لأني لم أسمع أنفاسها. ورغم هبوط الثقل ببطءٍ على جفني، إلا أنني كنت انتظر سماع صوت أنفاسها المنتظمة الذي تعودت على سماعه كل مساء. وحتى لا استسلم إلى النوم كنت أبذل جهداً وأتقلب كثيراً.

فتحت عينيّ مبكراً في الصباح. مازالت الغرفة مظلمة، ومن بين ستائر النافذة كان ينفذ بصيص نورٍ بسيط. لم يكن هناك الصوت الذي اعتدت على سماعه، صوت أنفاسها. في الغرفة صمتٌ رهيب ومخيف. كلانا كان ينتظر بروح مضطربة. في داخل كلٍّ منا شيء يتراكم. كنت أشعر بذلك بشكل محسوس. في نفس الوقت وقعت في فضولٍ كبير؛ ياترى متى استيقظت؟ أو تراها لم تنم أبداً. رغم كل سكوننا إلا أن هواءً مليئاً بأفكارنا كان ينتشر في الغرفة.

رفعت رأسي على مهل، عيناي المعتادتان على الظلام لاحظتا ماريا تنظر إليّ متكئة على وسادةٍ خلف ظهرها. «صباح الخير»، قلتها وخرجت لأغسل وجهي. وعندما عدت إلى الغرفة كانت المرأة المريضة في نفس وضعيتها. فتحت الستائر، وأزحت مصباح الإنارة الليلية. ورتبت فراشي، فتحت الباب للخادمة وساعدت ماريا على شرب الحليب.

كنت أفعل كل ذلك بلا كلام. كل يومٍ وعلى نفس المنوال، أنهض، وأنشغل بنفس الأعمال، أعمل في مصنع الصابون حتى الظهر، وبعد الظهر أقرأ لها صحيفةً أو كتاباً، و أحكي لها عما فعلته ورأيته في الخارج حتى يحلّ المساء. هل كان هذا ما كان يجب أن أفعله، أم لا؟ لا أدري. كلّ شيءٍ شقّ طريقه بنفسه ولم أكن أنا إلاّ تابعاً لما يحدث. لم تكن في داخلي أيّ رغبة. لم أكن أفكر لا في الماضي، ولا في الحاضر، لم أكن أعرف إلا اللحظات التي

أعيشها. روحي بلا رياح تعصف بها، وساكنةٌ كبحرٍ بلا أمواج.
حلقت ذقني، وبعد أن ارتديت ملابسي استأذنت ماريا في الذهاب:
- "إلى أين أنت ذاهب؟"، قالت لي.
تعجبت:
- "ألا تعرفين؟ إلى المصنع!"
- "أيمكنك البقاء اليوم؟"
- "نعم، ولكن لماذا؟"
- "لاأدري، أريدك أن تبقى بجانبي طوال اليوم!"
اعتبرت ذلك من هلوسات المرض؛ لكنني لم أجبها. بدأت في تصفح الصحف التي تركتها الخادمة في ركن السرير. كان هناك اضطرابٌ عجيب في حال ماريا، كأن شيئاً ما كان يضايقها. تركت الصحف في الزاوية واقتربت جالساً بجانبها، وضعت يدي على جبينها:
- "كيف حالك اليوم؟"
- "بخير.. أفضل بكثير."
ودون أن تفعل شيئاً، علمت أنها لم تردني أن أرفع يدي عن جبهتها. أحسست بالتصاق أصابعي على وجنتيها وجبهتها، وكأن كل تحكمها وإرادتها أصبحا في جلدها.
قلت بصوتٍ في غاية السكون: "معنى ذلك أنك أصبحت أفضل! إذا لماذا لم تنامي الليلة الفائتة أبداً؟"
تفاجأت، وانتشر من رقبتها إلى خديها لونٌ أحمر. كان ارتباكها واضحاً لعدم قدرتها على إعطائي جواباً. أغمضت عينيها فجأةً، أراحت رأسها

إلى الخلف وكأنها تشعر بتداعٍ، وقالت بصوتٍ لايكاد يُسمع:
- "آه يارائف!"
- "خيراً؟"
استجمعت نفسها قليلاً. ثم قالت بأنفاسٍ متسارعة:
- "لاشيء! لاأريدك أن تتركني اليوم. أتعرف لماذا؟ ما حكيته لي البارحة، لم أكن أظن بأنه سينقض عليّ بمجرد ذهابك، دون ان يترك لي ولا حتى دقيقةً واحدةً لراحتي."
- "لو علمت لما أخبرتك!"
هزت رأسها قائلة:
- "لا، لم أقصد ذلك. لا أقول ذلك من أجلي. لن أثق بك بعد اليوم! أخاف من أن أتركك وحدك. نعم صحيح، هذا المساء لم أنم أبداً. فكرت فيك فقط، فيما فعلته بعد ما ذهبت من هنا، وتجولك حول المستشفى، بكل التفاصيل، حتى أني رأيت الأجزاء التي لم تخبرني عنها. بسبب هذا لن أتركك وحدك أبداً! أخاف، وليس اليوم فقط. من اليوم فصاعداً لن أتركك تغيب عن ناظري!"
تفصد جبينها عرقاً. مسحته بلطف، وفي نفس الوقت أحسست بقطرةٍ حارةٍ على كفي. نظرت إلى وجهها بتعجب. كانت مبتسمة، لأول مرةٍ ومنذ وقتٍ طويل، تبتسم ابتسامة واضحةً لاشك فيها، لكن الدموع كانت تتساقط من أحداق عينيها على خديها. أمسكت رأسها بيديّ و أرحتها على ذراعي. أصبحت تبتسم أكثر، وبراحة أكبر؛ لكن زادت غزارة دموعها أيضاً. لم تكن تصدر أي صوتٍ، حتى صوتها لم يكن يحشرج. لم أكن أتخيل

إمكانية أن يبكي الإنسان بكلّ راحةٍ وبكل هدوء في هذه الدنيا. أمسكت بيديها اللتين كانتا على أغطية السرير كعصافير بيضاء وبدأت باللعب بهما. كنت أطبق أصابعي، وأفتحها مجدداً ضاغطاً على يدها وسط راحة يدي. في وسط يدها كانت هناك خطوطٌ كخطوط أوراق الشجر.

تركت رأسها ببطءٍ على المخدة:

– "ستتعبين!"، قلت لها. لمعت عيناها:

– "لا ،لا!"، قالتها وهي تضم ذراعي، ثم وكأنها تكلم نفسها:

– "الآن عرفت ما الشيء الذي كان ينقصنا! هذا النقصان لم يكن فيك، بل فيّ أنا. كان ينقصني الإيمان؛ بسبب عدم إيماني بأنك تحبني إلى هذا القدر، كنت أظن بأني لم أحببك. الآن فهمت ذلك. معنى ذلك أن الناس أخذوا مني قابلية الإيمان. لكني الآن مؤمنة. أنت أقنعتني. أنا أحبك. ليس إلى حد الجنون، حبٌ معقول في حدوده. أنا أريدك، في داخلي رغبةٌ عظيمة. آه لو أشفى! متى سأشفى ياترى؟"

لم أستطع أن أجبها، جففت دموع عينيها ماسحاً إياها بوجهي. منذ ذلك الحين وحتى شفيت من مرضها و استعادت عافيتها لم أتركها أبداً. وعندما كنت أضطر إلى شراء بعض الطعام والفاكهة، أو أذهب للمهجع لأغير ملابسي، كنت أشعر بأن الساعة أو الساعتين التي أقضيها بعيداً عنها طويلةً لدرجةٍ مرعبة. عندما كنت أمسك بذراعها وأساعدها بالجلوس على الأريكة، وأضع على ظهرها غطاءً يقيها من البرد، كنت أشعر بسعادةٍ لا محدودةٍ لكوني قد سخرت حياتي لخدمة إنسان آخر. كنا نجلس مقابل بعضنا أمام النافذة، نتفرج على الخارج بالساعات، لا

نتكلم في شيء، فقط كنا بين وهلةٍ وأخرى ننظر إلى بعضنا ونبتسم؛ كنت أشعر بسعادةٍ طفولية. استعادت قوتها قليلاً بعد عدة أسابيع. بدأنا في الخروج للتنزه سوياً عندما يكون الجو صحواً لمدة نصف ساعة.
قبل أن نخرج، كنت أساعدها بالتجهز للخروج بكل عناية، حتى أني كنت أُلبسها جواربها لأنها كانت تسعل عندما تنحني. ثم ألبسها معطفها الفروي، وأساعدها على النزول من السلالم ببطءٍ.. وعلى المقعد الذي يبعد عن المنزل مئةً وخمسون متراً كنا نجلس لنستريح. ومن هناك نتوجه إلى شاطئ بحيرةٍ من بحيرات تيرغارتان، ثم نشاهد الإوزّ وطحالب الماء.
وفي يوم من الأيام انتهى كلّ شيء. بهذه البساطة، انتهى بشكلٍ قاطعٍ لدرجةٍ أني لم أستطع أن أفهم هول ماحصل. فوجئت قليلاً فقط، وحزنت كثيراً؛ لكنني لم أتوقع، ولم أفكر حتى باحتمالية أن تكون هذه الحادثة صاحبة هذا التأثير الكبيرِ والغير قابل للتغيير على حياتي.
في الأيام الأخيرة كنت أتردد من الذهاب إلى المهجع. ورغم دفعي ثمن الإيجار مقدماً إلا أني لم أذهب أبداً، تسبب ذلك في جعل صاحب المهجع يعاملني ببرود. في يومٍ من الأيام قال فراو هوبنير:
- "لو أنك انتقلت لمكانٍ آخر أخبرنا لنعلم الشرطة، لا نريدهم أن يزعجونا لاحقاً!"
قلت لأنهي الموضوع بمزحة:
- "وهل أستطيع ترككم؟" داخلاً غرفتي.
هذه الغرفة التي عشت بها أكثر من سنةٍ كاملة، أغراضي وأمتعتي التي أحضرت معظمها من تركيا. الكتب المبعثرة هنا وهناك، كلها كانت

تبدو غريبةً لي. فتحت شنطتي وأخذت بعض الأغراض التي أحتاجها. لففتها في صحيفة، وفي ذلك الوقت دخلت خادمةٌ إلى الغرفة:
- " لديــك تلغرافٌ ينتظرك منذ ثلاثة أيــام!"، قالتها ومدت يدها إليّ بورقةٍ مغلفة.
في البداية لم أفهم شيئاً. لم أستطع أن أتناول التلغراف من يد الخادمة. لا، ليس بهذه الورقة شيءٌ يخصني. كنت بعدم اطلاعي على ما فيها أحاول إبعاد المضيبة التي بداخلها عني.
كانت من نســيبي. يقول فيها : "توفي أبوك. أرســلت لك نقود رحلة العــودة. تعال فــوراً!". كان هذا كل مافي التلغــراف، أربعة أو خمس كلماتٍ في غاية الوضوح. ورغم ذلك اســتمريت في التحديق بالورقة لوقتٍ طويل. قــرأت كل كلمةً مجدداً وكررتها عدة مرات. ثم نهضت، تأبطت أغراضي التي حضّرتها وخرجت.
ماذا حدث؟ رأيــت أن كلّ شيءٍ حولي على حاله كــما كان، لم يتغير. لم يحدث لي شيء، ولا للأشــياء حولي. ماريا تنتظرني على النافذة على كل حال. رغم ذلك فإني لم أعد "أنا" الذي كنته قبل نصف ســاعة. خلف آلاف الكيلومــترات، هناك أســلم أحدهم روحــه الى بارئها ؛ ورغم حصول هذه الواقعة قبل عدة أيام، فلم نشــعر لا ماريا ولا أنا بشيء. لم تختلف الأيام عن بعضها. لكن بغتــةً، تقلب ورقةٌ في حجم الكف كل شيءٍ رأساً على عقب، تأخذني من هذه الدنيا إلى هناك، تذكرت الآن أن هذا ليس مكاني، مكاني هو المكان الذي جاءت منه الورقة.
فهمت الآن وبعد عدة أشهرٍ خطئي باعتقادي أن هذه الحياة التي كانت

تحيط بي كانــت حقيقية، وبأمــلي أن تدوم على حالها. مــن جهةٍ كنت أتخبــط غير متقبل للحقيقة. لم يكن على هذا أن يحدث. ليس مهماً مكان ولادتــك، ولا ابن من تكون، ما كان مهماً هو أن يجد إنســانان بعضهما البعض في هذه الدنيا الصعبة وأن يصلا إلى السعادة النادرة. ماعدا ذلك فهو تفاصيلٌ غير مهمة. كان على هذه المشــاكل أن تحل نفســها بنفسها لتتلائم مع النقطة الأهم، حقيقة أن إنسانين قد وجدا بعضهما.

لكنــي كنت واعياً للغاية بأن ذلك لن يحــدث. أرى الآن وبوضوح أن حياتنا هي لعبةٌ بيــد تفاصيلٍ جانبيةٍ صغيرة، لأن الحيــاة أصلاً عبارةٌ عن تفاصيلٍ وتفرعــاتٍ جانبية. منطقنا ومنطق الحيــاة لايتلائمان مع بعضهــما أبداً. قد تنظر إمرأةٌ من نافــذة القطار إلى الخارج، فتدخل ذرة فحمٍ إلى عينها، فتفرك عينها لا إرادياً، فتتســبب هذه الحادثة الصغيرة بجعل إحدى أجمل العيون في العالم عمياء. أو أن قرميدةً قد يتلاعب بها الهواء فتســقط على رأس أحدٍ وتشجه. ماهو الأهم، العين أم الفحمة، القرميدة أم الرأس، وكما أن هذه الأســئلة لاتطــرأ على بالنا أبداً، وكما نحن نتقبلها من دون تفكــير وتفحص، فإننا كذلك مجبرون على تحمل كثير من سخافات الحياة.

هل هــذه هي الحقيقة ياتــرى؟ في الدنيا حــوادث لا يمكن تركها تمر أمامك، حــوادث لا نفهم أســبابها ولا منطقها، هــذا صحيح؛ لكن هناك أشــياءٌ غــير منطقيةٌ وباطلــة لدرجة أنها رغم كونهــا أمثلة عن الطبيعة، إلا أنه كان من الممكن أن لا تحدث، ماهي الأشياء التي كانت تربطني بهاوران مثــلاً؟ ثلاث أو أربع مزارع زيتون، وعدد من مصانع

الصابون، وثلةٌ من الأقـارب الذين لم ينتابني الفضول لأتعرف عليهم حتى. ورغم ذلك فإني مربوطٌ هنا بكل حياتي وجوانبي الحية. لكن لماذا لم يكن بإمكاني البقاء هنا؟ السبب في غاية البساطة؛ كل شيءً في هاوران سيتعثر ويصبح رأساً على عقب، ونسـائبي لن يرسلوا لي المال وبالتالي سأتخبط هنا غير قادرٍ على عمل أي شيء. لكن هناك أَشياء أخرى كثيرة أيضاً: جوازات السـفر، سفارات، وفيزا السـفر... لا يمكن فهم قدر أهمية هذه الأشياء لحياة الإنسان، لكن من المؤكد أنها كانت مهمةً بقدر إعطاء حياتي إتجاهاً تسير فيه.

عندمـا أخبرت ماريا بودر بالموضوع صمتـت لمدة. كانت على وجهها ابتسـامةٌ غريبة: كأنها تقول بنظراتها : "ألم أقل لك؟". حاولت الحفاظ على توازني واعتـدالي خوفاً من أنّي إذا ما قلت لها كل مايدور بخاطري فإني سأصبح مثيراً للسخرية. لكنني رددت قائلاً:

- "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟"

- "أتسأل ماذا عليك فعله؟ طبعاً ستذهب. سأغادر أنا أيضاً بعد مدة. بكل الأحوال لن أسـتطيع العمل لفترةٍ طويلةٍ. سأبقى بجانب أمي في براغ. الحياة الريفية هناك ستكون أفضل لصحتي على كل حال. سأقضي نقاهتي هناك."

تركها لي على الهامش وتحدثها عن خططها الخاصة بها أشعرني بالذهول. كانت ترشقني بين وقتٍ وآخر بنظراتٍ هاربة.

- "متى ستغادر؟"، سألتني.

- "لا أدري؟ بمجرد أن تصلني نقود السفر فعلي المغا..."

– "حسناً، سأذهب أنا أولاً إذاً..."

– "ماذا؟!.."

أضحكها تعجبي وذهولي:

– "أنت طفلٌ دائماً يارائف!" قالت مكملةً: "إظهار الإضطراب والقلق عند مواقفٍ لا يمكنك تجاوزها طفولة. مازال لدينا وقت، سنفكر في الأشياءِ التي بيننا ثم نقرر لاحقاً."

خرجت مجدداً لأقضي بضع أعمالٍ بسيطة وأنهي ارتباطي بالمهجع، وعندما عدت قرب المساء ورأيت ماريا متجهزةً للسفر أصبت بذهولٍ بالغ.

– "هل هناك ضرورة لإضاعة المزيد من الوقت؟ لأذهب قبلك أنا وأتركك تتجهز للسفر على راحتك. ثم، ما أدراني، قررت ترك برلين قبلك فقط. حتى أنا لا أعرف السبب.."

– "كما تريدين!"

لم نتكلم بعدها في شيء. حتى الأشياء التي اتفقنا على أن نفكر فيها ونقرر شيئاً بشأنها، لم نتطرق اليها حتى بكلمة. في اليوم التالي سافرت بقطار المساء. لم نخرج من بعد الظهر أبداً، جلسنا مقابل بعضنا أمام النافذة متفرجين على الخارج. سجلنا في دفاترنا عناوين بعضنا. سأكتب عنواني فوق ظروف الرسائل حتى تستطيع إرسال رسائلها إلي. لأنها لن تستطيع الكتابة بالأحرف العربية[1]، ولا يستطيع موظفي مكتب البريد قراءة الحروف اللاتينية.

(1) تم إيقاف استخدام الحروف العربية واعتماد الحروف اللاتينية في 1928. وبما أنه كتب مذكراته بعد 10 سنوات في 1933 فهذا يعني أن القصة حصلت في عام 1923 على الأغلب. – المترجم

تحدثنا لمدة ساعة كاملةٍ تقريباً، عن الجو وعن طول موسم شتاء هذه السنة، وعن عدم ذوبان الثلوج رغم دخولنا في شـــهر شباط. كان واضحاً عليها أنها كانت تريد للوقت أن يمر أسرع. بينما أنا، ومهما يبدو ذلك ســـخيفاً، فإني كنت أتمنى أن يطولِ بقاءنا بجانب بعضنا البعض، بل أن لا ينتهي أبداً. رغم ذلك، كانت الأشـــياء التي تحدثنا عنها كانت سخيفةً وغير مهمةٍ لدرجة تفاجئ المرء. بين الحين والآخر ننظر لبعضنا ونبتســـم ابتســـامةً مذهولة، وعندما حانت ساعة قطارها كأني بها أخذت نفساً عميقاً، من بعدها مر الوقت بسرعةٍ مخيفة. بعدمـــا وضعت أغراضها في المقصورة أصرّت على نزولنـــا إلى رصيف المحطة وعدم جلوســـنا في المقصورة. العشرون دقيقة التالية والتي امتلأت بالإبتسامات عديمة المعنى شعرت بهـــا وهي تمر وكأنها ثانية واحدة. كانت تمر على خاطري آلاف الخواطر والأفـــكار المختلفة، لكني فضلت أن أكبتهـــا لأن الوقت ضيقٌ على أن أقولها كلها. في الحقيقة كان من الممكن أن أقول الكثير منذ الأمس، لماذا افترقنا بهذه الطريقة المباشرة؟

في آخر عدة دقائق كان يظهر على ماريا أنها فقدت بعضاً من ســـكونها. عندما لاحظت ذلك ســـعدت قليلاً. فبالطبع كان ســـيحزنني كثيراً أن أراهـــا ترحل دون أن تضطرب أو تتأثـــر. قالت وهي تضغط على يدي مرةً وتتركها أخرى بطريقةٍ مبالغ فيها:

– "ياله من شيء سخيف! لأي سببٍ تذهب يا ترى؟"

– "أنتِ الراحلة في الحقيقة، أنا مازلت هنا!"، قلت لها.

بدت وكأنها لم تسمع ماقلت، أمسكتني من ذراعي.

- "رائف.. أنا الآن ذاهبة!"

- "نعم.. أعرف ذلك!"

حـــان وقت مغـــادرة القطار. كان أحـــد الموظفين يقـــوم بإغلاق باب المقطورة. صعدت ماريا درجة على السلم، ثم انحنت باتجاهي، وقالت بصوتٍ منخفضٍ، وببطء ووضوح:

- "الآن أنا ذاهبة، لكن متى ما استدعيتني أتيتك.".

لم أفهم ماقصدته في البداية. هي أيضاً توقفت وزادت:

- "أينما كنت أتيتك!"

هذه المرة فهمت قصدها. قفـــزت لأحضن يدها وأقبلها. دخلت ماريا إلى الداخل، وبدأ القطار بالحركـــة من دون صوتٍ ولا جلبة. ركضت بجانب النافذة التي كانت تجلس خلفهـــا لمدة، ثم تباطأت، ثم لوحت بيدي صائحاً:

- " سأدعوك، سأدعوك بالتأكيد!".

هزّت رأسها ضاحكة. نظراتها ووجهها كانا يخبراني بأنها تصدقني.

في داخـــلي حزن مَنْ بقي في صدره كلامٌ لم يقله. لماذا لم نتحدث في شيءٍ منذ البارحة؟ لماذا تحدثنا عن الحقائب، وعن متعة الســـفر، وعن شتاء الســـنة، ولكننا لم نقترب من المواضيع التي تمســـنا نحن؟ ربما كان هذا أفضل. ماالذي كان سيغيره الكلام الكثير؟ ألم يكن كلّ شيءٍ سيصل إلى نفس النتيجة؟ ماريا وجدت أفضل طريقة، وبلا شك. عرضٌ وقبول.. قصير، ومن دون نقاشٍ أو حســـاب! لم يكن من الممكن أن يكون فراقنا أفضل من هذه الطريقة. كل الكلمات الجميلة التي كنت أحترق لندمي

على عدم قولي لها كانت عاجزة ولا تملك لوناً أمام ما فعلت هي.
الآن أصبحت متفهماً تقريباً لسبب اتخاذها قرار السفر قبلي. لو أني ذهبت قبلها فإن أول عدة أيامٍ بعد ذهابي في برلين ستكون مملَة جداً ومضجرَة بالنسبة لها على كلِّ حال. حتى أنا، كنت ورغم إنشغالي الشديد بتجهيزات السفر، وأمور جواز السفر والتذكرة والفيزا، إلا أني وفي كل مرةٍ أمر من شارع كنا قد مررنا به كنت أشعر بكآبةٍ وحزن، رغم أنه لم يعد هناك ما يُثير الحزن. سأعود إلى تركيا، وبمجرد أن أنهي أعمالي وأضع كلّ شيءٍ في نصابه سأستدعيها لتأتي. هذا كل مافي الأمر.. أظهرت مهارتي الكبيرة في نسج الأحلام نفسها هذه المرة. كنت أرى أمام عينيّ القصر الجميل الذي سأشيده بالقرب من هاوران والتلال والغابات التي سنتنزه عليها.
عدت الى تركيا بعد أربعة أيام، مروراً ببولندا ورومانيا. لم يكن في هذه الرحلة أي شيءٍ مهم يستحق الكتابة، ولا عن السنوات التي تلتها... لم أبدأ بالتفكير في الحادثة التي تسببت في عودتي إلى تركيا إلا عندما ركبت الباخرة في كونستانتسا. توفي أبي. شعرت بحرجٍ من نفسي لإدراكي المتأخر جداً لهذه الحقيقة. رغم أنه لم يكن هناك من سببٍ يجعلني أحبه في الحقيقة؛ كنا دائماً كغريبين عن بعضنا، ولو سألني أحدهم مرة: "هل كان أبوك شخصاً جيداً؟" فلن أجد جواباً أرد به عليه، لأن معرفتي به ضحلةٌ جداً، لاتكفي لمعرفة ما إذا كان طيباً أم سيئاً. كان أبي بالكاد موجودا بالنسبة لي كـ"إنسان" ؛ كان مفهوماً مجرداً عما يمكن وصفه بـ "أب" على شكل إنسان. يدخل الى البيت في المساء بصلعته المستديرة

ولحيته الشعثاء بهدوءٍ مقطباً حاجبيه ولايجدنا ولا حتى أمي جديرين بمخاطبته، مختلفاً تماماً عن الرجال الذين كانوا يجلسون في المقهىً ذي حوض الماء، فاتحين عروة ستراتهم، يتكلمون ضاحكين وهم يشربون لبن العيران ويقدحون بالشتائم ويلعبون الطاولة. كم أردت أن يكون حال أبي في البيت كما هو حاله في القهوة. في الواقع كان حتى عندما يراني وهو على تلك الحال يتخذ وجهه وضع الجدية ويصرخ بي: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هيا اذهب إلى موقد القهوة واشرب شيئاً ثم عد إلى الحارة، العب هناك!".

كبرت، وذهبت إلى التجنيد الإجباري ولم تتغير معاملته لي. بل كنت أشعر ولسبب ما أني كلما كبرت وزاد نضجي كنت أصغر في نظره أصغر. أصبح ينظر إلى آرائي الشخصية وأفكاري ببعض الإستخفاف. في السنوات الأخيرة، كانت موافقته لكل رغباتي وطلباتي علامةً على عدم تنزّله وإعطاءه أي أهميةً لي. رغم كل هذا، إلا أنه لم يكن في رأسي أي شيءٍ يشوّه ذكراه. لم أكن سأشعر بالفراغ الذي تركه، لكنني سأشعر بغيابه. مع اقترابي من هاوران كان الحزن يخيم على صدري أكثر فأكثر. كنت أشعر بصعوبة في تخيل بيتنا وقريتنا من دونه.

ليس هناك لزومٌ لأسترسل في شرح طويل لكل هذا، بل إني أفضل ألا أتكلم عن العشر سنوات التالية أيضاً. لكن ولكي تُفهم بعض المواضيع، فعليّ أن أخصص بعض الصفحات لأكتب عن أكثر مرحلةٍ خلواً من المعنى في حياتي. لم يُحتفى بي ولم أُستقبل بترحابٍ في هاوران. وكأنما كان نسائبي يسخرون مني، وأخواتي الكبيرات كن كالغرباء تماماً، وأمي

بائسةً أكثر من السابق. أُغلق بيتنا، وانتقلت أمي للعيش مع نسيبي. ولأنه لم يعرض عليّ أن أبقى معهم ، بدأت بالعيش مع إحدى النساء التي عملت عندنا لفترةٍ طويلةٍ في بيت كبير وحدنا. وعندما أردت أن أتسلم أعمال أبي، أُخبِرت بأن الميراث قد وُزّع قبل وفاته، ولم أستطع أن أستعلم من نسيبي عن حصتي الحقيقية مما ترك والدي. لم يذكر أحدٌ مصنعي الصابون، يُفهم من ذلك أن أبي باعهما قبل مدةٍ لنسائبي. أما ثمنهما، وحتى المال والذهب الذي كان يُقال أن أبي كان يملكه، لم أر منه شيئاً. ولم تكن أمي مدركةً لما يدور حولها. وعندما سألتها قالت:

- "لا أعلم ياولدي! يبدوا أن المرحوم ذهب قبل أن يخبرنا عن مكان دفنها. في آخر أيامه لم يتركه نسائبك وحده أبداً، هل كانوا يعرفون بأنه سيموت؟ واضحٌ بأنه لم يستطع أن يخبرنا بمكان الدفينة، ماذا علينا أن نفعل الآن؟ لنذهب إلى أحد حرس المزارع على الأقل، فهم يعرفون كل شيء!"

كانت أمي جادة، فمن بعدها لم تترك عاملاً أو حارساً في هاوران وجوارها لم تسأله. توصياتهم ونصائحهم لم تترك شجرة زيتون سالمة من الحفر، ولا زاوية جدار لم تُفحص. صرفت ماتبقى لها من من قطع الذهب القليلة في هذا السبيل، أخواتي الكبار كنّ يذهبن مع الحرس والعمال أيضاً لكنهم لم ينفقوا شيئاً، كنت ألاحظ سخرية وضحك أصهاري من عمليات البحث عن الدفينة التي لم تأت بنتيجة. ولكون موسم الحصاد قد ولى فلم يكن من الممكن لي أن أحصل على شيءٍ من محصول أشجار الزيتون، أمّنت بعض القروش لنفسي من بيع المحصول المستقبلي لبعض أشجار الزيتون. لم يكن همي إلا تخطي فصل الصيف

هذا، وفي فصل الخريف، وبمجرد بدء موسم الزيتون، سأبذل قصارى جهدي وأحسن من وضعي ثم أرسل لماريا وأستدعيها.

منذ عودتي إلى تركيا وأنا أتراسل معها. كانت ساعات قراءتي لمكاتيبها وكتابة ردودي لها الشيء الوحيد الذي ينشر في صدري انشراحاً وبهجةً وسط أعمالي السخيفة في أيام الخريف المليء بالطين والصيف الخانق.

بعد أن عدت إلى تركيا بشهرٍ عادت هي وأمها أيضاً إلى برلين، كنت أرسل رسائلي إلى عنوان مركز البريد في ميدان بوتسدام، وهي تستلمها من هناك. في أواسط الصيف كتبت لي مرةً أشياءً غريبة. تخبرني في الرسالة أنها تحمل لي خبراً مفرحاً جداً، ولكنها لن تخبرني به إلا بنفسها عندما تأتي. كنت قد كتبت لها بأني أؤمل بأني سأستدعيها في الخريف!.

من بعد ذلك، ورغم سؤالي المتكرر لها في رسائلي ، إلا أنها لم تخبرني عن ماهية هذا الخبر. كانت تقول دائماً: "انتظر، ستعرف عندما آتي."

نعم، انتظرت، ليس حتى الخريف فقط، بل انتظرت عشر سنوات. ولم أعرف هذا الخبر "المفرح" إلا بعد عشر سنوات، لم أعرفه إلا البارحة.

لكن لندع هذا جانباً ولأحكي كل شيءٍ بالترتيب.

طوال الصيف، كنت أرتدي في قدميّ حذاءً طويلاً، وتحتي حصان، تجولت في مزارع الزيتون، في الجبال وسفوحها. كنت أستغرب من أن أبي أورثني أبعد أراضيه عنا، وأكثرها جدباً وأقل محصول. وفي المقابل، ترك لأخواتي وأصهاري المزارع القريبة من هاوران في السهول، والتي تسقى بسهولةٍ وتعطي الشجرة منها محصولاً يقدر بأكثر من شُوال. في المناطق التي تجولت فيها ماراً على أشجار الزيتون، اكتشفت أن أكثرها،

و بسبب عدم تشذيبها والاعتناء بها، بدأت تتوحش، وفهمت بأنه حتى عندما كان أبي حياً، لم يزعج أحدٌ نفسه ويأتي ليجمع محصولها حتى.

يبدو أنهم استغلوا مرض أبي، وبؤس أمي وخوف أخواتي وغيابي لصالحهم، لكني كنت بعملي الجاد بلا تعب آمل بأن أصلح كل شيءٍ، وفي كل مكتوبٍ أبعثه لماريا أعطيها أملاً وأشوقها أكثر.

في بدايات تشرين الأول، وفي تمام بداية الاستعداد لأعمال زراعة الزيتون، وعندما نويت بأن أستدعيها، انقطعت رسائلها فجأة. كنت قد رممت البيت، وبين كل استخفاف وسخرية أهل هاوران التي تصل لدرجة الحقارة، وفي مقدمتهم أقاربي. أرسلت بطلب أغراضٍ للبيت من إسطنبول، من بينها حوض استحمام، بلّطت غرفة الغسل ووضعته فيها. ولعدم إفشائي لأحد بسبب ما كنت أفعله كان الكل يحمل تصرفاتي على أنها خيلاءٌ، وتقليد للفرنجة، وتحذلقٌ مني. فقد كان جنوناً صريحاً لشخصٍ مثلي لم تنتظم أعماله بعد بأن يشتري خزنةً بمرآةٍ بثمن ما باع من محصولٍ أو ماتسلف من نقود. كنت أضحك في نفسي على اتهاماتهم، فلم يكن هناك إمكانية لأن يفهموا ما كنت أفعل، ولست مجبوراً على أن أبرر لهم ذلك أيضاً.

لكن عدم قدوم مكتوبٍ من ماريا رغم مرور خمسة عشر أو عشرون يوماً أوقعني في قلقٍ واضطرابٍ شديدين. ذهني الذي كان مستعداً دائماً للشكّ والوسوسة لفّني بآلاف الإحتمالات والوساوس. استمريت في الإرسال لها مرةً بعد مرة، وعندما لم أتلقّ أي جوابٍ وقعت في يأسٍ محبط. كانت الفترة ما بين رسائلها قد زادت تدريجياً من قبل، والصفحات أصبحت أقلّ امتلاءاً وفحوى. نشرت كل رسائلها أمامي وقرأتها واحدةً بعد

أخرى. كان هناك في رسائل الشـهور الأخيرة شيءٌ من الحيرة، وأشياءُ تحاول التخفي، وتعابيرُ متهربةٌ وغامضةٌ لا تشـبه طبيعة ماريا الواضحة والصريحـة أبداً. حتى إنني تـرددت فيما إذا كانت تريـدني أن أدعوها للمجيء بسرعة، أو كانت تخاف من أن أدعوها وبالتالي سـتحزن، لأنها سـتصبح في وضع يجبرها على التراجع عن وعدها لي، كنت أفكر في كل ذلك. أصبحت الآن أسـتخرج من كل سـطرٍ، و من كل إفادةٍ نصف كاملة، ومن كل مزحةٍ معان وتأويلاتٍ كثيرة، وأتحول لمجنون.

كل رسائلي ذهبت هباءً وكنت محقاً في كل مخاوفي.

لم أتلقى من ماريا أي خبرٍ بعدها، ولم أسـمع باسـمها، حتى... حتى الأمس.. لكننا لم نصل إلى هنا بعد.. بعد شـهر، عادت إليّ كل رسائلي وهي ممهورة بختم "تعاد إلى مرسـلها لعدم قدوم أحدٍ لاسـتلامها".

وقتهـا قطعت أملي مـن كل شيء. والآن، عندما أفكـر بكيفية تغيري في ظـرف عدة أيامٍ فقط فإني أتعجب. مـاكان يعطيني الدافع لأتحرك، وأرى، وأسـمع، وأحس، وأفكر، ما كان باختصار يعطيني القدرة على العيش، كأني به انتزع من داخلي ، ولم تبق منه إلا الرسابة.

في هذه المرة، لم يكن حالي كما كان في الأيام التي تلت ليلة رأس السـنة. في تلك الأيام لم أشعر باليأس وانقطاع الأمل أبداً، لم تترك عقلي فكرة أن أذهب إليها، وأشعر بالقرب منها، أتكلم معها، وأن أقنعها. لكني الآن عاجزٌ تماماً. المسافة العظيمة التي بيننا كانت تقيد ذراعي. أقفل على نفسي في بيتي، أمشي من غرفةٍ إلى أخرى، أقرأ رسائلها ورسائلي المعادة مراتٍ ومرات، أقف عند النقاط التي لم ألحظها من قبل وأضحك بمرارة.

وبشـــكل مفاجئ قلّت علاقتي بأعمالي، بل علاقتي بنفسي بشـــكل عام، وصلـــت لدرجة الصفر. تركـــت رجّ الزيتون، وجمعـــه، والذهاب به إلى المصنع وإخراج زيته لفـــلانٍ وعلان. أحياناً كنت أفضّل أن أنزع أحذيتي الطويلة وأخرج إلى البراري والحقول، وأتجول في أماكنٍ لا أرى فيها وجه إنســـان، وفي منتصف الليل أعود فأستلقي على فراشي وبعد عدة ساعاتٍ أستيقظ في الصباح على شعورٍ مرٍ يسألني: "لماذا مازلت حياً حتى الآن؟".

أيامـــي الفارغة، وعديمة الهدف والمنطق التي كانت قبل أن أتعرف على ماريا، بدأت من جديد، رغم أن نســـختها الجديدة توجعني وتشعرني بالكرب أكثر. بينهما كان هناك فـــرق. وتبدل جهلي الذي كان يجعلني أعتقد بأنها كانت الحياة بعينها ليحل محله عذاب إدراكي بأنه من الممكن للحياة أن تُعاش بطرقٍ أخرى كثيرة. لم أعد واعياً بما يدور حولي. لم أعد أشعر بإمكانية استمتاعي بأي شيء.

في مـــدةٍ قصـــيرة، أنقذتني تلك المرأة مـــن حالتي العاجزة والبائســـة، وعرفتني بكياني كرجل بل كإنســـان، وبـــأن في داخلي تتواجد جوانبٌ مســـتعدةٌ للحياة، وبأن الحياة ليست ســـخيفةً بالقدر الذي يُقال عنها. لكني، وبمجرد خســـارتي للرابط بيني وبينهـــا، وبمجرد خروجي من تحت تأثيرها، عدت إلى حالتي القديمـــة. أدركت الآن مقدار حاجتي الشـــديدة إليها. كنت دائماً بحاجة لسـندٍ مثلها، ومـــن دونه ليس من الممكن لي أن أعيش. ورغم ذلك عشت، لكن النتيجة واضحة. إذا كان جائزاً القول عن هذا بأنه عيش، فقد عشت.

لم أحصل من ماريا على خبر بعدها. في رســـالة صاحبة المهجع في برلين

فرأو فان تيدمان أخبرتني بأنها لم تعد تسـكن قريباً منها، وبسبب ذلك فإنها لن تستطيع أن تفيدني في هذا الموضوع. هل هناك أحدٌ آخر لأسأله؟ كانـت قد كتبت لي بأنهم بعدما عادوا من براغ انتقلوا لمنزلٍ آخر، لكنها لا تعرف عنوانه. أصبت بالذهول عندما أدركت قلة عدد الناس الذين تعرفت عليهم في ألمانيا رغـم مكوثي هناك مدة عامين. لم أذهب لمكانٍ غير برلين، أعرف المدينة من شـمالها وجنوبها إلى شـوارعها المغلقة. لم أترك متحفاً، معرضاً فنياً، حديقة حيوانات أو نباتاتٍ، غابةً أو بحيرةً لم أزرها. رغم ذلك فإني ومن بين الملايين الذين يعيشون في هذه المدينة، لم أتكلم إلا مع عدة أشخاص، وتعرفت على شخصٍ واحدٍ فقط.

ربـما كان ذلك كافياً، فكلّ إنسـان يكفيه إنسـان واحدٌ على كل حال. لكن عندمـا لايكون هذا الإنسـان موجوداً؟ عندمـا يُخرج كل شيءٍ نفسـه كخيالٍ، كحلمٍ خادعٍ ووهم، فما الذي يمكن أن يُفعل؟ هذه المرة فقدت قـدرتي على الإيمان والأمل، تنامت في داخلي مشـاعر من عدم الثقـةِ والاطمئنانِ تجـاه لكل الناس ومرارةٌ لدرجـة أني أصبحت بين حينٍ وآخر أخاف من ذلك. مهما كان يحصل، فإن أي شـخص أحتك به أشـعر به كعدو أو مخلوقٍ مؤذ. ورغم مرور السـنوات، إلا أن هذا الشـعور اشتد بدل أن يتلاشـى ويضعف تدريجياً. فالشك الذي كنت أشعر به تجاه الناس تحول إلى درجة الحقد. هربت ممن حاولوا الإقتراب مني. أكثر من كنت أخشـاهم هم من كانوا الأقرب مني، أو من ظننت بأني سـأجدهم أقرب إلي. كنت أقول عن أي منهم: "حتى هو بعد أن فعل ما فعل!"، ماذا فعل، ذلك لم يكن معلوماً؛ ولهذا السبب في الأصل

كانت مخيلتي تتوقف فوق أسوأ الظنون وتعطي أثقل الأحكام. هكذا.. في لحظة فراق، فإن أفضل حلٍّ لعدم الوفاء بوعدٍ أُعطي بلهفةٍ وحماس، هو قطع العلاقة نهائياً وبلا نقاش. لا تؤخذ الرسـائل من مركز البريد، ولا يُبعث بجواب. فما كان يُظن بأنه موجود يختفي في لحظة. من يدري أيّ مغامرةٍ جديدة، أيّ سعادةٍ أقرب وأكثر منطقية فتحت ذراعيها لها. ترك كل هذا، وربط طفلٍ سـاذج بوعدٍ لإدخـال البهجة على قلبه ثم الدخول في حياةٍ جديدةٍ والقفز في مغامرةٍ لا يُعرف ما ستصل إليه ليس بشيءٍ قد يفكر به عقلها الرزين.

لكـن لماذا لا أسـتطيع التكيف مـع ما حصل رغـم تفكيري وتحليلي الدقيق له؟ لماذا أتردد من الخطو في كل طريقٍ جديدٍ تعرضه علي الحياة، وأسيء الظن بكل إنسـان يحاول الإقتراب منـي، وأقابله بقلق؟ كنت أحياناً أنسى نفسي لمدةٍ وأشـعر بالقرب من إنسانٍ ما يشبهني في بعض الجوانب. لكن حكمي المخيف على الناس الذي ترسَـخ في رأسي كان سرعان ما يُظهر نفسه ويدعوني للحقيقة "لاتنسَ، لاتنسَ، لاتنسَ أنها كانت أقرب إليـك... ورغم قربها منك إلا أنهـا فَعَلَت ما فعلت..". وفي كلّ مـرةٍ يقترب منـي أحدهم بمقدار خطوةٍ وأبـدأ بالأمل أقول لنفسي: "لا، لا، هـي اقتربت مني أكثر، إلى درجة أنـه لم تعد بيننا أي مسافة.. لكن ومع ذلك، كانت النهاية!". عدم التصديق، وعدم القدرة على التصديق.. كنت أشـعر بفظاعة ذلك في كل يومٍ وكل لحظة. وكل المحاولات للتخلص من هذا الشعور باءت بالفشل. تزوجت، في ذلك اليوم أدركت حقيقة أن زوجتي كانت أبعد عني من كل الناس. أصبح

لي أطفال، وأحببتهم، رغم أنهم لن يستطيعوا تعويضي عما فقدته أبداً. لم أشعر بالإرتباط مع أعمالي أبداً. عملت كآلة من دون أن أعرف ماذا كنت أعمل. كنت أعرف بأنني أُخدع وأشعر بمتعةٍ في ذلك، عوملت من طرف أصهاري كأبله ولم ألق لهم بالاً. أخذت الديون وفوائضها وتكاليف الزواج ما تبقى في كفي من مال. لم تكن أشجار الزيتون تُكسِب شيئاً. ومن معهم مالٌ، اعتادوا على أخذ الأملاك التي تركها من لم يكن معهم مال. الشجرة التي كانت تعطي محصولاً يساوي سبعة أو ثمانية ليرات في السنة لم تكن تجد من يشتريها. قام أصهاري، ولينقذوني من وضعي المتعسر ويحموا ثروة العائلة من التبدد فقط، بدفع ديوني عنَي وشراء أشجار الزيتون. لم يكن قد تبقى لي غير بيتٍ متداع بأربعة عشرة غرفة وعدة قطعٍ من الأثاث. كان والد زوجتي ما يزال في صحته ويعمل كموظفٍ في باليكسير، وحصلت عن طريق توصيته على وظيفةٍ في شركةٍ في مركز الولاية. بقيت فيها لسنوات، ومع تزايد احتياجات أسرتي كانت علاقتي بالحياة تتضاءل، واختفت جهودي التي كان عليّ أن أزيد منها. توفي والد زوجتي فانتقلت مسؤولية أخت زوجتي وأبنائها إليَ. لم يكن من الممكن أن تكفيني الأربعون ليرة التي أتقاضاها لأسد احتياجاتهم، فنقلني أحد أقارب زوجتي البعيدين إلى بنكٍ في أنقرة، البنك الذي أعمل به الآن. ولأني كنت أتقن أكثر من لغة، ورغم خجلي إلا أنه كان يأمل لي أن أترقّى بسرعة. لم يحدث ماتوقعه أبداً. فأينما وُجِدت، فبالنسبة لمن حولي كان وجودي دائماً مساوياً لعدمه. في كل مكان تخرج فرصٌ جديدة، وكان أناسٌ جديدون يعطونني آمالاً قصيرةً بأن أعيش تجربة بذل وتوزيع الحبّ

الفائض الــذي أجده في روحي من جديد. لكنني لم أســتطع أن أخلّص نفسي من ذلك الشــك. لم أثق في هذه الدنيا إلا بشخصٍ واحد، وثقت به لدرجة أن تعرضي للخيانة من قبله أفقدني القدرة على الوثوق بغيره.

لست بحانقٍ عليها. كنت أشــعر بأنني لا أستطيع أن أغضب أو أحنق عليها، أو أن أفكر بأفكارٍ ســيئةٍ عنها. لكنني كُسِرت لمرة. وانكساري هذا الذي شعرت به أمام هذه الإنسانة التي وثقت بها أكثر من أي أحد، كان كأنــه قد تفرّق على كل الناس؛ لأنها كانت تمثل لي كل الإنســانية. ثم، وبعد أن رأيت أني ورغم مرور السنين مازلت متعلقاً بها، أصبحت أشــعر بانفعالٍ أكبر في نفسي. فهي ستكون قد نستني منذ زمنٍ طويل. من يعلم مع من تعيش الآن، ومع من تتنزه.

كنت في أوقات العصر حين أســتمع إلى ضجيــج الأطفال، وأصوات وقع نعال زوجتي وجلبة الأطباق التي تغســلها في المطبخ، وشجارات أبناء أخت زوجتي، أطبق عينيّ وأتخيل مكان وجود ماريا. ربما وجدت عشــيراً آخر تشــاهد معه الأشــجار ذات الأوراق الحمراء في حديقة النباتات، أو تشــاهد لوحاتٍ خالدةٍ رُســمت بريشــات فنانون كبار تحت أشعة الشمس التي تضرب بأشــعتها على زجاج المعرض خفيف الإضاءة قبل الغروب. في مســاء أحد الأيام وأنا عائد إلى البيت مررت بالبقّال، واشتريت بعض الأغراض. وبينما أنا خارجٌ من الباب، صدح مذياع أحد ســاكني المنزل المقابل بأوبرا "أوبيرون" لـ"ويبر"، كادت الأغــراض أن تقع من يــدي. كانت هذه أحد عــروض الأوبرا التي حضرناها ســوية، وأعرف أيضاً أنه كان لهــا مع ويبر قصة آخرى، فقد

كانت تصفّر معزوفته ونحن نمشي في الطريق دائماً. شعرت بشوقٍ وحسرةٍ طازجةٍ وكأننا افترقنا البارحة. كل مرارات الحياة وكل مايخسر فيها من أشياء ثمينة وثروات يُنسى مع الزمن إلا الفرص المفوّتة فإنها لا تُنسى أبداً في كل مرة يتذكرها المرء فإن شيئاً بداخله يعذبه. سبب ذلك على كل حال هو الاعتقاد بأنه كان من الممكن أن يكون الوضع مختلفاً، وإلا فالإنسان مستعد دائماً لتقبل ما يلقيه عليه القدر.

لم أشعر بعلاقةٍ تربط زوجتي، و أبنائي، أو الناس بي بشكل عام. لكني كنت أعرف أنه لم يكن من حقي أن أحصل عليها. الشعور الغريب الذي انتابني لأول مرةٍ في يوم رأس السنة الغريب بعدم أهميتي قد تمكن مني تماماً. ما أهميتي أنا لهؤلاء الناس؟ هل كانوا يتحملونني لأني أوفر لهم قروش الخبز؟ الناس لا يحتاجون للدعم المادي والمالي من بعضهم، بل للحب والإهتمام. وعندما لا يحصلون على ذلك، يصبح وصف الوظيفة الحقيقية لرب العائلة هو «إطعام ثلةٍ من الغرباء». أتعجّل وأشتاق من الآن إلى الوقت الذي ينتهي فيه ذلك ولا يصبحون فيه محتاجين إليّ بأي شكل. وتدريجياً، تحولت حياتي إلى عبارةٍ عن اشتياقٍ وانتظار لهذا اليوم الذي يبدو بعيداً. كأنني سجينٌ ينتظر إنتهاء اليوم. لم يعد للأيام قيمةٌ إلا أنها تقربني إلى هذا اليوم البعيد. كنبتةٍ أعيش بلا شكوى ولا شعورٍ ولا تحكم. مشاعري تدهورت تدريجياً. لم أعد أتأثر بشيء، ولم أعد محبوباً من أي أحد.

لم يكن بإمكاني أن أغضب من الناس، لأن أغلى وأطيب وأكثر من أحببت من الناس أساءت إليّ أكبر إساءة، فهل من الممكن أن أتوقع

خيراً من بقية الناس؟ لم يكن بالإمـــكان أن أقترب من الناس وأحبهم أيضاً، لأنني تعرضت للخيانة من أكثر إنســـانةٍ وثقت وآمنت بها. فهل أستطيع أن آمن على نفسي من البقية؟
وهكذا ستمر الأعوام على كل حال، وســـيأتي اليوم الذي انتظره وكل شيءٍ ســـيؤول إلى نهايته. لا أريد أي شيءٍ آخر، فالحياة لعبت معي لعبةً قذرة. حســـناً، هكذا، لا ألوم نفـــسي ولا الآخرين، أتقبل كل مايحدث كما هو وأتحمل بصمت، لكن ليس هناك داع لأن يذهب هذا ويمضي. أشعر بالضجر، أشعر بالضجر فقط. وليس لي شكوى أخرى.
في أحـــد الأيام.. أعني الأمس، يوم الســـبت، عدت إلى البيت في وقت الظهيرة وخلعت ملابسي. طلبت مني زوجتي شراء بعض الأغراض: «ستكون الأسواق مغلقةً غداً، أتعب نفسك مسافة السوق!». ارتديت ملابسي وأنا غير راغبٍ في الذهاب. مشـــيت حتى وصلت إلى السوق. كان الجو حاراً جداً. الشوارع كانت ملأى بمن يتجولون بلا غايةٍ وبمن يبحثـــون عن هواءٍ باردٍ في مثل هذا المســـاء المغـــبر، وأنا وبعدما أنهيت تبضعي حشرت ما اشتريته في كيس ثم تأبطته ومشيت بإتجاه التمثال. لم أسلك نفس طرق البيت المعوجة، أردت أن أمشي من الطريق المسفلت، ولو على حساب طول المسافة. أحد الساعات الكبيرة المعلقة أمام أحد الدكاكين كانت تشير إلى السادسة. وبغتةً شعرت بأحدٍ يمسك بذراعي. صرخ صوت امرأةٌ في أعماق أذني:
- "هير رائف!"
ذهلت من طريقة الخطاب الألمانية هذه. كدت أن أستخلص ذراعي من

يدها وأهرب. أمسكت بي المرأة بإحكام، كانت تقول بصوتٍ مرتفعٍ جذب أنظار الشبان لنا:

- "لا، لست مخطئة، انتم حقاً هير رائف! ياه، كم يتغير الإنسان!"

رفعت رأسي ببطئ. ومن دون أن أرى وجهها حتى، عرفت من تكون من جسدها الضخم. حتى صوتها لم يتغير أبداً، قلت:

- "أوه، فراو فان تيدمان. من كان يتوقع أني سأراك في أنقرة؟"

- "لا، لم أعد فراو فان تيدمان. ضحيت بلقب "فان" من أجل زوج. اصبح اسمي فراو دوبكه، لكني لست متضررة!"

- " مبروك! يعني هذا أنك..."

- "نعم صحيح، كما حزرتم. بعد أن رجعتم لبلادك بمدةٍ قصيرة، تركنا نحن المهجع أيضاً، وذهبنا إلى براغ سوياً."

بمجرد سماعي لكلمة براغ شعرت برعدةٍ تسري في جسدي، لم يصبح بمقدوري أن أمسك نفسي عن فتح الموضوع الذي فكرت فيه قبل قليل. لكن لأي سببٍ وبأي صفةٍ كنت سأسأل؟ فلم تكن تعرف بعلاقتنا أنا وماريا، بماذا ستفسر سؤالي؟ ألن تسألني من أين أعرفها؟ ثم الأشياء التي ستقولها.. أليس من الأفضل أن لا أعلمها أبداً؟ مالفائدة المرجوة من علمي وقد مرّ على الحادثة سنوات - عشر سنواتٍ تماماً، بل أكثر بقليلٍ حتى -؟ انتبهت بأننا مازلنا واقفين في منتصف الشارع فقلت:

- "تعالي لنجلس في مكانٍ ما، فلدينا ما سنسأل عنه بعضنا. مازلت أتعجب من رؤيتي لك في أنقرة!"

- "نعم، من الجيد لو نجلس في مكانٍ ما، لكن موعد قطارنا يقترب،

بقي أقل من ساعة.. أخاف أن نفوّته.. لو كنت أعلم بوجودك في أنقرة لكنت أخبرتك بالطبع. أتينا مساء البارحة، وسنغادر مساء اليوم..."

بجانب المرأة، لم ألحظ وجود طفلة هادئةٍ بعمر ثمانية أو تسع سنوات، وجهها أصفر شاحب.

ضحكت قائلاً:

- "وهذه بنتكم؟"

- "لا.. قريبتي! ابني على وشك نيل شهادة البكالوريوس في الحقوق!"

- "هل مازلتم توصونه بقراءة كتبٍ معينة؟"

لم تستطع التذكر للحظة، ثم ضحكت قائلة:

- "نعم، معك حق، لكنه الآن لا يستمع إلى توصياتي. لقد كبر الآن. كان عمره في الثانية عشرة وقتها... يا الله، السنوات تمضي بسرعة!"

- "صحيح.. لكنك لم تتغيري أبداً!"

«ولا أنت!»

تذكرت قبل قليل أنها كانت مجاملةً فلم أرد عليها.

مشينا باتجاه المحطة. احترت كيف أبدأ بالسؤال عن ماريا بودر، كان عقلي يتجول بين مواضيعٍ سخيفةٍ وليس لي علاقةٌ بها.

- "لم تخبروني عن سبب قدومك لأنقرة بعد!"

- "أها، صحيح، حسناً سأخبركم. نحن لم نأت إلى أنقرة، بل عائدون إلى ديارنا. مررنا بها فقط."

وافقت على الجلوس قليلاً عند بائع ليمونٍ وأكملت حكايتها هناك:

- "زوجي الآن في بغداد. كما تعلمون، فهو تاجر مستعمرات!"

- "لكن بغداد ليست مستعمرةً ألمانيةً كما أذكر!"
- "أعلم ياعزيزي. لكن زوجي متخصصٌ في محاصيل المناطق الحارة، هو الآن يتاجر بتمر بغداد!"
- "وهل كان يتاجر بالتمور في الكاميرون أيضاً؟"
نظرت إليّ المرأة نظرةً تقول « يالك من متطفل»، ثم قالت:
- "لا أعلم، ابعث له برسالة واسأله! فالنساء لا يتدخلن في أمور التجارة!"
- "والآن إلى أين تذهبون؟"
- "إلى برلين. منها أزور بلدي، ومنها.."، ثم أشارت إلى الطفلة بجانبها:
- "من أجل هذه الطفلة أيضاً. لأنها نحيلةٌ فقد أمضت الشتاء معنا، والآن نحن نعيدها."
- "معنى هذا أنكم تترددون على برلين كثيراً!"
- "مرتان في العام!"
- "أرجو أن أعمال هير دوبكه تمضي على مايرام على أية حال!"
ضحكت ومالت إلى الخلف قليلاً.
مازلت لا أستطيع سؤالها. الآن عرفت لم كل هذا التردد، لم يكن بسبب عدم معرفتي كيف أبدأ بالسؤال، بل بخوفي مما سأتلقاه من إجابات. لكن ألم يكن كل شيءٍ عندي مساوياً لبعضه؟ فليس بداخلي أي حسٍ حي. لماذا خفت؟ قد تكون ماريا وجدت لنفسها هير دوبكه آخر هي الأخرى أيضاً، ربما ما زالت عزباء تركض من رجلٍ إلى رجلٍ باحثةً عن رجلٍ "تثق فيه"، ستكون قد نسيت تفاصيل وجهي على أية حال.
عندما فكرت بذلك لاحظت بأني أنا أيضاً لم أعد أستطع تذكر ملامح

وجهها، ولأول مرةٍ منذ سنواتٍ تذكرت بأني لم أترك لي صورةً عندها، ولا هي تركت صورةً لها عندي. وقعت في ذهول. كيف لم نفكر في ذلك لما اقترب فراقنا؟ لنفترض أننا كنا نتوقع بأننا سـنتقابل بعد مرةٍ قصيرة، ووثقنا بذاكرتنا، لكن مـاذا أقول عن وعيي بذلك الآن فقط؟ لو كنت أعلم، ألم أكن سأشعر بحاجة النظر إلى وجهها أمام عينيّ؟

أذكر أني في الشهور الأولى كنت أحتفظ بكل خطوط وجهها في ذاكرتي، وفي كل لحظةٍ كنت أسـتطيع إحياء صورتها أمامـي بلا عناء، لاحقاً.. وعندما فهمت بـأن كل شيءٍ قد انتهى، هربت مـن رؤية وتخيل هذه الصورة دائماً. كنت أعرف بأني لن أسـتطيع تحمل ذلك. وجهها، وجه مادونـا صاحبة معطف الفرو، رغم وجوده في مخيلتي فقط، إلا أنه كان مؤثراً وقوياً لدرجةٍ تفقدني كل توازني.

الآن وعندما أردت إنعاش الذكريات والأيام القديمة، ورغم أني أعلم بأني لن أشعر بأي تأثر، بحثت عن وجهها، لكني لم أجده.. وليس لدي صورةٌ لها حتى.

مالزوم ذلك؟

نظرت فرأو دوبكه إلى ساعتها ونهضت. مشينا سوية إلى المحطة.

كان انطباع المرأة عن أنقرة وتركيا جيداً جداً، فقد قالت:

- "لم أر موطناً يُحترم فيه الأجنبي بهذا القدر! حتى سـويسرا ليسـت كذلك، رغم أنها مدينة برفاهيتها للسياح. ينظر المواطنون إلى الأجانب وكأنهم دخلـوا عليهم بيوتهم عنوة. بينما في تركيـا، الكل وكأنه ينتظر فرصةً حتى يفعل لأجنبيٍ معروفاً، ثم فإني قد أعجبت بأنقرة جداً!"

كانـــت المرأة الكبيرة تتكلـــم. والطفلة كانت تســـبقنا بخمس أو عشر خطوات، ثم تلمس الأشجار التي كانت على أطراف الطريق. وعندما اقتربنـــا من المحطة، وبقرارٍ أخير، لكـــن وبمحاولة أن أبدو وكأني غير مكترث قدر الإمكان، بدأت بالكلام:

- "هل أقربائك في برلين كثيرون؟"

- "لا، ليسو كثر. أنا في الأصل من براغ، إحدى مدن التشيك. زوجي الأول كان هولندياً.. لماذا تسألون؟"

- "بينما كنت هناك، رأيت امرأةً يقال بأنها قريبتك."

- "أين؟"

- "في برلين. قابلتها صدفةً في معرض لوحات، على الأغلب أنها كانت رسامة."

تذكرت فجأة:

- " حسناً.. ثم؟"

قلت بتردد:

- "ثم.. لا أدري أتكلمنا مرةً أم مرتين، كانت لها لوحةٌ جميلة.."

- "أتذكر اسمها؟"

- "على الأغلب أنـــه كان بودر. نعم صحيح، ماريا بودر! كان توقيعها تحت لوحتها، وفي الألبوم كان مكتوباً أيضاً."

لم تجب المرأة. استجمعت نفسي من جديد:

"أتعرفينها؟"

- "نعم، لأي سببٍ أخبرتك بأنها قريبتي؟"

- "لا أدري. على الأغلب أني تحدثت عن المهجع الذي كنت أسكن فيه

فقالت لي بأن لها قريبةً هناك، أو شيئاً آخر، لا أستطيع التذكر الآن طبعاً. نتكلم عن عشر سنوات!"

- "صحيح، ليس بزمنٍ قصير. أخبرتني أمها بأنه كان لماريا صديقٌ تركيٌ مقرب، وبأنها تحدثت عنه ليومٍ كامل، فاعتراني الفضول إذا ما كنت أنت ذلك التركي. لكن أليس ذلك بغريب؟ فالمرأة لم ترى التركي الذي كانت ابنتها معجبةً به ولو لمرةٍ واحدة. كانت قد ذهبت إلى براغ في تلك السنة، لم تعلم عن رحيل الطالب التركي عن برلين إلا من ابنتها هناك!"

وصلنا إلى المحطة. مشت فراو باتجاه القطار. كنت خائفاً من أن الموضوع إذا تغير فإنني لن أستطيع العودة إليه ولن أستطيع معرفة ما أريد معرفته. ولذلك نظرت إلى عينيها باهتمامٍ كأنني أنتظر منها أن تكمل حديثها.

بعد أن صرفت فراو نادل الفندق الذي وضع لها أمتعتها في المقصورة، عادت إلي:

- "لماذا تسأل؟ قلت لي بأن معرفتك بها كانت سطحية!"

- "صحيح، لكنها تركت أثراً كبيراً علي. فلوحتها أعجبتني جداً."

- "كانت رسامةً جيدة!"

سألت بقلقٍ ظهر في داخلي فجأةً، قلقٌ لم أعرف ماهيته:

- "هل قلت بأنها كانت رسامة؟ ألم تعد كذلك؟"

المرأة، تلفتت حولها، واستدعت الطفلة، وعندما رأتها قد دخلت إلى المقصورة، حولت رأسها إليّ مجدداً:

- "طبعاً لا.."، قالت واستطردت: "لأنها قد توفيت!"

- "ماذا؟"

إنتبهْتُ بأن هٰذه الكلمة قد خرجت من جوفي كصرخة. حول من كانوا بالقرب منا أنظارهم إلينا، وأخرجــت الطفلة التي كانت في المقصورة رأسها من النافذة ونظرت إلي بتعجب.
تجولت عينا المرأة فوقي بانتباه:
- "لمــاذا تفاجأت لهذه الدرجــة؟ لماذا اصفرّ وجهــك؟ ألم تخبرني بأن معرفتكم سطحية؟"
- "مهما كان، فهو موتٌ غير متوقعٍ أبداً!"
- "صحيح، لكنه ليس بشيءٍ جديد. ربما مرت عشر سنوات."
- "عشر سنوات؟ غير ممكن..."
بعد ان حدقت فيّ المرأة من جديد، سحبتني إلى ركن:
- " أرى أن مــوت ماريــا بــودر يعنيك. دعني أحكــي لك كل شيءٍ باختصار، بعــد أن رجعت أنت إلى تركيا بأســبوعين، رحلنا أنا وهير دوبكــه أيضاً. ذهبنــا إلى صاحب مزرعــةٍ قريبٍ لنا في جــوار براغ. هنــاك صادفنا أم ماريا بودر. لم تكن علاقتــي بأمها جيدة، لكننا وقتها لم نلتفــت لذلك. ماريا كانت نحيلةً وواهنــةً جداً، قالت بأنها مرضت بمــرضٍ ثقيلٍ في برلين. بعد مدة، عادوا مجــدداً إلى برلين. كانت البنت قد استعادت صحتها جيداً. نحن أيضاً رحلنا. ذهبنا إلى موطن زوجي الأصلي شرق بروســيا. وعندما عدنا إلى برلين في الشــتاء سمعنا بخبر وفاتها في شــهر تشرين الأول. نســيت خصومتنا طبعاً واتصلت بأمها فوراً. كانت محطمــةً وحزينةً جداً، كأنها في الســتين من عمرها، رغم أنها كانت في الأربعينات. وعلى حســب ما قالــت لنا، فإن ماريا وبعد

أن عادوا إلى برلين، شـعرت ببعض التغيرات على نفسـها، ذهبت إلى الطبيب، وأُخبرت بأنها حامل. في البداية سُرّت بالخبر أشـد السرور، لكن ورغم كل إلحاحات أمها إلا أنها لم تخبرها بهوية الأب. كانت تقول لها دائماً: "ستعرفين لاحقاً!" وتتحدث عن سَفَرٍ قريبٍ تنويه قريباً. ومع تقدم شهور الحمل بدأت صحتها بالإعتلال من جديد. أخبرها الأطباء بأن ولادتها سـتكون خطيرة، وأرادوا التدخل رغم أنها في شهور حملها الأخيرة، لكن ماريا لم تقبل بـأن يُمسّ الجنين إطلاقاً. بعدها تدهورت حالتها فجأة و أُدخلت الى المستشـفى. هبوطٌ في الزلال على الأغلب. في البداية هز المرض جسدها، وقبل الولادة فقدت وعيها لعدة مرات، فتدخل الأطباء وأنقذو حيـاة الجنين. ورغم ذلك فإن النوبات لم تترك ماريا، وبعد أسـبوع دخلت في موتٍ سريري. لم تسـتطع قول شيء. لم تكن تتوقع موتها أبداً. حتى في آخر الدقائق كانت تقول لأمها أشياء من قبيل: "سـتفاجئين عندما تعرفين؛ لكنك ستسرّين أيضاً!" ولا تعطيها اسم الأب. تذكر أمها أن ابنتها، وقبل أن تذهب إلى براغ، كانت تحدثها عن رجلٍ تركيٍّ كثيراً، لكنها لم تر وجهه ولم تعرف اسمه. بقيت الطفلة في المستشفيات ودور العناية حتى عمر أربع سنوات، ثم أخذتها جدتها لجانبها. كانت طفلةً واهنةً وهادئة، لكنها لطيفةٌ جداً.. ألا تعتقد ذلك؟"

شـعرت بضعفٍ مفاجئٍ كاد أن يسقطني. رأسي كان يدور، رغم ذلك كنت أقف منتصباً على قدميّ وأبتسم:

- "هذه البنت؟"، سألت وأشرت إلى الطفلة التي كانت في المقصورة.

- "نعم، طفلةٌ حلوة أليس كذلك؟ يالها من فتاةٍ مؤدبةٍ وسـاكنة!.. من

يدري كم تتوق جدتها لرؤيتها!»
كانت المرأة تنظر إلى وجهي وهي تتكلم، وفي عينيها مايشبه وميض المكر.
كان القطار على وشك المغادرة. صعدت إلى المقصورة.
وبعد قليل، كانـــت الإثنتان تظهران جالســتين جنباً إلى جنب خلف النافذة. كانت الطفلة تنظر إلى المحطة وأحياناً إليّ بابتســـامةٍ غير مبالية، ولم تفلتنـــي المرأة من خناق نظراتها. تحرك القطـــار. لوحت لهم بيدي. لاحظت ضحكة فراو دوبكه الماكرة.سُحِبَت الطفلة إلى الداخل.
كل هذا حـــدث البارحة. بينها وبين كتابتي لهذه الســـطور حوالي أربع وعشرين ساعة.
ليلة البارحة لم أستطع النوم ولو لثانية. تقلبت في فراشي يمنةً ويسرةً مفكراً في الطفلة، كأني أرى رأسها وهو يتحرك مع اهتزاز المقصورة. طفلةٌ بشعرٍ غزير.. لم أكن أعرف لا لون عينيها ولا شعرها، ولاحتى اسمها. غفلت عـــن ذلك. رغم أنها كانت تمشي بجانبنا وعـــلى بعد خطوةٍ مني إلا أني لم أهتم بالنظر لوجهها ولو لمرة. حتى عندما ودعتهم لم أصافحها. لاشيء، يا إلهي، لا أعلم أي شيءٍ عن إبنتي أنا. من المؤكد أن المرأة شـــعرت بشيءٍ مـــا. لماذا نظرت إلي بتلك النظرة الماكرة؟ أعتقد أنها خمنت شـــيئاً على كل حال، وأخذت الطفلـــة ورحلت. والآن هـــم في الطريق. رأس طفلتي النائمة يهتز بينما القطار يقفز من قضيبٍ حديديٍّ إلى آخر.
غصت بالتفكير في كل هذا عميقاً. لكنني في النهاية لم أستطع التحمل، وتشكَّل الوجه الذي أردت إبعاده عن تفكيري، تدريجيا، أمامي: ماريا بودر، مادوناتي صاحبة معطف الفرو، تقف مقابلي وفي طرف شـــفتيها

انعطافٌ بسيطٌ، وفي عينيها السوداوين نظراتٌ عميقة. لم يكن في وجهها غضبٌ أو عتب، ربما بعض الحيرة فقط. لكن وفوق ذلك، كانت تنظر إليّ بشفقةٍ ومودة. بينما أنا لم تكن لدي الجرأة لأنظر إلى عينيها. عشر سنوات، عشر سنواتٍ بالتمام، وبكل بؤس نفسي وانكسارها، غضبت على ميتة، ولمتها. أكان من الممكن أن أسيء لذكراها أكثر من مما فعلت؟ أساس حياتي، وغايتها، وسببها، شككت بها ومن دون أي تردد، دون حتى أن أفكر بأني قد أكون ظلمتها. راودتني بحقها أسوأ احتمالاتٍ تطرأ على عقل، ولم أتوقف ولو لمرةٍ وأقل لنفسي أنه ربما كان هناك سببٌ لفعلها ذلك وتركها لي. بينما في الحقيقة، فإن أكبر الأسباب وأقواها هو الموت. كدت أجنّ من خزيي. يلفني شعورٌ أحمله مقابل ميت، شعور حزنٍ وندمٍ عديم الفائدة. سأقضي ما تبقى من عمري جاثياً على ركبتي، محاولاً التكفير عما ارتكبته بحقها من جرم. أشعر بأني لن أنجح حتى في ذلك ، وبأني لن أُسامَح أبداً، لأنني اتهمت أكثر إنسانةٍ براءةً بأكبر ذنب، ذنب خذلان قلب إنسان وتركه وحيداً.

قبل عدة ساعات اعتقدت بأنني لن أستطع تذكر وجهها لعدم وجود صورةٍ لها لدي.

لكن في هذه اللحظة، أراها حيةً أكثر مما كانت في حياتها. كما في اللوحة تماماً، حزينة بعض الشيء، ومستغنية. وجهها أكثر شحوباً، وعيناها أكثر سواداً. شفتها السفلى تبرز باتجاهي، وفمها على وشك أن يقول :"آه، يا رائف!". كانت حيةً أكثر من أي زمانٍ مضى. معنى ذلك أنها ماتت قبل عشر سنوات! ماتت وأنا أنتظرها، وأنا أهيئ بيتي لاستقبالها.

من دون أن تخبر أحداً، ولكي لا تجعلني أغرق في المستحيلات، ولكي لا تسلمني للقلق، أخذت سرّها معها وماتت.

الآن أفهم سبب الحدة التي شعرت بها تجاهها، وسبب شعوري بانحباسي داخل سورٍ لا يمكن تخطيه قبل عشر سنين. عشر سنوات، استمريت في حبها، حباً لم ينقص أبداً. لم أسمح لأي أحد سواها بالدخول إلى قلبي، لكني الآن أحبها أكثر من أي وقتٍ مضى. أريد مد ذراعيّ إلى خيالها أمامي، وأمسك بيديها وأدفئهما من جديد. حياتنا التي عشناها سويا، فترة أربع أو خمسة أشهر، أراها بكل تفاصيلها أمام عيني. أتذكر كل نقطةٍ، وكل كلمةٍ دارت بيننا. بدايةً من رؤيتي للوحتها في المعرض، إلى استماعي لغنائها في الأتلانتيك، إلى وقوفها بجانبي، ونزهات حديقة النباتات، وجلساتنا أمام النافذة في الغرفة، وفترة مرضها، أعيشها كلها من جديد. هذه الذكريات، والتي تكفي لملئ حياةٍ كاملة، كانت حيةً ومؤثرةً أكثر مما كانت عليه في الحقيقة لأنها ضُغطت في مدةٍ بسيطة. تُظهر لي هذه الذكريات الآن كيف أني لم أكن أعيش منذ عشر سنوات؛ وبأن كل حركاتي، وأفكاري، وأحاسيسي بعيدةٌ عني كما لو أنها تخصَ أحد الغرباء. في الأصل "أنا" في عمري الذي يقارب خمسة وثلاثين سنة، لم أعش أكثر من أربع أو خمس شهور، بعدها دُفِنْت في أعماق شخصيتي عديمة المعنى والارتباط بي.

مساء البارحةاَ ادركت بعد رؤية وجه ماريا أمامي بأن حملي لهذا الجسداَ وهذا الرأس الذي لم يعد له صلةٌ بي سيغدو أمراً شاقاً . سأطعمهما كما أطعم شخصاً لا أعرفه، وأسوقهما من مكانٍ لآخر، وسأتفرج عليهما

برأفةٍ واســتخفافٍ دائماً. في مساء البارحة فهمت بأني وبعد أن خرجت تلك المرأة من حياتي، فقد كل شيءٍ حقيقته، فأنا كنت قد متّ بينما كنت معها، بل ربما قبل ذلك بكثير.

خرج «ساكنوا البيت» مبكراً اليوم إلى التنزه، تذرعت أنا بسوء مزاجي حتى لا أذهب. منذ الصباح وأنا أكتب، بدأ المســاء بالحلول ولم يعودوا بعد، لكنهم سيأتون بعد قليلٍ وهم يتضاحكون ويتصارخون. ما كانت علاقتي بهم؟ مافائدة الروابط إذا لم تتآلف الأرواح؟ لم أقل كلمةً لأحدٍ منذ سنوات، رغم أني أحتاج للتحدث لدرجة كبيرة. بم يفرق خنق كل شيءٍ بداخلك عن أن تُدفن حياً؟ آه يا ماريا، لماذا كنا نجلس عند النافذة ولا نتكلم؟ لماذا كنا لا نستمع إلى تخاطب أرواحنا ونحن نمشي صامتين جنباً إلى جَنب في أمسيات الخريف العاصفة؟ لماذا أنت لستِ بجانبي؟

هربت من الناس لمدة عشر ســنوات بلا ســبب، وظلمتهم بعدم ثقتي بهم. لو أنني بحثت فليربما وجدت أحداً مثلك. لو أنني عرفت ماحدث في ذلــك الوقت، لربما اعتدت مع الوقــت، وجهدت للبحث عنك في أناسٍ آخرين، لكن كل شيءٍ انتهى الآن. أنا في الواقع، وبعد ما ظلمتك هذا الظلم الكبير الذي لا يغتفر، فإني لا أريد إصلاح أي شيء. ظلمت كل الناس واتهمتهم اســتناداً إلى حكمٍ خاطئٍ أصدرته بحقك، فهربت منهم. اليوم أفهم الحقيقة، لكنني مُجبرٌ على أحبس نَفَسي في وحدةٍ أبدية. فالحياة ليســت إلا مقامرةً تُلعب لمرةٍ واحدة، وأنا خسرتها. ليس لي أن ألعــب جولةً أخرى. من الآن وصاعداً ســتبدأ حياةٌ أسِــوأ من حياتي الســابقة. ومن جديد، سأذهب للتبضع في المساء كآلةٍ كل يوم. سأقابل

أناســاً لا أكترث بمن يكونون، وسأســتمع إلى كلامهــم. هل بإمكان حياتي أن تكون مختلفةً عن ذلــك؟ لا أظن. فلو لم تخرجك الصدف في طريقي، لكنت قد عشت حياتي، ولكن من دون أن أكون واعياً بشيء. أنــت علمتني أن هناك في هذه الدنيا حياةً أخرى مختلفة، علمتني بأن لي روحاً. ليتك اســتمريتِ في ذلك، أنا لا ألومك، فأنا في الحقيقة أشكرك على وهبك لي إمكانية العيش في عدة أشهر. ألم تكن تلك الأشهر بقيمة عدة أعمار؟ والجزء الــذي تركته منكِ خلفك، ابنتنا، تتجول على وجه هذه البســيطة غير داريةٍ بوجود أبٍ لها. تقاطعت طرقنا مرة. لكني لا أعرف أي شيءٍ عنها. لا اســمها، ولا مكانها. رغم هذا، إلا أني سأظل ألاحقها في خيالي. ســأمشي بجانبها في خيالي وأشــاهد حياتها تســير. سأملأ وحدة ســنواتي المقبلة متخيلاً إياها وهي تكبر، وهي تذهب إلى المدرسة، وهي تضحك وكيف تفكر. في الخارج جلبةٌ قادمة. يبدوا أنهم قد عادوا. أريد أن أكتب وأكتب. لكن ما الفائدة؟ كتبت كل هذا، فماذا تغير؟ عليّ أن أشتري لإبنتي دفتراً جديداً في الغد وأخبئ عنها هذا.

***

انتهــى دفتر رائف أفندي هنا. لم يكن في الصفحات المتبقية أي ملاحظة أو كتابة، كما لو أن روحه التي خبأها بتوجسٍ كبير لم يســمح بخروجها إلّا مــرةً واحدةً على هذه الأوراق، فانكفأ على نفســه بعدها من جديدٍ وصمت لسنوات.

حــل الصباح. ولكي أوفي بوعدي وضعت الدفتر في جيبي وذهبت إلى بيت المريض، وعندما فُتِح الباب كان الجزع الذي قوبلت به وأصوات

البكاءٍ التي أتت من الداخل قد أفهمتني ماحدث. توقفت واجماً للحظةٍ لا أدري ماذا أفعـل، لم أرد أن أذهب قبل أن ألقـي عليه نظرةً أخيرة، لكنني أحسست بأنني لن أتحمل ذلك، وبأنني لن أستطيع، وبعد أن شاهدت في ليلةٍ واحدة، بل وعشت معه أكثر جوانب حياته حياةً، لن أستطيع أن أتحمل رؤيته وقد أصبح جثةً هامدة، فسحبت نفسي ببطءٍ إلى الخارج. لم يؤثر فيّ موت رائف أفندي كثيراً. فلم أكن أشعر بأني قد فقدته، بل بأني وجدته.

قال لي مساء البارحة: «لمَ نجلس معكم ونتكلم!». أنا لا أفكر كذلك الآن. فليلة البارحة تكلمت معه طويلاً، أكثر من أي وقت. هو، وبينما كان يفارق هذه الحياة، كان أيضاً يلج إلى حياتي مفعماً بالحياة أكثر من أي إنسان آخر. سأجده من بعد هذا اليوم دوماً بجانبي.

جلست على مكتب رائف أفندي الفارغ في الشركة، ووضعت الدفتر ذو الغلاف الأسود أمامي وبدأت قراءته من جديد.

تشرين الثاني 1940 – شباط 1941

«لماذا أحببنا مادونا»

بقلم: سافان غل سونماز

نحـــن أمام كتاب ينظر إليـــه الجميع بذهول. القرّاء، وعشـــاق الأدب وبالطبع كل دور النشر وباعة الكتب. «مادونا، صاحبة معطف الفرو». روايـــة صباح الدين علي التي نشرها قبل ســـبعين عامـــاً، لماذا لا تنزل مـــن أعلى قائمة أكثر الكتب مبيعاً إلى الآن؟ لـــو أراد أحدٌ أن يقنعنا بأن تركيـــا ترد الجميل لصباح الدين علي فإن كلامه هذا باطلٌ لأن المرتكب المجهول لجريمة قتله لم يُدن إلى الآن. وحتى لو قلنا بأن الســـبب هو أن حكايته (يوسف) مصنفةٌ ضمن أفضل مئة أثر أدبي كلاسيكي وتُدرس في المدارس، فإن ذلك أيضاً غير مقنع.

فهل من الممكن فهم سبب كون روايته (مادونا صاحبة معطف الفرو) محبوبة إلى تلك الدرجة؟

يقول أكثر من قرأوا الكتاب بأنهم وجدوا موضوع الرواية مؤثراً جداً، وبأنهم بدأو في قراءته بناءً على توصيةٍ من أحد أصدقائهم، ولم يستطيعوا ترك الكتاب بعدها.

كون لغة الكتاب سهلةٌ وسلســـة هو بالتأكيد أحد أكبر الأسباب التي تجعل القـــارئ يكمل القراءة، ولكنني عندما أســـأل «لمـــاذا نحب هذا الكتاب؟» فإن كثيراً من الذين أســـألهم يجيبونـــي بأنهم تأثروا جداً مما

رُوي فيه، ويتنهدون وهم يخبرونني بأنه «للأسف لا توجدُ قصص حب مثل هذه في زماننا هذا» . وهذا نسجله كأحد الأسباب.

ماذا حصل منذ عام 1943 إلى عام 2013؟

نُشرت الرواية مفرقةً على 48 جزءاً في صحيفة الحقيقة على الفترة الواقعة بين 18 ديسمبر 1940 و 8 فبراير 1941 تحت اسم «حكايةٌ كبيرة». بدأ صباح الدين علي في كتابتها وهو في خدمته العسكرية الثانية في خيمةٍ بمنطقة بويوكدره وأرسلها أولا بأول إلى الصحيفة، وفي أيام كتابته للرواية سقط من حصانٍ وكُسرت ذراعه اليمنى، بعدها أصبح ينقع ذراعه في ماءٍ دافيءٍ ثم يكمل الكتابة.

عندما نأتي إلى عنوان الكتاب، فكر الأديب جودت قدرت بأن يسميه «الرجل عديم الفائدة» لكن لم يعجبه الاسم كفايةً فتراجع عنه. بينما قال مصطفى بيرتيف بأن صباح الدين صنف الكتاب كحكاية في البداية وأعطاها عنوان (ثمانية وعشرون) ثم عرض الصفحة الأولى على مصطفى وأخبره بأنه اختار العنوان ثمانية وعشرون لأن بطلة الحكاية كانت في عمرها الثامن والعشرين عندما تعرف عليها.

من هي صاحبة معطف الفرو هذه؟

لقد قيل عن هوية مادونا صاحبة معطف الفرو الكثير. فبينما كان صديق صباح الدين موفق شرف يقول بأن المرأة كانت أحد عازفات الأوكسترا في أحد كازينوهات تقسيم، كان سوقي سانلي يدعي بأنها فتاةٌ وقع في حبها صباح الدين وهو شاب.

في الحقيقـــة، فإن صباح الدين علي، كان قـــد تحدث عن بطلة الرواية في أحد رســـائله إلى عائشـــة صدقي في تموز عام 1933 بوضوح: « كنت عاشـــقاً لامرأةٍ في ألمانيا اســـمها فروليان بودر. (تُعـــرف هذه المرأة بين أصدقائي باســـم 28) كانت قد مثلت في فلم (المغني المجنون) المشهور في ذلك الوقت، وقتها كانت أغنية sonny boy على ألســـنة الجميع. الآن وعندما أهمهم بتلك الأغنية أتذكر ذهابي مع 28 إلى المتاحف ودور السينما في أيام تشرين أول الضبابية والممطرة. كنت ونحن في الطريق أسرح في تأمل وجههـــا فلا أرى طريقي، هي أيضاً كانت تهزّ رأســـها نحوي بابتسامةٍ خفيفةٍ تريد أن تفهمني بأنها تعذرني فيما أفعله. بين كل من عشقتهن، لم تعاملني احداهن بقدر ما عاملتني هي بطيبها ولطفها. ورغم أنها لم تجعلني أشـــم رائحة طرف اصبعهـــا حتى، إلا أنها لم تكن تحزنني، وكانت تعرف كيف تحافظ على المسافة التي كانت بيننا كما هي دون أن تتسع أو تضيق...»

نُشرت الرواية أول مرةٍ ككتاب في عام 1943 بواسطة دار رمزي للنشر. كان أول ناقد لها هو الشـــاعر ناظم حكمت وفي مايو 1934 أرسل من سجنه الذي كان محبوساً فيه هذا النقد التالي بحق الرواية:

" مادونـــا صاحبة معطف الفرو، هذا الكتـــاب أحببته، وغضبت منه. لأشرح لكم أولاً سبب غضبي. القســـم الأول من الكتاب رائع جدا. فهذا القســـم وبطريقته الخاصة كان على وشـــك أن يتوســـع في تحليل الوجه الخفـــي لعائلةٍ بورجوازيـــةٍ جديدةٍ بطريقـــةٍ عظيمة لدرجة أن

الإنســان عندما ينتقل إلى القسم الثاني، ورغماً عنه، سيقول يا للأسف، فهذا شيءٌ أصيل وابتكاري، فالمقدمــة المتقنة والمميزة صُرفت هباءً. لو أنها لم تُســتخدم هكذا فقط. فأنا وبينما كنت أقرأ القسم الأول وصلت إلى طريق برلين الجديــدة، أنا معجبٌ جدا بالواقعيــة التي فهمتها من معانيك. لو تســتمع لنصيحتي وتأخذ تلك المقدمة وتعيد موت البطل باختصارٍ في روايةٍ منفصلةٍ تدور حول حيــوات أفراد تلك العائلة،لو تأخذ بنصيحتي هذه فإن الموســيقى التي نســمعها في القسم الأول لن تنقطع فجأة. مجيئاً إلى القسم الثاني، فذلك القسم ومن بدايته فهو جميلٌ كحكايــة كبيرة وتجربتك المهمة هذه كانت تلــزم الأدب التركي كثيراً. وأنت أتممت هذه التجربة بنجاح.

بعــد أن قُتل صباح الدين في عام 1948 لم تُنشر أعماله لفترةٍ طويلة، بل إنهم قد حاولوا جعلها تنسى، وفلم تُخرج أعماله من تحت الرماد وتنشر مجددا إلا في عام 1965.



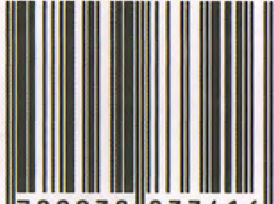
مـادونـا صاحبة معـطـف الفـرو

نحن أمام كتاب ينظـر إليه الجميع بذهـول. القرّاء، وعشـاق الأدب وبالطبع كل دور النشر وباعة الكتب. "مادونا صاحبة معطف الفرو". رواية صباح الدين علي التي نشرها قبل سبعين عاماً، لماذا لا تنـزل من أعلى قائمـة أكثر الكتـب مبيعاً إلى الآن؟ لو أراد أحدٌ أن يقنعنا بأن تركيا ترد الجميـل لصباح الدين علي فإن كـلامه هذا باطـلٌ لأن المرتكب المجهول لجريمة قتلـه لم يُدن إلى الآن. وحتـى لو قلنا بأن السبب هو أن حكـايته (يوسـف) مصنفةٌ ضمن أفضل مئة أثر أدبي كلاسيكي وتُدرس في المدارس، فإن ذلك أيضاً غير مقنع.
فهـل من الممكن فهم سبب كـون روايتـه (مـادونا صاحبة معـطف الفرو) محـبوبة إلى تلك الدرجة؟

يقـول أكثر من قرأوا الكتـاب بأنهم وجـدوا موضوع الـرواية مـؤثراً جداً، وبأنهم بدأو في قراءته بناءً على توصيةٍ من أحد أصدقائهم، ولم يستطيعوا ترك الكتاب بعدها.
كون لغـــة الكتاب سهلةٌ وسـلسة هو بالتأكيد أحد أكبر الأسباب التي تجعل القارئ يكمل القراءة، ولكني عندما أسأل "لمـــاذا نحب هـذا الكــتاب؟" فـإن كثـيراً من الذين أسـألهم يجيبونني بأنهم تأثروا جداً مما رُوي فيه، ويتنـهدون وهم يخبـرونني بأنه "للأسف لا توجدّ قصص حب مثل هذه في زماننا هذا" . وهذا نسجله كأحد الأسباب.

سافان غل سونماز

ISBN 978-9938-833-41-6



Cover Painting :
Black and Pearl by Jack Vettriano
Design by Mahdi Abdu



@darathar
#رواية_مادونا